عالم قرآنية في البناء

المسلم والبناء الحضاري

الوجود الذاتي وعمارة الأرض

تأليف

الأستاذ الدكتور محمّد أديب الصّالح



فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

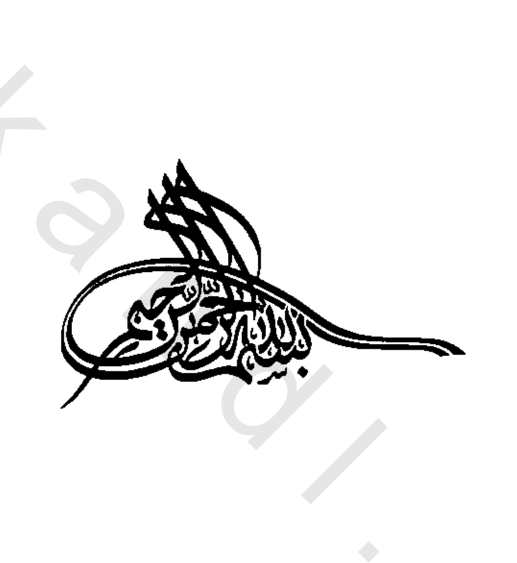
الصالح، محمد أديب
المسلم والبناء الحضاري. / محمد أديب الصالح. - الرياض ١٤٢٧هـ
٣٤٢ ص؛ ١٦،٥×٢٤سم
ردمك: ٧ - ١١٧ - ٥٤ - ٩٩٦٠
١ - الإسلام والمجتمع ٢ - المسلمون - تاريخ - العصر الحديث أ. العنوان
ديوي ٢١٩ ٦٠٠٤ / ١٤٢٧

رقم الإيداع: ٦٠٠٤ / ١٤٢٧
ردمك: ٧ - ١١٧ - ٥٤ - ٩٩٦٠

الطبعة الأولى
١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م

الناشر
شركة العبيكان Obeikan للأبحاث والتطوير
الرياض - شارع العليا العام - جنوب برج المملكة
هاتف ٢٩٣٧٥٧٤ /٢٩٣٧٥٨١ فاكس ٢٩٣٧٥٨٨
ص. ب ٦٧٦٢٢ الرمز ١١٥١٧

امتياز التوزيع
شركة مكتبة العبيكان Obeikan
الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع السروية
هاتف ٤١٦٠٠١٨ /٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩
ص. ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥





توطئة

الحمد لله الذي يسجد له ما في السموات وما في الأرض طوعاً، وكرهاً وظلالُهم بالغدوِّ والآصال.

والحمد لله عالمِ الغيب والشهادة الكبير المتعال، القائم على كل نفس بما كسبت وهو شديد المِحال.

والحمد لله الذي له مقاليد السموات والأرض، والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون. وتبارك الذي نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً، سبحانه من إله غفورٍ ودودٍ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه، أنزله بالحق وبالحق نزل، وهو النور المبين.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، أوحى بهذا الكتاب المبين إلى خاتم رسله وصفوته من خلقه محمد بن عبدالله رحمة العالمين؛ مباركاً ليدَّبروا آياته وليتذكَّر أولو الألباب، نعم، ونزّله تبياناً لكل شيء وهدىً ورحمة وبشرى للمسلمين. ويسّره بلسانه ليبشر به المتقين، وينذر به قوماً لداًّ. حيث الغايةُ الكبرى أن يحصل التذكر وتأخذ الهداية سبيلها إلى القلوب ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[1].

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله؛ أدّى الأمانة في تبليغ ما أنزل إليه من تلكم الآيات البينات، ولم يدَع أن يبيِّن - وقد أوتي القرآن ومثله معه - ما يلزم بيانُه خير بيان، عملاً بقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2].

---

(١) (الدخان: ٥٨).
(٢) (النحل: ٤٤).

فجزاه الله عن الأمة ونصرة الحق خير الجزاء، وصلى الله وسلم وبارك عليه ما اختلف الليل والنهار؛ أداءً لبعض حقه وقد أنقذنا الله به من التهلكة وجعلنا في خير أمة أخرجت للناس، كلما ذكره الذاكرون وغفل عنه الغافلون، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وصحابته الهداة المهتدين، الذين أدَّوا أمانة نقل الكتاب الكريم وبيانه المحمّدي على خير وجه وأكمله للعالمين، ومن تبعهم بإحسان واقتفى أثرهم على طريق القرآن المجيد وبيانه من سنة سيد المرسلين.

وبعد: فليس من نافلة القول أو مكروره التذكير بواحدة من المسلَّمات عند أولي الألباب، وهي أن واحداً من أهل النَّصَفة أوتي ولو أثارة من علمٍ لا يماري في أن من أجلِّ نعم الله على الأمة المحمدية، بل على البشرية جمعاء، هذا القرآنُ المجيد الذي أنزله الله على نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه بالحق، وبالحق نزل، أنزله عليه - كما تدلّ معالمه - ولم يجعل له عوجاً، ويسره بلسانه ليبشر به المتقين وينذر به قوماً لدّاً لعلهم يتذكرون.. هذا الذكر الحكيم - وهو كلام الخلاق العليم - يتبوأ من رفعة القدر وسعة العطاء في كلماته التي لا تنفد، المنزلةَ التي لم يبلغها كتاب ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾[1]، كما يتبوأ من عظيم المكانة التي لا تجارى في قيمه وحقائقه ومعانيه الناطقة بها معالمه، ناهيك عن أسلوبه وفصاحته، حيث بلغ من سموّه أن الله تبارك وتعالى رقاه إلى مقام دلّ بعظمته أنه المعجز حقاً، وأنه مع دلالاته القاطعة على أنه من عند الله لو اجتمعت الإنس والجن على معارضته، ولو بالإتيان بسورة من مثله لعجزوا ولم يقدروا ولو تمالؤوا جميعاً على ذلك ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[2].

(١) (الكهف: ١٠٩). (٢) (الإسراء: ٨٨).

فسبحان من أنزله تبصرة وذكرى لأولي الألباب، وجعله مهيمناً على ما سبقه من الكتب، وأغزرَها علماً للعباد ونفعاً، وأجلَّها منزلة وقدراً ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾[1].

وهكذا شاء ربنا تبارك وتعالى أن يكون هذا الكتاب الخاتم - وقد أنزل على صاحب الرسالة الخاتمة - ينبوع الحكمة وآية الرسالة، ونور الأبصار والبصائر، ولم لا وهو الكتاب الذي أحكمت آياته ثم فصِّلت من لدن حكيم خبير. ألا إنه الفصل ليس بالهزل، لا يمتري عاقل في أنه كلِّي التشريع، وعمدة الملة. فهو أصل الأصول، وحبل الله المتين، لا تزيغ به الأهواء ولا يخلق على كثرة الردّ - أو عن كثرة الردّ - ولا تنقضي عجائبه، فهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾[2] من قال به صدق، ومن عمل به أُجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هُدي إلى صراط مستقيم.

وأنت واجد في معالمه النورانية الخيرة، المكيِّ منها والمدني، والتي يطالعك من خلالها عمومُ هدايته.. نهجاً من البناء الحضاريّ القويم، على صعيد الفرد والجماعة والأمة بشمول وعمق بالغَين، الأمر الذي يرقى بالأمة، أن لو عملت به، إلى كل ما فيه سعادة الدنيا ويوم يقوم الناس لربِّ العالمين، ذلك بأن هذه المعالم - وهي من هذا الكتاب وإليه - حقّ كلها، ونور كلها، ألم تر إلى قوله تعالى: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝١٠٥ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً﴾[3] وقوله جل شأنه: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾[4].

---

(١) (المائدة: ٤٨).
(٢) (الجن: ١ - ٢).
(٣) (الإسراء: ١٠٥ - ١٠٦).
(٤) (فاطر: ٣١).

أجل، هو الحق وأنزل بالحق، فليس لشيء من الباطل - كائناً ما كان شأنه وشأن أهله - إلى تلك المعالم من سبيل، مهما افترى المفترون، ومكر الماكرون، وماري السفهاء والملبِّسون، وانتحل العابثون المبطلون. وجلّ شأن ربنا السميع القاهر فوق عباده إذ يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[1].

فطوبى لمن تحملهم نورانية هذه المعالم إلى أن يكونوا على الجادة يحسنون اصطحاب هذا القرآن تلاوة وتدبراً وتذكراً، يعملون بمحكمه ويؤمنون بمتشابهه، ويدورون معه - وهو كلام العليم الحكيم - حيث دار. وما أعزّها ثمرة مخالطةُ تلك المعالم مخالطة إيمانية واعية، تسمو بأصحابها المهديّين إلى حيث السدادُ في الأقوال والأفعال، والظفر بالسعادة العاجلة، وحسن العقبى يوم الدين، حيث يشهد لهم القرآن بأنهم كانوا في الدنيا لا يدَعون أن يدوروا معه حيث دار.

وكم دعا السلف الصالح إلى التحقق بذلك، وكشفوا لمن يقوم به عن أعظم البشريات. روى صاحب «الحلية» عن عبدالرحمن بن عبدالله بن مسعود: أن رجلاً أتى أباه عبدالله بن مسعود فقال: يا أبا عبدالرحمن علِّمني كلمات جوامعَ نوافع، فقال رضي الله عنه:

«اعبد الله ولا تشرك به شيئاً، ودر مع القرآن حيث دار، ومن جاءك بالحق فاقبل منه وإن كان بعيداً بغيضاً، ومن جاءك بالباطل فاردد عليه وإن كان حبيباً قريباً.»[2] وروى الباجي عن ابن وهب قال: سمعت مالكاً يقول «إن استطعت أن تجعل القرآن إماماً فافعل، فهو الإمام الذي يهدي إلى الجنة»[3] ورضي الله عن ابن أم عبد إذ يقول: «إنما هذه القلوب أوعية

(١) (فصلت: ٤١-٤٢).

(٢) «الحلية» لأبي نعيم الأصفهاني: ١ / ١٣٢ . «صفة الصفوة» لابن الجوزي: ١ / ١٦٥، «الربانيون قدوة وعمل» للمؤلف: ١٣٢ .

(٣) ينظر تفسير الثعالبي: ٢ / ٢٥٢ .

فاشغلوها بالقرآن ولا تشغلوها بغيره»[١]. ولا تعجب ما دام القرآن هو الكتاب المعجز الذي لا يستطيع الجن والإنس على معارضته ولو اجتمعوا وتظاهروا، والذي صرّف الله فيه دلائل الهدى ونوّعها لتخاطب كل عقل وقلب، وسبحان من أنزله على نبينا المصطفى ليكون للعالمين نذيراً.

وعلى هذا السنن من اصطحاب اللمحة السريعة في هذه العجالة في القول: ما بد من التنويه بوضوح الدلالة على أفضلية هذه المعالم وما تتسم به من الدقة المتناهية، والحكمة - البالغة في وفرة عطائها الذي لا يستثني ساحة من ساحات البناء، ذلك البناء الذي لا ينأى عن العبودية لله والحفاظ على إنسانية الإنسان ونصرة الحق وتوفير ما يثمر الحضارة المثلى، لما أن هذه الحضارة من نور القرآن الذي هو المعجزة الحقة الباقية إلى يوم الدين، وسداها ولحمتُها هديه الربانيّ وبناؤه الحق المكين.

وجماع ذلك على صعيد الهداية والبناء الشامل المتكامل للفرد والجماعة والأمة - ناهيك عن البناء الحضاري القويم - قول الله تعالى في سورة الإسراء - وهي سورة مكية -: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً﴾[٢]، وأقوم من القَوام وهو العدل والاعتدال، ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً﴾[٣]، وفلان أقوم كلاماً من فلان: أي أعدل.

فهذا الكتاب المبين يهدي ويرشد العباد على خير منهج في دينهم ودنياهم وآخرتهم لأقوم الحالات وأصوبها، وأفضل الطرق وأسدّها، وأوضح السبل وأعدلها؛ فالهداية به قائمة أبداً للحالة التي هي أسدُّ وأعدل

---

(١) «الربانيون قدوة وعمل » ١٧١، وانظر «الحلية» ١ / ١٣١ .
(٢) (الإسراء: ٩).
(٣) (الفرقان: ٦٧).

وأصوب، ويمكن أن نقول: يهدي للملّة أو الشريعة أو الطريقة التي هي أقوم الملل والشرائع والطرق. وهذا مبنيّ على أن كلمة (أقوم) نعت لموصوف محذوف ذهب كثير من العلماء إلى تقديره على الوجوه التي ذكرنا أو بعضها. ومثل هذه الكناية كثير في القرآن الكريم كما في قوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ...﴾[1]. أي بالخصلة التي هي أحسن. فكان أفعل التفضيل (أحسن) صفة لكلمة الخصلة المقدرة.

ولا علينا أن نذكر أن فريقاً من العلماء ذهب إلى أن (أقوم) ليست للتفضيل؛ فالمعنى: يهدي للتي هي قيّمة أي مستقيمة، كما قال تعالى: ﴿وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾[2]، وكما قال سبحانه: ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾[3]، أي مكتوبات مستقيمة ناطقة بالحق.

هذا: ومن الأهمية بمكان أن نشير إلى أنه على كلا الوجهين في كلمة (أقوم) فإن قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ يأتي على وجه الإطلاق في تقرير أن هذا الكتاب الكريم يرشد للطريقة التي هي أسدّ وأعدل فيمن يهديهم وفيما يهديهم له، فيشمَل الهدى - كما يقول صاحب الظلال[4] أقواماً وأجيالاً بلا حدود من زمان أو مكان، ويشمل ما يهديهم إليه كلَّ منهج وكل طريق، وكلَّ خير يهتدي إليه البشر في كل زمان ومكان.

هذه واحدة، وأما الثانية: فهي ما أوضحه الزمخشري من عظمة الإعجاز ورفعة الذوق البلاغي في حذف الموصوف بقوله تعالى: ﴿لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ قال في «الكشاف»: ﴿لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ للحالة التي هي أقوم الحالات وأسدُّها، أو للملّة أو الطريقة، وأيّما قدّرت لم تجد مع الإثبات - أي إثبات الموصوف - ذوق البلاغة الذي تجده مع الحذف، لما في إبهام الموصوف بحذفه من فخامة تُفقَد مع إيضاحه»[5].

وفي خاتمة المطاف: لقد قدمت هذه اللمحة الوجيزة من القول الذي هو في سموّ موضوعه عن القرآن ومعالمه الخيّرة قليل قليل من كثير كثير

---

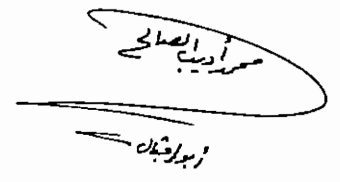
(١) (فصلت: ٣٤). (٢) (البينة: ٥). (٣) (البينة: ٣).
(٤): (٤ / ٥ / ٢٢). (٥): «الكشاف»: (٢ / ٣٥٣).

قدمتها وأنا بسبيل الإشارة العجلى إلى أن الصفحات القادمات هنا ثمرةٌ من ثمرات رحلة ميمونة طالت بعض الشيء، منَّ الله بها عليّ – وهو ذو الفضل العظيم – صحبت من خلالها عدداً وافراً من المعالم القرآنية المكي منها والمدني، الهادية إلى كل ما هو أسدُّ وأعدل في مختلف الأحوال والشؤون، لما أنها من محكم التنزيل وإليه.

وقد كنت حريصاً – من خلال التدبّر المستطاع – على تناولها بأمانة علمية منهجية والكشف قدرَ الطاقة عن معانيها ومنارات الهداية في كل منها حسب موقعه على الصعيد المطروق في ساحة البناء الشامل المتكامل بمعناه الإسلامي الحضاري، البناء الذي تناول – مع العقيدة والعبادة والأخلاق – شؤونَ الحياة بأكملها، لما أن جذور حضارتنا الإسلامية تكمن في هذه المعالم الخيّرة وبيانها من السنة المحمدية، ثم فهوم أئمة الهدى عليهم الرحمة والرضوان. وأينما وجدت المصلحة في عرف هذه الحقيقة: فَثَمّ شرعُ الله ودينه.

واللهَ أسأل أن يتقبل بقبول حسن هذا العمل النيّر بجوهره وعطائه، المتواضع بتناوله والكلام فيه، وأن ينفع به قارئه والناظر فيه، وأن يتفضل بالعفو عما يكون من زلل. إنه سميع مجيب الدعاء، لا ربَّ غيرُه ولا خير إلا خيرُه، منه التيسير والعون وإليه المرجع والمآب.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلاة الله وأزكى تسليماته على إمام الهداة وصفوة الله من خلقه سيدنا محمد بن عبدالله وعلى آله الطيبين الطاهرين وصحابته الهادين المهتدين؛ أجمعين.



أستاذ ورئيس قسم القرآن والسنة بجامعة دمشق
أستاذ ورئيس قسم السنة وعلومها بجامعة الإمام سابقاً
رئيس تحرير مجلة حضارة الإسلام



المسلم والبناء

بناء الإنسان في قلبه وعقله، وطريقة تفكيره ومشاعره، كيما يكون ذلك الإنسان الفاعل المؤثر في بناء المجتمع، قد أخذ حيّزاً واضحاً في كتاب اللّه وسنة الرسول عليه الصلاة والسلام. وفي ضوء المنهج القرآني، كانت الخطوة الأولى: العمل على أن يحسَّ هذا الإنسان بحقيقة إنسانيته، فهو ذلك المخلوق الذي كرَّمه اللّه، فخلقه في أحسن تقويم، وفضّله على كثير ممَّن خلق تفضيلاً.

وعلى ذلك: فمقياس التفاضل بين البشر، وتقدير الأولويات بينهم، ينبغي أن لا يقوم على قاعدة من الجنس أو اللون أو الأرض، ولكن ينبغي أن يقوم على ما يكون من حسن صلة هذا الإنسان بربّه الذي خلقه فسوّاه فعدله، وما يقدّم من عمل صالح يعود عليه وعلى أمّته بالخير؛ فالإنسان هذا المخلوق المكرَّم المفضّل، هو عبدٌ لله تبارك وتعالى قبل أن يكون انتماؤه إلى لون، أو جنس، أو أرض.. دستور ذلك قول اللّه في محكم كتابه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾[الحجرات:١٣] .

وإذن: فليس من العدالة في شيء أن تقوم قاعدة التقدير والاعتزاز على أمرٍ ليس للإنسان فيه إسهامٌ أو مشاركة فضلاً عن العمل الذاتي، ولكن الفضل كلَّ الفضل، إنَّما يكون بما عمل هذا الإنسان، وبما اتصف به من خصال مَرْضِيَّةٍ عند اللّه، تعود عليه وعلى المجتمع بالخير والنماء.

والتقوى هي ملاك ذلك كلّه في المصطلح الإسلامي، فهي تلك الملكة التي تضيء جوانب النفس، وتحمل على صدق العبودية لله، وإخلاص النية في كلّ صغيرة وكبيرة، على صعيد عبادة اللّه، والمعاملة بين الناس، ودوام الصلة بكتاب اللّه وسنَّة نبيه عليه الصلاة والسلام وكل ما هو منهما بسبب.

وتقوى اللّه هذه: نعمت المقياس للكرامة عند اللّه تبارك وتعالى؛ فالناس يرتدّون إلى أصلٍ واحد، وخالقهم واحد، خلقهم من ذكر وأنثى، وجعلهم اللّه شعوباً وقبائل، ليتعارفوا فيتعاونوا على بناء الحياة الأفضل، ويحققوا عبودية اللّه في هذه الأرض.

ولقد كان رسول اللّه ـ وهو المبيّن لكتاب اللّه ـ شديد الحرص على أن تأخذ هذه الحقيقة طريقها إلى القلوب والعقول؛ من أجل أن يكون كل واحد في الجماعة المسلمة عنصر بناء وفاعلية وطاقة تنتج وتنمي وتؤثر، فتتصبُّ كلّ الروافد في ذلك النهر الكبير الذي يتدفق بحضارة الإسلام التي لم تسعد الإنسانية في أعصارها المختلفة إلاَّ في ظلّها.

ورأيناه صلوات اللّه وسلامه عليه في أواخر سنيّه بين المسلمين، يرسلها كلمات مضيئة يبلى الزمان ولا تبلى إذ قال ـ كما روى الطبري والبزار والطبراني بألفاظ مختلفة ـ يوم حجة الوداع: «إن اللّه يقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾[الحجرات: ١٣]. فليس لعربي على عجمي ولا لأسود على أحمر ولا لأحمر على أسود فضلٌ إلاَّ بالتقوى».

وهكذا أشعر الإسلام الإنسان بوجوده، ونمَّى فيه روح الإيجابية والبناء، وأخذ به إلى ميادين الحياة، ليعمل بعقيدة وطمأنينة، فتضافرت كل الجهود، وكان التكامل في المجتمع المسلم، ثقافياً واقتصادياً وسياسياً واجتماعياً، وتدفقت كل الطاقات تبني صرح الإسلام وترفع قواعده؛ ولم يَدَعْ رسول اللّه ﷺ ـ وهو سيّد البُناة والمربّين ـ أن يذكّر بهذا المنطلق حتى في حال الشدَّة الشادّة عند القتال؛ فقد أخرج أبو داود عن أبي عقبة رضي اللّه عنه ـ وكان مولىً من أهل فارس ـ أنَّه قال: (شهدت مع رسول اللّه ﷺ أحداً فضربت رجلاً من المشركين فقلت: خذها وأنا الغلام الفارسي، فالتفت إليَّ رسول اللّه ﷺ فقال: هلاَّ قلت: خذها وأنا الغُلام الأنصاري!!).

أجل، إنَّه خرج للقتال تحت راية التوحيد، وكان الأنصار أنصاراً لأنَّهم نصروا اللّه ورسوله تحت هذه الراية، فليكن ذلك مناط الاعتزاز، إذ لا فضل لعربي على عجمي إلاّ بالتقوى.

ومن هنا رأينا حضارة الإسلام الفضلى تُبنى على أساس من هذا المبدأ الإنساني العقدي، تلتقي على الإسهام في هذا البناء العقول والقلوب والطاقات كافة تحت راية التوحيد دون تفريق بين عربي وغير عربي فرب الكل واحد والدين واحد والأب واحد.

وقد جاء في «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي: وفيه عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله لا ينظر إلى أحسابكم ولا إلى أنسابكم ولا إلى أجسامكم ولا إلى أموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم، فمن كان له قلب صالح تحنَّن عليه، وإنما أنتم بنو آدم، وأحبكم إليه أتقاكم**».

وهكذا: فأحب العباد إلى الله وأكرمهم عنده أتقاهم. وهذا ما تتحقق به إنسانية الإنسان على أكرم وجه، وسبحان الحكيم الخبير.

* * *



من أسس بناء الإنسان

من الأسس التي قام عليها بناء الإنسان في القرآن: الدعوة إلى إعمال العقل ونبذ التقليد الأعمى.

فإعمال العقل يفسح المجال للتدبر في النفس، والنظر في آلاء اللّه ومخلوقاته نظرة عملية تجريبية تصل بالإنسان إلى الإيمان باللّه عز وجل، والاستقامة على طريقة تتحقق معها إنسانية الإنسان، وبناء الحياة على وجه تتعاون فيه العقيدة والعلم والأخلاق، ويأخذ كل أمر من الأمور أبعاده الطبيعية دون حيف أو عدوان، وإذا حصل ذلك: ضمنت النماء في الطاقة البشرية، وضمنت أن يتولد عن ذلك تنمية للطاقات الطبيعية، وحشد للجهود المثمرة الخيرة في طريق الازدهار والخير.

أما التقليد الأعمى لمن لا يعقلون ولا يهتدون: فيعطل العقل، ويهمل وسائل المعرفة، ويقعد بالإنسان عن الحركة والتفوق، بل يقعد به عن أن يحيط بما حوله، أو يدرك غاية وجوده، وفارقَ ما بينه وبين المخلوقات الأخرى. وفي الوقت نفسه يحرم المجتمع مما كان يمكن أن يصنعه ذلك الإنسان لو أعمل ما أعطاه اللّه من عقل وحواس ووسائل للمعرفة، فانطلق بذاتيته وأصالته فأعطى وأبدع.

ولقد كانت مبكرة دعوة القرآن في واحد من معالمه العظيمة إلى إعمال العقل، والتفكر والتدبر في كثير من آياته كما في قوله تعالى: ﴿ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾[آل عمران: ٦٥] ﴿أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٥٠]﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُوْلِي النُّهَىٰ ﴾[طه: ٥٤، ١٢٨] ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[الرعد: ٣] ﴿ أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾﴾[الغاشية: ١٧-١٩].

والذين يريدون بناء المجتمع: لا بد أن يكونوا على مستوى الغاية، كيما يكونوا قادرين على البناء ﴿وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء: ٣٦] وما ليس بعلم ولا معرفة فهو ظن لا يغني من الحق شيئاً، فالكفرة والمنحرفون ليس عندهم دليل، ولا تقوم لما يزعمون حجة﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [الأنعام: ١١٦] ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾﴾ [لقمان: ٢٠].

وعلى الخط الموازي، عندما كان رد المشركين على دعوة التوحيد، إصراراً على التقليد الأعمى للآباء والأجداد، والانغلاق الفكري دون وعي إنساني أراده الإسلام، جاء الرد القرآني بقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾[البقرة: ١٧٠] ففي الآية تعجيب من صنيعهم، أتتبعون أولئك الآباء والأجداد ولو كانوا لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون...

إن القرآن عندما ينير السبيل بهذا المعلم من معالمه، من وجوب إعمال العقل ونبذ التقليد الأعمى فإنما يضع الأمة على الطريق الصحيحة في البناء.

ولكن اتباع الحق غير التقليد الأعمى، فعندما يدعو المصلحون اليوم إلى التأسي برسول الله ﷺ، والتزام منهج البررة الذين سلكوا سبيله، فإنما ذلك استجابة لما تمليه العقيدة، واحتكام إلى العقل السليم، والمهم أن نكون على يقين لا يعتوره شك من أن الأمة في مسيرتها على طريق البناء عندما تأخذ بالإسلام: فإنما تأخذ بالمنهج الأقوم الذي يرضاه العقل السليم عندما يفهم الوحي المنزل، ويضع كلَّ أمر موضعه في كل ميدان من ميادين البناء للإنسان والحياة!

* * *

البناء.. والفقه في الدين

هذا هو البحر الذي لا ساحل له في حياة نبينا محمد ﷺ، ذلكم هو صياغة الإنسان وبناؤه على الوجه الذي يكفل له القدرة على أن يكون ـ وهو يعمر الأرض ـ اللبنة الصالحة في مجتمع أنموذجي، هو مجتمع الرسالة التي تنزَّل بها القرآن وحياً من السماء.

ولقد كان العلم من أبرز عناصر هذه الصياغة وذاك البناء، الأمر الذي يدلُّ على أهمية العلم في حياة الفرد والمجتمع في نظر الإسلام.

ومما يعطي ذلك تأكيداً أوفى وبياناً أوضح، أن يكون ذلك من رسول يوحى إليه، الأمر الذي أدخل القضية في حدود الشرعة التي لا اختيار للمكلف أن يقول إزاءها: أريد أو لا أريد.

فرسول الله ﷺ في ظل ما فسح القرآن في آيه من حجم مبارك تكريماً للعلم وللعلماء، وعملاً بما أنزل عليه: إن من مهامه أن يكون معلماً يعلم الناس ما لم يكونوا يعلمون، ويقوم هو بدور المعلم المزكِّي، ويكشف في كل تصرفاته صلوات الله وسلامه عليه الأبعاد الحقيقية للعلم في بناء الفرد وتكوينه، وفي سلامة بناء المجتمع وحراسته التي تضمن الاستقرار، وتباعد عنه عوامل الأذى والانهيار، لما أن العلم يشمل كل ما يجب للفرد والجماعة في الدين والدنيا.

والذي يستوقف الناقد البصير، ويوحي بضرورة القراءة الواعية المتأنية لسيرة الرسول ﷺ، أنه عليه الصلاة والسلام كان لا يشغله عن هذا المعلم القرآني الكبير شاغل في سلم ولا حرب، ولا منشط ولا مكره؛ فالأصل الأصيل عنده ـ بأبي هو وأمي ـ أن يحسن بناء الإنسان وتزكيته وصياغته على الخير، ليكون قادراً على أداء رسالته هو في البناء، وتنمية كل الطاقات لتكون في خدمة هذه الرسالة. وأول عنصر من عناصر هذا البناء بعد الشهادتين أن يتعلم...

هذه قريش ـ وقد أثخنتها جراح بدر ـ تضيق عليها الأرض بما رحبت، ولا تجد ما تتنفس معه الصعداء بعد أن بدأت تجني ثمار ما زرعت من السوء. هذا عروة بن الزبير يحدث ـ كما روى ابن إسحاق والبيهقي وغيرهما ـ أن عمير بن وهب الجمحي حبس صفوان بن أمية في الحجر بعد مصاب أهل بدر بيسير، وكان عمير بن وهب شيطاناً من شياطين قريش، وكانَ ممن كان يؤذي رسول اللّه ﷺ وأصحابه، ويلقون منه عناء وهو بمكة، وكان ابنه وهب في أسارى بدر. قال عروة: فذكر أصحاب القليب ومصابهم، فقال صفوان: واللّه إن في العيش بعدهم خير. فقال له عمير: صدقت، أما واللّه لولا دينٌ عليَّ ليس عندي قضاؤه، وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدي لركبت إلى محمد حتى أقتله، فإن لي فيهم علة، ابني أسير في أيديهم.

فاغتنمها صفوان بن أمية، وقال: عليَّ دينك أنا أقضيه عنك، وعيالك مع عيالي أواسيهم ما تبقوا، لا يسعني شيء ويعجز عنهم؛ فقال له عمير: فاكتم عليَّ شأني وشأنك. قال: سأفعل. قال عروة: ثم أمر عمير بسيفه فشحذ له وسُمَّ وقدم المدينة المنورة، فأناخ بباب المسجد، ورآه عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه فذكر شيئاً من تاريخه الأسود مع المسلمين ثم دخل على رسول اللّه ﷺ، فقال: يا نبي اللّه هذا عدو اللّه عمير بن وهب، قد جاء متوشحاً سيفه؛ قال: فأدخله عليَّ، فأقبل عمر حتى أخذ بحمالة سيفه في عنقه، فلببه بها، وقال لمن كان معه من الأنصار: ادخلوا على رسول اللّه ﷺ فاجلسوا عنده، واحذروا عليه من هذا الخبيث، فإنه غير مأمون.

ثم دخل على رسول اللّه ﷺ، فلما رآه رسول اللّه وعمر آخذ بحمالة سيفه في عنقه، قال: أرسله يا عمر، ادن يا عمير؛ فدنا، ثم قال: أنعم صباحاً؛ فقال رسول اللّه ﷺ: قد أكرمنا اللّه بتحية خير من تحيتك يا عمير، بالسلام تحية أهل الجنة.. قال: أما واللّه يا محمد إن كنت بها لحديث عهد. قال: فما جاء بك يا عمير؟ قال: جئت لهذا الأسير في أيديكم، فأحسنوا فيه. قال: فما بال السيف في عنقك؟ قال: قبحها اللّه من سيوف، وهل أغنت عنا شيئاً؟ قال: اصدُقني: ما الذي جئت له؟ قال: ما جئت إلا لذلك، وأنكر أن يكون جاء لسوء. قال: بل قعدت أنت وصفوان بن أمية في الحجر،

فتذكرتما أصحاب القليب من قريش، ثم قلت: لولا دين عليَّ وعيالي عندي لخرجت حتى أقتل محمداً، فتحمَّل لك صفوان بن أمية بدينك وعيالك على أن تقتلني، والله حائل بينك وبين ذلك.

فقال عمير: أشهد أنك رسول الله، كنا يا رسول الله نكذِّبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء، وما ينزل عليك من الوحي، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان، فوالله إني لأعلم ما أتاك به إلا الله، فالحمد لله الذي هداني للإسلام، وساقني هذا المساق، ثم شهد شهادة الحق، فقال رسول الله ﷺ: فقهوا أخاكم في دين الله، وعلموه القرآن، وأطلقوا أسيره؛ ففعلوا.

ولم يلبث عمير وقد وقر الإيمان في صدره، وقام إخوانه بما أمرهم رسول الله ﷺ فيه ـ لم يلبث أن استأذن رسول الله في أن يقدم مكة ويدعو الناس إلى الله تعالى وإلى رسوله عليه الصلاة والسلام، وإلى الإسلام، لعل الله يهديهم.. فأذن له رسول الله ﷺ بذلك، فأسلم على يديه ـ رضي الله عنه ـ ناس كثير.

هكذا كان بناء إنسان المجتمع المسلم، نطق الرجل بالشهادتين فأصبح أخاً للمسلمين، وأول ما أمر به رسول الله ﷺ في شأنه: فقهوا أخاكم في دين الله وعلموه القرآن... ليس المهم أن ينضم رقم جامد إلى عدد المسلمين، ولكن المهم أن يكون هنالك إنسان مؤمن قادر على البناء، قادر على الإسهام في صنع التاريخ...

وقد رأينا كيف أن منهج النبي ﷺ في بناء الإنسان قد عمل عمله في قلب عمير وعقله ونشاطه للدعوة على بصيرة؛ حتى إنه قدم المدينة في تلك الحقبة التاريخية بعد بدر يريد قتل الرسول صلوات الله وسلامه عليه، ورجع ـ بحمد الله ـ داعية موفقاً إلى مكة، يدعو إلى الإسلام على بصيرة بالحماسة نفسها التي كان يمالىء بها الكفر فأسهم في إحداث التحويل إلى ما هو الأقوم في حياة أهلها إذ أسلم على يديه خلق كثير، وبدأوا رحلتهم الجديدة المباركة في ضمير الزمن، وهمُّهم نصرة الحق وأهله مستمسكين بالإسلام الذي آمنوا به ذائدين عن حياضه يبتغون فضلاً من الله ورضواناً، وعندما يجتمع إلى الإيمان العلم والعمل: فحدِّث عما يكون من الخير للفرد والجماعة ولا حرج!


obeikandl.com

المؤمن ... والدعاء

التوجه إلى اللّه بالدعاء الصادق، والضراعة الخاشعة، صورة من صور العبودية لله تبارك وتعالى، فهو القادر، وهو الخالق، وهو الذي يجيب دعاء المضطر إذا دعاه، وقد أمر عباده بدعائه، فقال: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأعراف: ٥٥].والمعتدون هنا، عند أكثر المفسرين: المعتدون في الدعاء سواء بما يطلبون، أو بالطريقة التي يسلكون من حيث التشدق ورفع الصوت بشكل لا يتناسب مع أدب الدعاء والتضرع إلى اللّه.

وفي الآية التي بعد هذه من سورة الأعراف، يقول جل وعلا: ﴿وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾[الأعراف: ٥٦] ينهى ربنا تبارك وتعالى عن الإفساد في الأرض بالشرك والمعاصي بعد إصلاحها بإرسال الرسل وإنزال الكتب، ويأمر بالدعاء خوفاً وطمعاً؛ خوفاً من غضبه وعقابه ـ فالعقاب مظهر الغضب والعياذ باللّه ـ وطمعاً في رضاه ورحمته وثوابه، والمؤمن يخاف ويرجو، وقد وعد سبحانه عباده المحسنين بالرحمة، فقال: ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أجمِل بها من بشارة يشرق بها هذا الوعد الكريم، الأمر الذي يحمل المؤمن ـ وهو يخوض معركة البناء ـ على المسارعة إلى كل ما فيه مرضاة ربه تبارك وتعالى، كما يكون من المحسنين في كل ما يأخذ وما يذر فتدركه تلك الرحمة الموعودة.

وواضح أن حسن صلة العبد بمولاه في الرخاء، والتجاءه إليه في الشدة، وتوجهه إليه بإخلاص وصدق، يشد الأزر، ويبعث على الطمأنينة، ويجعل من المؤمن إنساناً يتسم بالإيجابية، والبعد عن اليأس، وما أحوج الأمة ـ وهي تعمل على إحكام البناء بشعبه كافةً ـ إلى مثل هذه النماذج، التي لا تزيدها الصعاب إلا مثابرة على العمل، وثباتاً على الحق، وتطلعاً إلى الغايات الكبار.

وفي أدعية الرسول ﷺ صورة هي غاية الغايات في إشراقة القلب وشفافية النفس، عند توجه العبد إلى بارئه ومصوره!! وما ظنك بإمام الصادقين الخاشعين المتقين الذي خاض الحياة بكل ميادينها، وكانت يده اليد البانية الحانية، وقلبه ـ صلوات اللّه وسلامه عليه ـ دائم الصلة باللّه.

فمن جوامع أدعيته صلى اللّه وسلم وبارك عليه ما جاء عن ابن عمر رضي اللّه عنهما فيما رواه الترمذي قال: قلَّ ما كان رسول اللّه ﷺ يقوم من مجلس حتى يدعو بهؤلاء الدعوات: **«اللّهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معصيتك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهوّن به علينا مصائب الدنيا. اللّهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منا، واجعل ثأرنا على من ظلمنا، وانصرنا على من عادانا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا، ولا تسلّط علينا من لا يرحمنا».**

صلى اللّه وسلم على معلم الناس الخير، وأخذ بيد هذه الأمة إلى حيث تبني أجيالها ـ بناءً متكاملاً ـ على هذا الذي نرى صورته المثلى في دعاء المصطفى صلوات اللّه وسلامه عليه، فيكون المسلم ابن الحياة الإيمانية الفاعلة بحق، والعبد المخلص لمولاه بصدق، يمتثل أمره، ويلجأ إليه، ولا يدعو سواه ولله عاقبة الأمور.

* * *

إنسان العقيدة.. والتنمية

مما يستوقف الناقد البصير في تاريخ أمتنا، وما قدمت من منجزات حضارية، في أقصر زمن متصور: ما كان من تناسب بل وتلازم بين طبيعة الرسالة الإسلامية، والآفاق التي هي كفاء حجمها إنسانية وشمولاً وتجاوزاً لحدود الزمان والمكان، وبين قيمة الإنسان، والارتفاع به دائماً إلى حيث القدرة على العطاء والإنجاز، وإلى حيث الطمأنينة إلى واقعه وغده، وسلامة علاقته بإخوانه في المجتمع الذي يسهم في بنائه وتنميته، مهما كان شأنه نسباً ومكانة اجتماعية.

ذلك لأن الإنسان هو القيمة الأولى على صعيد البناء والنماء، وهو الرصيد الذي بمقدوره ـ حين تمتد إليه يد التنمية في قلبه وعقله ومشاعره ـ أن يفتح بالعلم آفاق الحياة، وأن يسهم في أن تبلغ النبتة الحضارية أبعادها ثقافةً واقتصاداً واجتماعاً وسياسةً...

ومن هنا كان حرص الإسلام على هذا الإنسان، إذْ بلغ به مستوىً من الإبداع والعطاء، والقدرة على تقديم كل ما يستطاع في سبيل الجماعة والأمة؛ وكانت قاعدة ذلك: أن قيمة الفرد في الإسلام تتحرك على سلم العقيدة والعمل القائم عليها، والإخلاص لله في كل ما يأتي وما يذر، فكانت النتيجة أن تضافرت كل الجهود، وبرزت إلى ساحة البناء والتنمية طاقات ومواهب، ما كان لها أن تبرز وتثبت وجودها، لولا جو النقاء والطهر الذي أشاعه الإسلام في دنيا المجتمع، ولولا ذلك المناخ الذي فسح للمسلم، بوصفه مسلماً، في ميادين الخير، فكان العمل وكان الجهاد، وكانت المنجزات التي راحت تكبر وتكبر مع امتداد المجتمع في ميادين العلم والصناعة والزراعة والتجارة وكل آفاق الحياة.

ولا يعوزك البحث كي تجد مرتكز ذلك في القرآن الكريم ثم في بيانه من سيرة المصطفى صلوات اللّه وسلامه عليه... لقد شرط المشركون على رسول اللّه ﷺ ـ كما روى مسلم في صحيحه ـ أن يطرد أولئك الفقراء من مجلسه كبلال وعمار وصهيب وخبَّاب وابن مسعود، إذا أراد أن يأتوا إليه هم ويجالسوه، وذلك لئلا يجترىء عليهم أولئك المستضعفون، وهم يعلمون حرصه على إسلامهم، فنزل قول اللّه تعالى: في سورة الأنعام: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾[الأنعام: ٥٢].

ومثل هنا قوله تعالى في سورة الكهف: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف: ٢٨]

لله ما أعظم هذا الإسلام، فإرساءً للقيمة التي تتحرك على سلم العقيدة في وزن الإنسان في المجتمع الإسلامي، وإبعاداً للقاعدة التي يريد الاحتكامَ إليها زعماءُ قريش: رافق الآيةَ مع البيان نوعٌ من الوعيد، لتكون الأمة على بينة من أمرها في هذا الباب، إذ من الظلم أن يُطرد الضعفاء، لأنهم ضعفاء، ويُقَرَّبَ المستكبرون الذين يطوفون حول أنفسهم، ولكن على المجتمع أن يأخذ بأيدي أولئك الضعفاء فيمهد لهم السبيل للمشاركة في بنائه، ومن يدري؟ فقد يكون لدى الواحد منهم من الإمكانات والطاقة البناءة ما يمكِّنه من صنع كثير لنفسه ولمجتمعه، ولقد كان من هؤلاء المستهدفين الذين لهم علاقة بسبب نزول هذه الآية وما على شاكلتها أبطال حملوا عبء الدعوة، وأسهموا أي إسهام في بناء المجتمع الإسلامي العظيم، ومهَّدوا لراية العقيدة أن ترتفع هنا وهناك (بلال، صهيب، عمّار، خبَّاب، سلمان، ابن مسعود...) وغيرهم.

من أجل هذا خطا رسول اللّه ﷺ خطوة التاريخ، وراح ينمي هذه القضية في النفوس، وعندما يندب إلى العمل أصحابه: تكون كفاءة المؤمن هي وحدها المقياس في الندب إلى العمل المراد.. روى مسلم عن عائذ بن عمرو أن أبا سفيان أتى على

سلمان وصهيب وبلال في نفر، فقالوا: واللّه ما أخذت سيوف اللّه من عُنُق عدو اللّه مأخذها، فقال أبو بكر رضي اللّه عنه: أتقولون هذا لشيخ قريش، فأتى النبيَّ ﷺ فأخبره، فقال: «**يا أبا بكر، لعلك أغضبتهم، لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك**» فأتاهم أبو بكر فقال: يا إخوتاه أغضبتكم؟ قالوا: لا، يغفر اللّه لك يا أخي... أو يا أُخيَّ.

إن الجماعة في رحلتها الشاقة عبر ميادين الحياة بحاجة إلى كل الكفاءات والحوافز الدافعة لتلك الكفاءات، وفي هدي المعلم القرآني وبيان النبي عليه الصلاة والسلام وجدت أمتنا الإنسان القادر على العطاء، وإنها لضمانة، أي ضمانة، لاستمرارية التنمية والبناء.

ألم تر على سبيل المثال إلى المهامِّ العظيمة التي كان يقوم بها أولئك الذين كانت قريش تنظر إليهم تلك النظرة الهابطة بسبب فقرهم أو بسبب ما كان فيه بعضهم من الاستعباد، بعد أن غيَّر الإسلام تلك المفاهيم والمصطلحات، في المجتمع المسلم، حيث بلغ الأمر في وضع الأمور موضعها وأن الناس يتفانون بما يقدمون من العمل الخيِّر النافع لأنفسهم وللمجتمع المسلم طاعةً لله عز وجل، بلغ أن يقول الرسول ﷺ لأبي بكر ـ كما رأينا ـ من أجل كلمة يسيرة قالها لسلمان وبلال في نفر: «...**لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك**» وما أجمل ما كان من الصديق خطاباً لهم بعد ذلك، رضي اللّه عنهم أجمعين.

وها إن الإمام البخاري يروي بسنده عن جابر بن عبد اللّه رضي اللّه عنهما أنه قال: «كان عمر يقول: أبو بكر سيِّدُنا واعتق سيِّدَنا ـ يعني بلالاً» ولله الحمد أولاً وآخراً.

* * *

الإمَّعة.. والتنمية

في ضوء ما أشهدتنا الأسطر الأخيرة من قريب ونحن نصحب واحداً من المعالم القرآنية في دعوته إلى إعمال العقل، ونبذ التقليد الأعمى، وبيان ما لذلك من آثار على مسيرة الجماعة وهي ترتحل رحلة البناء والتنمية... في ضوء ذلك أرى لزاماً أن أُذكِرَ بما أوصى به النبي ﷺ في هذا المضمار، حث قال صلوت الله وسلامه عليه ـ ويده تمتد إلى بناء ذاتية الإنسان المسلم مخاطباً كل أولئك الذين يناط بهم الإسهام في البناء الحضاري، والسير بمجتمعاتهم على دروب التنمية في جميع ميادين العمل والنماء وفق المنهج الرباني ـ قال: «لا يكن أحدكم إمعة يقول: أنا مع الناس إن أحسنوا أحسنت وإن أساؤوا أسأت، ولكن وطنوا أنفسكم أن تحسنوا إذا أحسن الناس، وإن أساؤوا ألاَّ تظلموا».

هذا الحديث الذي رواه الترمذي وحسّنه، يشرق بلون كريم من ألوان البيان النبوي يقرر ويؤكد ما جاء في القرآن الكريم من دعوة الناس ـ وفي مواطن متعددة ينتظمها محور الهداية ــ من دعوة ملحة لأن يُعْمِلوا عقولهم، وتنبيه أولئك الجانحين المستهترين بنعمة العقل على أن ينبذوا التقليد الأعمى، فيتيحوا لطاقاتهم أن تعمل، ويتبصروا بذاتيتهم باحثين عن الحق، ملتمسين الدليل الذي يسلمهم إلى الطريق المأمونة المراد سلوكها في حمأة الصراع بين الحق والباطل، والمواجهة بين ما هو رشد وهداية. وما هو قعود عن الجُلَّى وضلال مبين.

وأنت واجد أن معلِّم الناس الخيرَ رسولَنا عليه الصلاة والسلام كان حريصاً على إنهاء رحلة الضياع الجاهلي التي يمثلها سلوك الإمعة في المجتمع ذلك الإنسان الذي رضي من الغنيمة بالإياب؛ فأخلد إلى الراحة من عناء التفكير، والوصول إلى

القناعة، بالطريق التي فيها مقنع، فهو مقلد ضائع في كل حال: إن أحسن الناس أحسن وإن أساؤوا أساء؛ فهو يتعامل مع الحياة والناس، وكأنه معوَّق عن العطاء فكراً وسلامة تصرف. فلا العقل يعمل ولا التجربة تفيد.

لكن الرسول عليه الصلاة والسلام وهو يحمل للناس رسالة الخير والعمل والبناء الرسالة التي لا يطيق التزام هدايتها الضائعون، نهى عن أن يكون واحد من المسلمين إمعة يهمل العقل ويعطل التفكير.

صحيح أن من الخير أن يتابع الإنسان غيره بالإحسان، ولكن غير صحيح البتة أن يقدم على الإساءة دون وزن الأمور بميزان الحقيقة والاستنارة بعد ذلك بحكم العقل، فالأصل تجنب الإساءة، فلا يظلم المرء ولا يُظلم.

إن الإنسان في نظر الإسلام ليس آلة أو قطعة من آلة تسيَّر هكذا بلا إرادة، ولكنه قيمة عظيمة، وثروة جدٌّ كبيرة في حياة الأمة وبنيتها الحضارية.

والمطلوب من هذا الإنسان ـ وهو كفاء ذلك لما خلقه الله في أحسن تقويم وما أعطاه من وسائل المعرفة ـ أن يسلك هذه السبيل كيما يكون أقدر على فهم نصوص الوحي، وأقوى على تحمل التبعات والإسهام في تحقيق رسالة الأمة بإخراج الناس من الظلمات إلى النور ومن الضعف إلى القوة، ومن الجهل إلى العلم، وسلوكُ هذا السبيل عنوان المنهج السليم في بناء الحضارة الإنسانية حضارية الإسلام.

إن مرضاً عضالاً تعاني الأمة منه في كثير من ميادين العلم والثقافة وإدارة حركة الحياة وعمارة الأرض والإفادة من ثرواتها، يكمن في أن فريقاً من الناس يطلبون العافية ويلقون الحبل على الغارب ويمشون هكذا على مذهب الإمعة، وكم يكون انعكاس ذلك سيئاً على تطوير قدرة المجتمع ونمائه وتقدمه كما يريد ذلك الإسلام

وحين نحسن التصور لشراسة المعارك التي على الأمة أن تخوضها وهي تعمل جادة على بناء قوتها الذاتية في مواجهة الباطل وأهله، وما تحتاج إليه من علم تقني وغير تقني كيما يحالفها النصر بعون الله ـ في تلك المواجهة ـ حين نحسن التصور

لحراسة تلك المعارك على تعدد ميادينها اقتصادياً واجتماعياً وثقافياً، بل وحضارياً، يحّون علينا الانتفاع بهدي النبي عليه الصلاة والسلام، كيما نقضي على ظاهرة وجود الإمعة بين ظهرانينا.

إن أمة تحمل رسالة الحياة، وتستجيب لدعوة الحياة، جديرة أن تتمرد على الضياع والفوضى، وعلى كل ما فيه تعطيل طاقات الإنسان، سواء أكان ذلك من داخل الذات، أم من ظلم الطغاة أعداء الإنسان!!

* * *



الخطاب الإيماني ـ والبناء

«١»

أود التذكير مرة أخرى بما جرت الإشارة إليه من قريب: من أن ما درج عليه المنهج القرآني من عقد الصلة بإحكام بين الإيمان وبين ما يخاطب به المؤمنون تكليفاً وتوجيهاً وتنبيهاً على صعيد الهداية التي هي الغرض الأول من إنزال القرآن الكريم..: قضية كبرى في سلم الأولويات بالنسبة لمن أولاهم اللّه حمل الرسالة الخاتمة كيما يكون التكامل بين الإيمان والعمل سمة من سمات البناء السليم في حياة الفرد والجماعة.

وهذه القضية الكبرى أوسع في حجمها، وأعمق في أبعادها وسعة آفاقها مما قد يحسبه كثيرون. وقد كانت ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ في مفتتح الآيات التي تكشف عن مشروعية الصيام وبيان أحكامه: من معالم الضياء في هذا الذي نقول، كما سبق آنفاً.

أن يخاطب المؤمن من قبل رب العزة جل جلاله بهذا الخطاب الإيماني الذي يدخل إلى أعماق النفس، ويضيء جوانب القلب، ويثير في العقل العمل على إبعاد التناقض بين الدعوى وما يترتب عليها ومايكون بمقتضاها؛ وذلك بمنع التخالف بين العقيدة والعمل.. أن يقع الخطاب على هذه الصورة ويكون ذلك لبنة مباركة تعز على الإحاطة من لبنات المنهج القرآني..: أمر كما يزيد أولي النهي يقيناً على يقين بأن الكتاب العزيز كلام رب العالمين، وأنه يدل ـ أول ما يدل ـ على أن محمداً ﷺ صادقٌ الصدقَ كله في دعوى الرسالة؛ يضيء طريق الدعاة إلى اللّه في العمل من داخل النفس، بحيث يُحكم بناء الأواصر بين عقيدة المسلم وبين انفعاله بالخطاب الإيماني، كيما يكون أبداً على مستوى السمع والطاعة لأمر اللّه وأمر رسوله، والجدِّية في أخذ أحكام الدين بقوة وأن يكون سلوكه فيما يقول ويفعل ويتصرف ترجماناً صادقاً لها.

وإنها لأمانة في الأعناق ـ وحال المسلمين هي الحال ـ تدعو لوجوب أن يؤخذ الأمر بجدِّية تعمل عملها في تخطي العقبات من داخل النفس ومن خارجها؛ فيأخذ هذا الإحكام الذي يُرى بين الإيمان وكل ما هو من التكليف والهداية بسبب: طريقه للتأثير الواعي في مسيرة الأمة وهي على أبواب القرن الخامس عشر للهجرة، فتجنَّد الطاقات كلها في ظلال ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وتعمل العقول كلها، والأيدي كلها ـ في فهم واع لهذا الخطاب الندي الكريم ـ الواضح في عمومه.

ذلك بأن هذا العموم لا يطول فئة دون أخرى؛ ولا إنساناً مكلفاً دون آخر، بل يطول الجميع بوصفهم مؤمنين ومؤمنات، كلٌّ على الساحة التي كُتب له أن يتحرك على ثراها، والثغر الذي أقامه الله عليه بلا استثناء، إلا أن يكون هنالك عذر شرعي يقطع عن العمل والحركة، والضرورة تقدَّر بقدرها.

وبشكل ربما كان أكثر وضوحاً: إن ما تتطلع إليه الأمة اليوم على صعيد البناء الذاتي المتسم بالأصالة وعزة الإيمان، مضموماً إلى ذلك: الحرص على التحرر عن واقع كان ثمرة التخلف عن ركب الإسلام كما أنزله ربنا تبارك وتعالى، وبيَّن حدوده، وأوضح معالمه نبينا عليه الصلاة والسلام.. يجب أن يحملنا على قراءة جديدة مسؤولة لهذا المنهج في الخطاب الذي يُعلي شأن الإيمان، ويكرِّم الإنسان الذي كان هذا الإيمان حياةَ قلبه ونور بصيرته، وكيف أن عقيدة التوحيد كانت الطاقة الفاعلة في تغيير بنية الفرد والجماعة تغييراً، أبرزُ ما فيه أنه خروج من الظلمات إلى النور، وفي منح الإنسان المسلم ـ ذكراً كان أو أنثى ـ القدرة على التلاؤم مع الحركة الفاعلة التي يقتضيها الإيمان مهما تطلَّب ذلك من الخروج على المألوف الجاهلي، ناهيك عن التضحية والبذل.

ولا تسل عما كان لذلك كله من أثر في تنمية المواهب والخصائص التي كانت هدراً في المجتمع الجاهلي قبل الإسلام، وبدأت تعطي عطاءها على ساحة العبودية لله والتحرر من التقليد الأعمى والوهم والخرافة، وربقة الجاهلية بما فيها على

وجه العموم ـ؛ فكان العلم، وكان الجهاد، وكان البناء الحضاري الذي أهلته العناية الإلهية لإسعاد البشرية، ولكن أكثر الناس لا يعلمون، وشياطينُ الإنس والجن عن الافتراء والدعاوى الكاذبة لا يفتُرون.

على أن ذكر هؤلاء الشياطين لا يعني اتخاذ صنيعهم مسوِّغاً للتواني والتقصير، أو مشجباً تعلَّق فيه وعليه مظاهر الضعف والتخلف دون استقراء للأسباب الحقيقية التي منها ما هو من عند أنفسنا ـ والشجاعةُ في الاعتراف بذلك أمر على غاية الأهمية ـ ومنها ما هو من تآمر الأعداء وحقدهم الدفين، والعملِ على اتخاذ صنائع لهم من بني جلدتنا يأتمرون بأمرهم فيما يريدون من الهدم وقلب الحقائق كما هو معلوم!!

وما من ريب في أن نقطة البدء في تلك المسيرة التاريخية التي يتطلع إليها المصلحون في شتى بقاع العالم الإسلامي ـ على اختلاف الوسائل ـ شعور الفرد من أعماقه بمسؤوليته تجاه إيمانه؛ فهو ـ بوصفه مؤمناً ـ قد أعطى اللّه ورسوله موثقاً من نفسه أن يكون على الجادة: طاعةً وعملاً وجهاداً، وذوداً عن حياض الرسالة التي يأرز إلى ظلها المؤمنون.

وهذه المقولة التي تحرك للعمل المجدي والبناء المحكَمِ القواعد: جاءت في القرآن الكريم بأجلى صورة وأوضح بيان ذلكم قوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب: ٣٦].

هذا هو برهان الصدق في دعوى الإيمان؛ فعندما يتجاوز الأمر حدود الادعاء إلى إنشاء الواقع العملي: ليس من شأن مؤمن ـ بوصفه مؤمناً ـ ولا مؤمنة ـ بوصفها مؤمنة ـ أن يخالفوا عن أمر اللّه ورسوله جملة وتفصيلاً، أو يقدموا حكم العقل على ما قضاه اللّه ورسوله؛ لأن ذلك ـ كما دلَّ ما سُبقت به الآية الكريمة من

النصوص ـ شأنُ المنافقين، وهو الضلال المبين بعينه.﴿ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا﴾خصوصاً وأن من المُحال أن يكون هناك تخالف بين أمر اللّه ورسوله، وبين العقل السليم الذي هو نعمة من نعم اللّه العظمى على الإنسان!!

وإذا تصوَّر المرء أبعاد المنهج الرباني، والآفاق العريضة المتسعة التي يُشرق عليها ما يقضي به اللّه تعالى ورسوله: كان أكثرَ فقهاً لدلالة الكلمة القرآنية في هذا الباب، وكيف أنها تتناول فيما تتناول الحياة بجوانبها جميعاً.

ويزداد الأمر وضوحاً بما تطالعنا به سورة النور من قول اللّه جلَّ ذكره: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النور: ٥١-٥٢].

هذا ما يصنعه الإيمان في قلوب أهل الاستجابة الصادقين وعقولهم ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ .

لكم أتمنى أن يسمعها سماع وعي وتدبر ـ فضلاً عن أن يقرأها على هذا النحو ـ أولئك الذين وهموا أو اعتقدوا أن في الأمة فئتين: فئة اختارت التدين فهي التي تلزمها الأحكام لأنها ألزمت أنفسها بذلك، ويطولها ذلك الخطاب الإيماني المشرق بالتكليف. وفئة اختارت طريقاً أخرى؛ فهي غير ملزمة ولا مطالبة بشيء من هذا.

وقد يكون من هذه الفئة مصنفون في عداد المثقفين، أو قادرون على العمل بحكم مسؤولياتهم في الأمة أن لو سلكوا فجاً غير فج الهوى وتسويلات المسوِّلين، يقفون هذا الموقف النابي فيخسرون أنفسهم وتخسرهم الأمة؛ والحقيقة غير ما وهموا أو اعتقدوا.

أجل أتمنى أن يسمعوها سماع وعي وتدبر ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب: ٣٦].

ولم يأت التعبير هنا بصيغة التغليب مثلاً «ما كان للمؤمنين» ولكن جاء التصريح بذكر كلٍ من المؤمن والمؤمنة؛ فليس من شأن هذا الإنسان الذي خالط الإيمان بشاشة قلبه ذكراً كان أو أنثى من المكلفين أن يكون لهم الخيرة من أمرهم، فيقدموا مرادهم وشهواتهم ورغباتهم على مراد الله تعالى ومراد رسوله عليه الصلاة والسلام.

ألا إن ساحات البناء: بناء الذات وتحقيقها بالإسلام، وبناء القدرة المؤهلة للمواجهة التي نشهدها يوماً بعد يوم في كل ميدان: بانتظار أولئك الذين يبرهنون على صدق إيمانهم وسلامة انتمائهم بالعمل الدائب المخلص، وتنمية طاقاتهم وصلتهم بالإسلام، فيكونون بذلك رجال الغد المأمول الذين ينصرون الأمة ويفوزون بمرضاة رب العالمين.

* * *



الخطاب الإيماني.. والبناء

«٢»

لا يخفى أن العلاقة وثيقة جدٌّ وثيقة بين النصوص التي حملت خطاب التكليف للأمة كما في الآيات التي بدئت بـ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وما هو على شاكلتها، مُشعرةً أهل الإيمان، بأن هذا الإيمان هو القاعدة التي يقوم عليها تكليف الإنسان المسلم في أي جانب من جوانب الحياة، سواء في خاصة نفسه، أو في علاقته بربه جل وعلا، أو علاقته بالآخرين. أقول: لا يخفى أن العلاقة على غاية الإحكام والوثوق بين تلك النصوص وبين قوله تعالى في سورة الأحزاب ـ وهو ما أشرت إليه من قبل: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

فهذه الآية الكريمة كما جزمت بأن الجنوح إلى اختيار أمر من الأمور ـ مهما كان شأنه ـ مخالفٍ لما قضى الله ورسوله: يتنافى مع ما يقتضيه الإيمان من الطاعة والامتثال؛ فالله ورسوله أحق أن يمتثل أمره ويجتنب نهيه: قد حسمت الموضوع بكثير من الجزم فيما ختمت به من إشعار المسلم بأن الاختيار ـ الخيرَة ـ مع ما قضى الله ورسوله من أمر: معصيةٌ لله وللرسول، وأن من وقع في ذلك فقد ضلَّ ضلالاً مبيناً.

وهذا لون من الوعيد تضطرب له قلوب المؤمنين، ويداخلها من هوله الفزع والرعب؛ فالمؤمن بما يهديه إليه إيمانه يحرص الحرص كلَّه على اجتناب كل ما من شأنه الانزلاق في شيء من مسالك الضلال!! فما بالك إذا كان هذا الضلال هو الضلال المبين.

إن القرآن الكريم حين وصف الضلال المترتبَ على معصية الله ورسوله بالجنوح إلى تلك الخيَرَة: بأنه مبين، إنما كان يكشف عن شدة عمايته وظلام أبعاده؛ فهو ضلال فاقع مبين عن نفسه وعما يؤذن به من الطغيان وشدة العماية، فالواقعون فيه في طغيانهم يعمهون. وهذا من بلاغة الكتاب العزيز التي لا تجارى.

وإذا كان الأمر كذلك: فمما يقتضيه الحكم العقلي السليم ـ فضلاً عما يوجه الإيمان ـ أن لا يجيء المسلم ـ بوصفه مؤمناً مصدقاً ـ بذلك الأمر الإدّ، وهو المخالفة عن أمر اللّه ورسوله، لأن ذلك مؤذن بالتناقض بين دعوى الإيمان باللّه ورسوله والجنوح إلى الخيَرَة من أمره مع ما قضى اللّه به ورسوله.

ولعل من الضرورة بمكان أن نذكُر مرة أخرى هنا ما سبق إيراده من قول الله جلت حكمته في سورة النور: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [النور: ٥١-٥٣]. وقد سُبقت هاتان الآيتان بما يدل على أن سلوك غير هذه السبيل هو صنيع المنافقين أعاذنا اللّه من مهاوي الضلال.

ذلكم قوله تعالى في شأن أهل النفاق: ﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [النور: ٤٧-٥٠]. ثم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الآيتان.

أرأيت إلى هذا الحصر بـ «إنما» في قوله: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ثم أرأيت إلى تقديم خبر كان في قوله: ﴿ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ حيث نجد سمها في قوله جل شأنه: ﴿أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾.

وانظر بعد هذا إلى إعطاء من يفعلون ذلك صفة الفلاح بصورة بيانية تحمل ما تحمل من توكيد التصاق هذه الصفة بهم ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

وكل أولئك يؤكد الأهمية المعطاة للموقف الإيماني الذي يتمثَّل فيه سمو قول المؤمنين إذا دعوا إلى اللّه ورسوله ليحكم بينهم: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾.

وتعبير ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ لا يعني النطق بالكلمتين فحسب، ولكن يعني ترجمة ذلك إلى واقع عملي في كل شأن يخصهم من شؤون الحياة الدنيا وما بعدها.

وفي نقلة إلى الواقع: نتحسّس مقدار التلاؤم بينه وبين ما يقتضيه خطاب التكليف المشعر بوثيق العلاقة بين الإيمان وموجبه وهو طاعة اللّه ورسوله، ولا يبدو عجباً من العجب أن تكون مظاهر الضعف في كثير من الميادين: نتيجةً طبيعية للوقوع في تلك المهواة، مهواة الضلال المبين الذي حذَّرت منه الكلمة القرآنية وأنذرت.

الضلال المبين الذي يمثّل المخالفة عن أمر اللّه ورسوله: داء عضال تتجرَّع الأمة غصصه على صعيد الفرد والمجتمع متجاوزاً ذلك إلى الصعيد العام في عديد من بقاع عالمنا الإسلامي الكبير وغيره، ولا يعجزك أن تلمس سوء ما يتذرَّع به المعرضون عن الهدي الرباني، وما تلقيه الأهواء الشيطانية على الألسنة والأقلام ومناهج الأذى والتدمير في هذا المضمار!! عكس ما نشهد من سلسبيل الخير ومشاهد الضياء هنا وهناك.

ولقد يتضح الأمر أكثر وأكثر ـ ونحن نُعمل العقل في رصد النتائج التي ألَّمت بالأمة من جراء الرضا بالدنية إعراضاً عما رضيه اللّه ورسوله لها ـ إذا ذكرنا أن ما يقضي به اللّه ورسوله: هو هذا الإسلام كلاً لا يقبل التجزئة ـ فعلاً وتركاً ـ ونظاماً كاملاً للحياة بكل أبعادها وساحاتها.

وإذا كانت موضوعية البناء، وتنمية الطاقات الفاعلة في الأمة، وإمكاناتها المنتجة في أفرادها ومؤسساتها تقتضي طريقة ذاتية في التفكير، فلا بد أن تكون هذه الطريقة الذاتية نمطاً في التفكير ومنهجية البناء، يرتبط بل ينبع من تلك القاعدة التي يحوِّم حولها من ينتهجون سبيل الإصلاح ـ وهي العقيدة الربانية ـ التي سداها ولحمتها الإيمان الذي أعطى ما أعطى في الماضي، وما يزال عطاؤه قائماً في الحاضر بالقدر الذي تتوافر فيه قابلية التأثر بالكلمة البانية والتفاعل معها.

فهو قادر اليوم وكل يوم أن يعطي بمشيئة اللّه وإذنه ـ أن لو توجهت القلوب والعقول بتجرد ودون رواسب معوقة ـ ما هو قوام تغيير ما بالأمة إلى ما هو الأفضل والأكرم والأقوى.

وكم يحسن النابهون في الأمة صنعاً بأن يصوغوا الأفكار المضيئة النافعة صياغة تلد المنهج الذي يكون الخطوة الأولى على طريق العمل المجدي. ولقد يكون توفير الحرية لأولئك الرواد من أوجب الواجبات. وما من ريب في أن العدوان على هذه الساحة عدوان على الأمة؛ فكم تفوِّت مصادرة حرية النابهين الأمناء الأوفياء من فُرص، وكم تهدر من إمكانات، وكم تخرب من نفوس.. والأمة هي الضحية فضلاً عن الأفراد والمجتمع.

ولله كم قدمت ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وما هو على شاكلتها المشرقة المثقلة بندى الخير: من بُناة بررة خيّرين؛ فيهم العلماء العاملون، والأبطال الفاتحون، والمجاهدون الصادقون، وأولياء الأمر العادلون...

ويا لله كم قدَّمت من عناصر النهضة الرشيدة، ومقومات البناء الحضاري الأمثل: بل كم أغنت طريق الإنسانية بقيم هي للفرد طمأنينةٌ وتكريم وسعادة في الدنيا ويوم الدين، وهي للمجتمع مقوماتُ بناءٍ صالح ونماء، ورعاية للبناء والنماء.

ولم يتحقق ذلك في دنيا الواقع، إلا بسبب أن المؤمنين استمعوا لذاك النداء الحبيب بقلوب واعية وعقول مدركة.

و﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ليست لحناً، وليست تطريباً، وليست تذويقاً أدبياً ـ على سمو بلاغتها ـ ولا تزجية للوقت، ولكنها وأمثالها مرتكز حركة الأمة، وحافزها إلى التخطيط والتنفيذ. وهي انطلاقة راسخة الجذور شهدتها أصعدة العقيدة والتشريع والأخلاق والسلوك ناهيك عن التربية والتعليم والبناء الحضاري السليم في شموله وتكامله وارتباطه بالرسالة الخاتمة، وبذل الأموال والأنفس في سبيل ذلك.

وفقه المنهج فيما نشير إليه: يرتفع بنا إلى أن نقدُر الوعي الإيماني لدى الرواد الأمناء صحابة النبي ﷺ حق قدره، ونظفر بالانتفاع به.

قال عبد اللّه بن مسعود رضي اللّه عنه: «إذا سمعت اللّه يقول في قرآنه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فأرعها سمعك» فإنما هو خير يأمر به أو شرٌّ ينهى عنه».

هذه الكلمة العظيمة: من واحد من العبادلة وهو من كبار علماء الصحابة وصلحائهم، ورواة الحديث المستتين بسنة النبي ﷺ الحِراص على أن تكون شعلة الإيمان وقادة ـ أبداً ـ في القلب تعطي عطاءها في كل حين.

هذه الكلمة من هذا الصحابي الجليل القدوة: ذات دلالة لا تخفى على حصيف له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد «أرعها سمعك» لأنها تخاطبك بوصفك مؤمناً بينك وبينها نسب أصيل لا يبلى، وهي لا تحمل إلا تكليفاً بطاعة، أو بعداً عن معصية، أو علماً أو جهاداً أو سلوكاً.

وإرعاء السمع يعني سلامة التدبر والمسارعة إلى العمل، كيما يكون المخاطبون جديرين بهذه الكرامة حين حبب اللّه إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان، وجعل منهم رواد البشرية على طريق الفلاح والنجاح الذين يعمرون الأرض للآخرة وينمّون يوم يمكّن لهم في الأرض كل ما من شأنه عزة المؤمن في الدنيا والفوز بجنة عرضها السماوات والأرض في عالم البقاء، وسبحان من جعل العاقبة للمتقين.

* * *



﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ... والبناء القويم

«٣»

في متابعة لرحلة العطاء مع أول آية من آيات الصيام وقوله تعالى مخاطباً عباده المؤمنين بفرضية الصيام: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ ﴾[البقرة: ١٨٣] تحسن الإشارة إلى أن كل ما ألمحنا إليه من بعض آثار العقيدة الهادية في البناء القويم للفرد والمجتمع والقوة الذاتية للأمة، يعني أن هذا الإيمان كان داعية عمل صالح، ومسارعةٍ إلى إنفاذ أمر اللّه ورسوله في كل شأن وعلى كل صعيد.

من أجل هذا رأينا اقتران الإيمان بالعمل الصالح في القرآن الكريم ظاهرة واضحة المعالم فنرى وعملوا الصالحات، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾...﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ وغير ذلك كثير، وقد نعود إلى تجلية الأمر في هذا اللون من ألوان الهداية في قادمات الأيام إن شاء اللّه. فالعمل الصالح ـ كما يدل المنهج القرآني ـ لا بد أن يكون خدين الإيمان وصنوَه. وبدون ذلك يظل الإيمان ـ أو كماله أحياناً ـ دعوى يعوزها الدليل.

ولكن يظل الإيمان ـ كما تهدي معالم الكتاب العزيز ـ هو الأساسَ الصالح المتين الذي لا أصلح منه ولا أمتن لبُنية سليمة للفرد والجماعة، والقاعدة التي يرتد إليها التكليف بأحكام الدين وضوابطه، ويرتبط بها السلوك الذين تزينه تقوى اللّه عز وجل في جميع الشؤون والأحوال. فعندما يقرأ المؤمنون بعناية وتدبر قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ ﴾ .

عندما يقرؤون هذه الآيات مثلاً، ويُرعونها أسماعهم بتذكُّر وإنابة: يدركون أن مقتضى الإيمان أن يمتثلوا أمر اللّه فيصوموا شهر رمضان إيماناً واحتساباً، وأن يوفوا بالعقود، وأن حراماً عليهم أن يخونوا اللّه والرسول، ويخونوا أماناتهم وهم يعلمون. وأن مقتضى الإيمان أيضاً أن يتقوا اللّه ويكونوا مع الصادقين، وأنه لا يجوز للمؤمنين بحال من الأحوال أن يتخذوا اليهود والنصارى أولياء، وأن من يتولَّهم من الجماعة المؤمنة فهو منهم والعياذ باللّه. وما ذكر هو على سبيل المثال لا الحصر.

من أجل ذلك رأينا للعلماء تأويلاً لروايتي حديث جبريل عليه السلام عندما جلس إلى رسول اللّه ﷺ وعلَّم المؤمنين ما هو الإسلام وما هو الإيمان، وما هو الإحسان؟... الحديث، فقد قُدِّم الإيمان بالذكر على الإسلام في رواية البخاري عن أبي هريرة رضي اللّه عنه إذ سأل جبريل عن الإيمان أولاً ثم عن الإسلام ثم عن الإحسان. بينما قدم الإسلام في رواية مسلم عن عمر رضي اللّه عنه إذ سأل جبريل عن الإسلام أولاً ثم عن الإيمان ثم عن الإحسان.

أما عن تقديم الإسلام في السؤال: فرأى بعض العلماء أن البدء بالإسلام لأنه أيسرها من حيث إنه يتعلق بعمل الجوارح، وكانت التثنية بالإيمان لأنه تصديق القلب وهذا ليس بالأمر الهيِّن، واللّه لا تخفى عليه خافية.

ثم كان السؤال عن الإحسان لما أنه يحمل المراقبة الدائمة لله تبارك وتعالى «أن تعبد اللّه كأنك تراه» هذه مرتبة «فإن لم تكن تراه فإنه يراك» وهذه قد تكون أيسر من سابقتها.

وأوَّلوا رواية البخاري رحمه اللّه بأن الإيمان هو الأساس الذي يبنى عليه عمل الجوارح، فإذا لم يكن إيمان فالأعمال كلها هباء، ولذلك قدم السؤال عن الإيمان ـ في هذه الرواية ـ ثم كان السؤال عن الإسلام ثم عن الإحسان.

ونقع في «فتح الباري» على قول الحافظ ابن حجر رحمه اللّه: «قيل: قدَّم السؤال عن الإيمان لأنه الأصل، وثنى بالإسلام؛ لأنه يظهر مصداق الدعوى، وثلث بالإحسان

لأنّه متعلق بهما. وفي رواية عمارة بن القعقاع ـ عند مسلم ـ بدأ بالإسلام: لأنه بالأمر الظاهر، وثنى بالإيمان لأنه بالأمر الباطن، ورجح هذا الطيبي لما فيه من الترقي..» [الفتح: ١/١١٧].

ومهما يكن من أمر: فإن العاقل كل العاقل هو الذي ينشد دائماً أن يكون على التصديق الجازم بالقلب، والتخلقِ بأخلاق الإيمان وأهله في الأمور الظاهرة وهي عمل الجوارح. وكثيراً ما نرى في سير السلف من كان يخاف على نفسه أن لا يكون على مستوى التخلق بأخلاق المؤمنين؛ فهو دائماً حذر يحتاط لنفسه ويأخذها بالورع في دين اللّه، كيما يكون من المؤمنين حقاً بإذنه تعالى.

روي عن الحسن البصري رحمه اللّه أن رجلاً سأله أمؤمن أنت؟ قال: «إن كنت تسألني عن الإيمان باللّه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والجنة والنار والبعث والحساب: فأنا مؤمن. وإن كنت تسألني عن قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ... ﴾الآية: فلا أدري أنا منهم أم لا».

فالذي يعنيه الحسن قوله تعالى في سورة الأنفال: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾ [الأنفال: ٢-٤].

واللّهَ نسأل أن يجعل من الإيمان الخالص زاداً للعاملين في هذه الأمة الماجدة. يقطعون معه ما شاء اللّه لهم أن يقطعوه من رحلة البناء المستنيرة التي تجمع إلى الزاد الفكري ـ يفيض به العقل المؤمن ـ: استنارة القلب وصفاءه. والحرص على التنمية الجادَّة لفاعلية الفرد والجماعة تنمية لا تعوزها الصلة الواعية بمعين الإيمان الذي لا ينضب، وتلكم ـ بإذن اللّه ـ ضمانة البعد عن المزالق، وتحقيق المواءمة بين الغاية السامية وأسلوب الوصول إليها، واللّه تبارك وتعالى لا يضيع عمل عامل من ذكر أو أنثى، والمؤمنون حقاً على خير عظيم.



البُناة.. ونداء الإيمان

«٤»

من أجل أننا نريد أن يكون شهر رمضان بما فيه من معاني البر ووجوه الهداية، شهرَ تعبئة إيمانية للعام كله لا مناسبةً عابرة تبدأ وتنتهي بزمن محدود، ومن أجل أننا نريد أن يكون شهرَ استئناف لمسيرة الخير التي قد يتهاون البعض في متابعتها، ومن أجل أننا نريد أن يكون بأيامه المعدودات محطة مباركة توثق صلة المؤمن بربه تبارك وتعالى، وتمتّن علاقة النسب وآصرة القربى مع القرآن الكريم تلاوة وتدبراً، وتفسح للقلب أن يشرق أكثر وأكثر بنور الإيمان، وللجوارح أن تنطلق في أبعاده ومستلزماته عملاً وجهاداً يذكر ببدر والفتح، وغيرهما عبر التاريخ.

من أجل هذا كله نبدىء ونعيد في لمحات هي من ندى الإيمان، وشذرات من الخير على طريق البناء هي من وجوه الهداية في قول اللّه تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنوا﴾عندما يخاطب عباده المؤمنين خطاب التكليف بالطاعة والعمل والجهاد. خصوصاً وأن هذا الخطاب يشعر بما يقتضيه من العمل بما خوطب به المكلفون؛ وأن بُرهان صدق الإيمان صدق الامتثال. وكلمة عبد اللّه بن مسعود رضي اللّه عنه: «إذا سمعت اللّه يقول في قرآنه ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فأرعها سمعك فإنما هو خير يأمر به أو شرٌّ ينهى عنه» والتي أشرنا فيما سبق من القول إلى بعض من أبعادها ودلالتها في بناء الإنسان الذي حمل العبء في بناء الأمة، وتنمية قوىً وخصائص كانت مهدرة ضائعة قبل الإسلام أو موضوعة في غير مكانها الذي يجب أن توضع فيه، هذه الكلمة النيِّرة تعطي فيما تعطيه من قيم، صورة لواحد من أولئك الرجال الذين آمنوا وعزروا ونصروا، كيف كانت صلتهم بمعالم القرآن. وكيف كانت أهليتهم لاستقبال هذا الخطاب الرباني﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، حتى صار عند الواحد منهم هو محور الحركة وقاعدة البناء.

كما تذكرنا هذه الكلمة بسورة «الحجرات» ـ وهي تُعنَى بأخلاقية المجتمع المسلم ومكانِ ذلك من كيانه وبنيته التي يراد لها القوة والإحكام، والأساس الذي يجب أن تقوم عليه تلك البنية ـ حين عرضت لذكر فريق من الأعراب الذين داخَلَ إيمانَهم غرضٌ قريبٌ من الكسب المادي وخوف القتل والسبي، فلم يرتفعوا إلى ذلك المستوى الإيماني المطلوب..

أجل عَرضت لهؤلاء الأعراب نافيةً حقيقة الإيمان عنهم مقررةً أنهم مسلمون فحسب وذلك بما تقوم به جوارحهم من الأعمال لكن بشاشة الإيمان لم تخالط قلوبهم كما ينبغي. والأصّلُ أن هذه الأعمال التي تقوم بها الجوارح لا بد أن تنبعث من إيمان صادق فيجتمعَ للشهادتين النطقُ باللسان وتصديقُ الجنانِ وعملُ الأركان.

ذلكم قوله تعالى: ﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ ﴾ [الحجرات: ١٤] فهم لم يؤمنوا الإيمان المطلوب، لذا كشف القرآن عن حقيقة موقفهم فقال: ﴿ وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾ استسلمنا خوف القتل والسبي وطمعاً بالمال. وفي الوقت نفسه: حين يطيعون اللّه ورسوله بصدق لا ينقصهم اللّه من أعمالهم شيئاً إن اللّه غفور رحيم.

وبعد: فإن هذا التحديد في تحليل موقف الأعراب على هذه الشاكلة: جدير أن يستثير القلوب والعقول ويفتح البصائر على الحقيقة التي ما زلنا ننعم بإشراقها وعمق أبعادها؛ تلك هي وظيفة الإيمان على صعيد التصور وواقع البناء، وأنه هو القاعدة التي لن تكون البنية سليمة بدونها كائناً ما كان زخرف القول وعريض الدعاوى؛ فليعتبر المعتبرون!!!!!.

* * *

مع ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ على طريق البناء

«٥»

في كلمات قريبات، وفيما أضاءت لنا ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ من مسالك: حملتنا نثارات الضياء ـ وهي من صنوف الخير في آيات الصيام ـ إلى ما جاء في «سورة الحجرات» بياناً لحقيقة موقف فريق من الأعراب إيماناً وإسلاماً ـ، وأنهم لو صدقوا الله ورسوله لما نقصهم من أعمالهم شيئاً، وإلى ما جاء فيها من قول الله تعالى: ﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤)﴾[الحجرات: ١٤].

وكان ذلك أمراً طبيعياً ونحن نحوِّم حول الحجم الكبير الذي أخذه الإيمان في قضية البناء والنماء في رسالة الإسلام، وكيف أنَّ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وما أدى مؤداها: كانت قاعدة البناء في حركة الإنسان، وفي كل شأنٍ من شؤون الحياة ما كان منها على صعيد العقيدة، أو التشريع، أو السلوك، بل فيما يشمل الميادين كلَّها فكرياً، وسياسياً، واقتصادياً، واجتماعياً.. الخ.

فما جرى من هؤلاء الأعراب كان موقفاً ناشزاً إذا دققنا من منظور إيماني على صعيد الفرد أو الجماعة؛ وذلك أنهم دخلوا في الإسلام مسارعين في الحفاظ على أنفسهم من القتل والسبي ـ فيما يزعمون ـ ورغبةً في المغنم إن حصل هنالك مغانم. وعندما أرادوا من الرسول ﷺ أن يقيمهم مقام أولئك المؤمنين الصادقين في التعامل والمغنم وما إلى ذلك بدعوى أنهم قد آمنوا وانخرطوا في سلك أهل الجهاد المؤمنين: جاء الرد القرآني يحكي دعواهم الإيمان، ويرد على هذه الدعوى بأنهم لم يصلوا إلى هذا المستوى، وأمر الرسول ﷺ أن يكشف لهم عن حقيقة الأمر. ويدفعَ بهذا الوهم الذي توهموه ﴿ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾.

إن من الأهداف الكبرى تنمية عناصر القوة والخير لا طفيليات الضعف والشك والاستغلال الهابط!!

ولكن قد يبدو للبعض أن دور هؤلاء النفر من الناس فيما وقع منهم وفيما ادعو: صغير الحجم إذا قسناه بمسيرة الدعوة ورجالها خلال ما لا يقل عن عشرين عاماً من بدء البعثة، فالقافلة تسير!! وانتصارات الإسلام تتوالى، والتمكين للدين في المدينة وما حولها يخطو خطوات عريضة هنا وهناك في الداخل والخارج.

فما هي الحكمة وراء العناية بهذه الواقعة، والكشفِ عن حقيقة هذا الفريق من الأعراب، وأنهم أسلموا ولمَّا يدخُل الإيمانُ في قلوبهم؟

إن ما عليه حاضر العالم الإسلامي اليوم. والظروف التي تحيط بأمتنا على تنوعها حسب المتغيرات على كثير من الساحات والمعطيات الاجتماعية والاقتصادية والفكرية والسياسية سلباً أو إيجاباً، والمهمات الكبيرة التي تنتظر من يكونون كفاءها على صعيد البناء الذاتي للأمة وتنمية مقومات وجودها حسب الظرف والمناخ، والواقع الذي يحكم الناس في كثير من الحالات في بلاد المسلمين وغيرها.. إن ذلك كله يحملنا على الإجابة عن هذا التساؤل والحكمة وراء إعطاء الواقعة هذا القدر من الأهمية في سورة الحجرات.

غير أنَّا قبل الشروع في الإجابة عن تساؤل من يتساءل عن الحكمة في هذا: لا بد أن نذكِّر بأن المحور الذي يتحرك عليه الحكم بشأن هؤلاء الأعراب وغيرهم من الناس إنما هو المحور الإيماني، حيث يكون العمل استجابة لما يقتضيه الإيمان وخطابُ التكليف عنوانه ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أو ما يؤدي مؤداها.. هذه واحدة.

وأما الثانية: فهي أن الحديث عن الأعراب لم يقتصر على سورة الحجرات ولكن جاء الحديث عنهم بأسلوب آخر في سورة التوبة. وعلى صور سنكشف عنها فيما بعد إن شاء الله؛ إذ ذكر فريق بالإساءة وفريق بالإحسان. وإنا لنرجو ونحن نرمي إلى الانتفاع بهدي المعلم القرآني أن يكون حكم القرآن على تلك الوقائع وأصحابها نوراً

هـدياً على دروب الأمـة يرتفع بهـا إلى مسـتوى تحقيق الذات، والـبصيـرة النافذة في تـنميـة مصـادر القـوة مـادَّة ومـعنـى بدءاً من قناعـة العقل بالحقيقـة القـرآنيـة الهـادية وتـذوق القلب لحلاوة الإيمان بهـا ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝١١﴾ [التغابن: ١١].

* * *

مع ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ... ﴾ على طريق البناء

«٦»

ما أعظم ما تفيض به كلمات اللّه من الخير، وما أكرم هذا العطاء الذي سعدت به البشرية في خطاب اللّه تعالى عبادَه المؤمنين بـ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وجعلِه هذا الخطاب الندي الثري المعبر: قاعدة البناء والمنطلق العميق للحركة التي فتحت بالإسلام آفاق الهدى، وحملت الأمة إلى مرتبة القيادة في العالمين، بل والشهادة على الناس؛ من سبقها منهم ومن وليها ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ﴾[البقرة: ١٤٣].

وقد ألمحت فيما سبق من القول إلى أن الكلام على حكمة العناية بواقعة الأعراب في سورة الحجرات لا بد أن يصحبه أمران اثنان:

أولهما: أن الحكم على هؤلاء وغيرهم يتحرك على المحور الإيماني وما يجب أن يصحب الإيمان من العمل الصالح الذي يكون انعكاسَ الإيمان.

والأمر الثاني: أن الأعراب لم يقتصر الحديث عنهم على سورة الحجرات، ولكن ورد ذكرهم أيضاً في سورة التوبة كشفاً عن بعض الحقائق في عدد من الآيات، حيث ذكر فريق منهم بالإساءة، وفريق بالإحسان، وكان التوجيه إلى الانتفاع بالحقائق التي أشرقت بها النصوص على صعيد البناء الذي أنيط برسول اللّه ﷺ وأصحابه، بدءاً من مجتمع المدينة.

والواقع أن القضية تدور حول المحور نفسه - المحور الإيماني - المشرق بالعطاء، ووجوبِ اقتران الإيمان بالعمل الصالح كما أسلفنا، فالذين ورد ذكرهم في معرض الذم منافقون، لم يذوقوا للإيمان طعماً، يتربصون بالمؤمنين الدوائر، ويعصون اللّه

ورسوله، وتجدهم يقلُّون أو يعتذرون عند القتال والفزع، ويكثرون عند المغانم والطمع، حتى لو أنفقوا شيئاً من المال، اتخذوا ذلك مغرماً وخسارة بلا حياء؛ ولو أنهم آمنوا واتقوا لما كان منهم ذلك، ولفاضت عليهم النعم، نقرأ في هذا على سبيل المثال قوله تعالى في سورة التوبة: ﴿ وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ ﴾[التوبة ٩٨].

أما الذين ورد ذكرهم في معرض المدح والثناء: فهم مؤمنون بالله واليوم الآخر، صادقون فيما يفعلون وينفقون، لا يبتغون إلا مرضاة الله ورسوله. ذلك قوله تعالى في سورة التوبة أيضاً: ﴿ وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾ ﴾[التوبة ٩٩].

وإنصافاً للحقيقة يجدر أن نذكر هنا أن أكثر العلماء على أن الأعراب الذين جاء ذكرهم في سورة الحجرات لم يكونوا في عداد المنافقين ـ كما يرى الإمام البخاري ـ وإنما كانوا على ضعف يؤمل أن يزول. فهم قوم ادَّعوا لأنفسهم مقام الإيمان، ولم يَحْصُلْ لهم بعد، فأُدبوا ـ كما يقول الحافظ ابن كثير ـ وأُعلموا أن ذلك مرتقىً لم يصلوا إليه بعد. ولو كانوا منافقين لعُنِّفوا وفضحوا كما ذكر المنافقون في سورة براءة التي هتكت المنافقين. وإنما قيل لهؤلاء تأديباً وتذكيراً بحقيقة ما هم عليه ﴿ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ أي لم تصلوا إلى حقيقة الإيمان بعد.

وفي نظرات متأنية إلى العمل البناء من خلال الواقع والحرص على تنمية الإمكانات المادية والبشرية، كيما تنفض الأمة عن كواهلها غبار التخلف عن منهج رسمه لها الإسلام، وتعود في العالمين سيرتها الأولى... في نظرات متأنية على هذه الشاكلة نجد أن ما قاله العلماء في شأن هؤلاء النفر من الأعراب: أدعى لأن يكون الدرسُ أكثر عُمقاً في نفوس العاملين، وأكثر إشراقاً على طريق الرواد؛ فالوقت لا

يوحم متخلفاً، والشمس تشرق وتغرب لا تنتظر القاعدين، والسواعد التي تُشمِّرُ للتنمية والبناء لا بد في نظر الإسلام أن تكون مرتبطة بقلوب لا يخالطها شك أو تخلخل؛ فهي بالإيمان وإلى الإيمان. وما أحرانا ونحن في شهر رمضان المبارك شهر البناء المتعاظم الذي يقوم على القاعدة الإيمانية المستنيرة، في النفس وفي المجتمع، صبراً وجهاداً وسمواً بالعقول والقلوب إلى المعالي والصلة بالقرآن.. ما أحرانا أن نقيد من معالم الكتاب الكريم لا في حدود المناسبة ولكن على درب البناء الذاتي الطويل!!



مع ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ...﴾ على طريق البناء

«٧»

آن لنا بعد الذي أسلفنا من تمهيد: أن نحاول الكشف عن الحكمة البالغة وراء العناية بواقعة الأعراب كما وردت في سورة الحجرات. وهو اجتهاد أرجو أن أوفَّق فيه للصواب، وسبحان من بيده الخير وهو على كل شيء قدير.

يبدو ـ واللّه أعلم ـ أن القضية التي تكشف عن الحكمة تعود إلى عدد من الأمور، قد يكون بينها شيء من التداخل أحياناً. أما أولها: فهو التحديد الموضوعي للمواقف من خلال مفهومات الرسالة المحمدية، سواء أكان ذلك مرتبطاً بالأعمال والأقوال والتصرفات، أم كان مرتبطاً بالأشخاص كائنين من كانوا، بحيث يتضح على طريق الدعوة الخيِّرة في رحلتها البناءة العميقة الشاملة، التي لا بد أن يجنَّد لها الأكفياء الأوفياء الأمناء: من هم المؤمنون حقاً ومن هم غير ذلك؟

وكيف أن بعض التصرفات تكون مؤشراً على أن صاحبها لم تخالط بشاشة الإيمان قلبَه، ولو أن الإيمان، دخل في قلبه، لسمت نفسه عن هذه الأغراض القريبة من أغراض الدنيا في النفس والمال وما هو منهما بسبب. ولارتفع عن الحضيض الذي يتراكم فيه ـ على غير هدىً ـ أولئك الذين لم يدركوا سمو الغاية التي يجب أن يعمل لها المسلم عندما يجعل من عمله وبذله وجهاده زلفاه إلى مرضاة اللّه تبارك وتعالى، لأن ما عند اللّه خير وأبقى. وعندما يكون إيمانه بالغيب ـ ومن الغيب ما وعد اللّه عباده الصادقين المجاهدين ـ تصديقاً جازماً بما وعد اللّه ورسوله لا تشوبه شائبة ويكون أوثق بما عند اللّه من وثوقه بما هو بين يديه، ويستعلي على العبث وما يطرأ على النية من زغل ـ وهذا ما لم يتوافر لأولئك الذين ذكر اللّه جل شنه عنهم في سورة الحجرات ـ وجاء الرد الذي أوضح الأهمية البالغة لصدق الإيمان فقال تعالى: ﴿ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾.

ولا يخفى ما في ذلك من تحديد وتحرير للمواقف، وإيذان بضرورة العناية بسلامة القاعدة ـ وهي الإيمان ـ ضماناً لسعادة الفرد في الدنيا والآخرة، وحرصاً على الإحكام في سلامة البناء.

من أجل ذلك، أخذ العلماء من هذه الآية الكريمة أن الإيمان أخصُّ من الإسلام قالوا: ويدل عليه حديث جبريل عليه السلام حين سأل عن الإسلام ثم عن الإيمان ثم عن الإحسان، فترقَّى من الأعم إلى الأخصِّ، ثم لما هو أخَصُّ منه.

وهذا الذي نومىء إليه من الترابط الوثيق بين صدق الإيمان والاستقامة، عملاً صالحاً وجهاداً في سبيل اللّه: يشهد له ما جاء في الآية التالية للآية التي نحن بصددها وهي قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٥﴾ ﴾[الحجرات: ١٥].

والتحديد الذي أشرنا إليه يواجهنا هنا بدقة ووضوح؛ أن يدَّعي أولئك الأعراب أنهم آمنوا: دعوى مرفوضة لأن سلوكهم كان على النقيض من ذلك، ومنهج البناء في ظل الدعوة وما يرافقه من تنمية مشاعر الإيمان في نفس الفرد وكل ما يكون من حوافز العمل المخلص والجهاد في سبيل اللّه، إن منهج البناء هذا يأبى بطبيعته أن يكون في صفوف العاملين في ميادين الحياة وما تزخر به من واجبات وتبعات: من يخالط إيمانهم دخَل أو ريبة، أو من لم يدخل الإيمان في قلوبهم، ولكن حملتهم إلى ساحة الدعوة مصالحهم القريبة، ولذلك جاء الحصر في التعريف بالمؤمنين على وجه الحق والصدق فبدئت الآية بكلمة «إنما» التي تفيد هذا الحصر، وأن من لم تتوافر لهم هذه الصفات فهم غير مؤمنين على وجه الحقيقة، فالمؤمنون هم الذين آمنوا باللّه ورسوله.

هذه واحدة والثانية أنهم لم يرتابوا، فهم على يقين كالجبال الرواسي.

ولم يقتصر الأمر على ذلك، فقد جاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل اللّه وهذه هي الثالثة.

وقد ختمت الآية بشهادة اللّه لهم بالصدق فضلاً منه ونعمة، وأكرِم بها من شهادة ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾.

الإحسان.. والبناء

لعل من الحقائق التي ينبغي أن يُحسَنُ تمثُّلها والانتفاع بها في عملية التربية والإعداد: أن «الإحسان» الذي ورد بيانه في حديث جبريل عليه السلام وسؤاله عن الإسلام والإيمان والإحسان، هو صفة سداها ولحمتها صدق العبودية والإخلاص لله عزَّ وجل.

وهو ـ كما اتضح من كلام الرسول عليه الصلاة والسلام في إجابته جبريل عليه السلام ـ عامل من أهم العوامل في أن يؤتي كلٌّ من الإسلام والإيمان ثمرته في طاعة اللّه تعالى ـ بمدلولها الأوسع ـ على الوجه المطلوب إن شاء اللّه.

فإذا كان الإحسانُ ـ كما جاء التعريف به ـ «أن تعبد اللّه كأنك تراه، فإن لم تكن تره فإنه يراك»؛ فتلك هي المرتبة العظيمة في عبادة المؤمن، تلك المرتبة التي تجعله على يقظة تامة ونور من اللّه فيما يأتي وفيما يذر؛ فهو يعبد اللّه في جميع أحواله، سواء أكانت العبادة توقيفية أو مطلقة، كأنه يقوم بالعبادة وهو يرى اللّه تعالى عياناً..

وما أعظم ما يعطي ذلك من الحرص على سلامة الأداء وفق الهدي المحمدي بقلب يستشعر كمال التوحيد ورقابة اللّه اليقينيةِ التي تنير الطريق؛ فتهدي إلى الإخلاص في القول والعمل، وتسلم إلى الطمأنينة في الدنيا وحسن العاقبة يوم الدين.

فإن لم يبلغ المؤمن هذه المرتبة بحيث يأتي بالعبادة كأنه يرى ربه سبحانه: فليستشعر بيقين أن ربه مطَّلع عليه يراه في أحواله جميعاً، وليقم بالعبادة وهو على هذه الحال؛ وأنعِم بذلك كله من هادٍ يهدي إلى تجويد العمل: أداءً بخشوع وخضوع بالدين، والبعد بالطاعة عن شائبة الرياء، وكل ما هو من الشرك الأصغر ـ فضلاً عن الأكبر ـ بسبيل ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾ ﴾ [الكهف: ١١٠]

وما أحسب أن منصفاً يماري في وجوب أن تأخذ التربية على هذا الأمر الجلل حقها من العناية في عملية البناء الهادفة للإنسان المسلم ذكراً كان أو أنثى: لما لذلك من الآثار المحمودة التي تعطي عطاءها الميمون في سلوك الفرد وكيان الجماعة على مختلف الأصعدة وفي شتى الميادين.

وأنت ترى أن تعريف النبي ﷺ لهذا الأمر الدقيق العميق ـ الذي هو أشبه بالمصباح يضيء عمل القلب وعمل الجوارح، ويوصل إلى أن تكون العبادة مقبولة بفضل الله عز وجل.ـ بتلكم الكلمات النيرات الجوامع، بما هي عليه من جمال التعبير وسعة المدلول وعمقه: هو من جوامع كلمه ﷺ.

فالإحسان يشمل هنا: إتقان العبادة وتجويدها المشروع، كما يشمل الإخلاص فيها والخشوع وفراغ البال حال التلبُّس بها، ومراقبة المعبود؛ قال الحافظ ابن حجر: (وأشار في الجواب إلى حالتين: أرفعهما: أن يغلب عليه مشاهدة الحق بقلبه حتى كأنه يراه بعينه، وهو قوله: «كأنك تراه» أي وهو يراك، والثانية: أن يستحضر أن الحق مطلع عليه يرى كل ما يعمل وهو قوله: «فإنه يراك». وهاتان الحالتان يثمرهما معرفة الله وخشيته. وقد عبر في رواية عمارة بن القعقاع بقوله: «أن تخشى الله كأنك تراه» وكذا في حديث أنس).

ومهما يكن من أمر: فلو أن أحدنا ـ كما يقول الإمام النووي ـ قام في عبادة وهو يعاين ربه سبحانه وتعالى: لم يترك شيئاً مما يقدر عليه من الخشوع والخضوع وحسن السمت، واجتماعه بظاهره وباطنه على الاعتناء بتتميمها على أحسن وجوهها: إلا أتى به؛ فقال ﷺ: اعبد الله في جميع أحوالك كعبادتك في حال العيان؛ فإن التتميم المذكور في حال العيان، إنما كان، لعلم العبد باطلاعه سبحنه وتعالى عليه؛ فلا يقدم العبد على تقصير في هذه الحال للاطلاع عليه.

قال رحمه الله: (وهذا المعنى موجود مع عدم رؤية العبد، فينبغي أن يعمل بمقتضاه؛ فمقصود الكلام الحث على الإخلاص في العبادة ومراقبة العبد ربه تبارك وتعالى في إتمام الخشوع والخضوع وغير ذلك).

وفي حرص على مزيد من البيان جاء قوله: (وقد ندب أهلُ الحقائق إلى مجالسة الصالحين، ليكون ذلك مانعاً من تلبسه بشيء من النقائض احتراماً لهم واستحياءً منهم؛ فكيف بمن لا يزال اللّه تعالى مطلعاً عليه في سره وعلانيته).

وقد نقل عنه الحافظ في «فتح الباري» قوله أجزل اللّه مثوبته: (معناه أنك إنما ترعي الآداب المذكورة إذا كنت تراه ويراك، لكونه يراك لا لكونك تراه؛ فهو دائماً يرك، فأحسن عبادته وإن لم تره؛ فتقدير الحديث: فإن لم تكن تراه فاستمرَّ على إحسان العبادة فإنه يراك).

قال: (وهذا القدر من الحديث أصل عظيم من أصول الدين، وقاعدة مهمة من قواعد المسلمين. وهو عمدة الصديقين وبغية السالكين، وكنز العارفين، ودأب الصالحين، وهو من جوامع الكلم التي أوتيها ﷺ).

وفي بيان لأهمية الحديث بعمومه ومنه هذا القدر المعنيُّ: قال القاضي عياض رحمه اللّه: (وهذا الحديث قد اشتمل على شرح جميع العبادات الظاهرة والباطنة من عقود الإيمان وأعمال الجوارح، وإخلاص السرائر، والتحفظ من آفات الأعمال؛ حتى إن علوم الشريعة كلها راجعة إليه ومتشعبة منه. قال: وعلى هذا الحديث وأقسامه الثلاثة ألفنا كتابنا الذي سميناه بـ «المقاصد الحسان فيما يلزم الإنسان» إذ لا يشذ شيء من الواجبات والسنن والرغائب والمحظورات والمكروهات عن أقسامه الثلاثة ـ يعني الإسلام والإيمان والإحسان ـ واللّه أعلم).

والإمام الأُبيُّ المتوفى سنة سبع وعشرين أو ثمان وعشرين وثمانمئة للهجرة، بعد أن بيَّن أن قوله ﷺ: «الإحسان أن تعبد اللّه كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» هو من جوامع كلمة صلوات اللّه وسلامه عليه لأنه شمل مقام المشاهدة ومقام المراقبة. أتى بتفصيل حسن لمقامات العبد في عبادته يُنظر هناك في شرحه لصحيح مسلم «إكمال إكمال المُعلم» وقد أثبت ذلك العلامة القسطلاني في كتابه «إرشاد الساري بشرح صحيح البخاري» مع شيء من التفصيل المفيد.

وقد أحسن الحافظ ابن حجر صنعاً فيما كشف عن تأويل بعض غلاة الصوفية للحديث بغير علم، وأتى بما يبطل ذلك التأويل بدليل قاطع من العربية وسياق الكلام

وذلك قوله يرحمه اللّه: (وأقدم بعضُ غلاةِ الصوفية على تأويل الحديث بغير عم. فقال: فيه إشارة إلى مقام المحو والفناء؛ وتقديره: فإن لم تكن ـ أي فإن لم تَصر ـ شيئاً وفنيت عن نفسك حتى كأنك لست بموجود فإنك حينئذ تراه. قال الحافظ: وغفل قائل هذا ـ للجهل بالعربية ـ عن أنه لو كان المراد ما زعم: لكان قوله: «تراه» محذوف الألف؛ لأنه يصير مجزوماً، لكونه ـ على زعمه ـ جواب الشرط، ولم يرد في شيء من طرق هذا الحديث بحذف الألف؛ ومن ادعى أن إثباتها في الفعل المجزوم على خلاف القياس: فلا يصار إليه، إذ لا ضرورة هنا.

وأيضاً، فلو كان ما ادعاه صحيحاً: لكان قوله: «فإنه يراك» ضائعاً، لأنه لا ارتباط له بما قبله.

ومما يفسد تأويله رؤية كهمس: فإن لفظها «فإنك إن لا تراه فإنه يراك» وكذلك في رواية سليمان التيمي، فسلط النفي على الرؤية لا على الكون الذي حمل عى ارتكاب التأويل المذكور وفي رواية أبي فروة «فإن لم تره فإنه يراك» ونحوه في حديث أنس وابن عباس، وكل هذا يبطل التأويل المتقدم».

بصَّرنا اللّه بكتابه الكريم وحديث نبيه عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم. وأعاذنا من فتنة القول والعمل وكل تأويل يخرج صاحبه أو يميل به عن طريق الهد ية المستنير) [الفتح: ١/ ١٣٠].

* * *

بين الماضي.. والحاضر في البناء

ليست قراءة تاريخية لتزجية الوقت؛ تلك التي يجري فيها التذكير بما أرسى الإسلام من قواعد راسخة لعملية البناء الكبرى في شخصية الإنسان وكيان المجتمع، وتمهيد الأسس التي تضمن سلامة البناء، وأهلية النماء..

أقول: ليست هذه النظرات قراءة تاريخية على هذا المحور وحسب، ولكنها قراءة العبرة والتدبر النافع لما صنعته رسالة الإسلام. وما يمكن أن يكون عطاءً متجدداً نعير من خلاله ـ ضمن ما جدَّ من معطيات على كل صعيد ـ إلى ما تتطلع إليه الأمة من تغيير إلى ما هو أفضل ـ بعد أن ضربت عليها المحن بالأسداد ـ خصوصاً وأن عملية التغيير إرساءً لقواعد البناء السليم قد بدأها الإسلام من داخل النفس: فأزال الركام الجاهلي من طريقها، وغسل ما ران عليها من موروثات وأدران عطَّلت أو كادت تعطل القدرة على الأخذ والعطاء ـ بمنهجية سليمة ـ عند كثيرين.

ومن ثمرات ذلك: الانتفاع بحقيقة أن اللّه لا يغير نعمة أنعمها على عباده حتى يغيروا ما بأنفسهم؛ فإذا غيَّروا ما بأنفسهم من صادق العبودية، وأن تعنوَ الوجوه ـ أبداً ـ لخالق السماوات والأرض ذي الجلال والإكرام: غيَّر اللّه ما بهم من نعمة. وباءوا بالخسران المبين؛ ذلةً بعد عز، وضعفاً بعد قوة، وخضوعاً مهيناً لأهل الباطل بعد تمكين. فإذا أراد هؤلاء الذين غيَّر اللّه ما بهم من النعم أن تعود إليهم تلك النعم التي كانت مسبغةً عليهم بفضل اللّه ورحمته: فما عليهم إلا أن يعودوا لما كانوا عليه من الصدق مع اللّه والإخلاص في طاعته، والبعد عن كل ما يعكِّر صفاء القلب بالمعرفة، وإشراقة النفس بالهدي والخير.

ألم تر إلى قوله تعالى في سورة الرعد بعد أن ذكَّر العباد بما منَّ عليهم من ألوان النعم﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾ ...!

وهكذا كانت عملية البناء الفريدة التي هيَّأت الإنسان القادر ـ بعون اللّه تعالى ـ على مواجهة الجاهلية في نفسه وفي بيته ثم في مجتمعه الكبير وبيئته. وكانت صياغة طرب لها العقل، واستنار بعطائها القلب، واهتزت المشاعر، فتحركت الجوارح بالعمل الصالح الدائب، والجهاد الصادق المستمر؛ وانحلت العقدة الكبرى فرأينا السواعد المفتولة المؤمنة ترفع بوعي واعتزاز قواعد البناء مهما كلف ذلك من ثمن. حتى برز المجتمع الأمثل القدوة، المجتمع الذي يحكِّم عن طمأنينة ورضى شرعة الإسلام، ويعتز أبناؤه ـ وقد أخذوا أنفسهم بالعلم والعمل وتقوى اللّه ـ بما يقدِّمون لبناء الحياة الإسلامية، ورفع راية التوحيد التي هي قوام حضارة الإسلام.. الحضارة التي ما زالت ولن تزال إن شاء اللّه ـ بما تتسم به من أصالة وعمق، وما تزدان به من إنسانية وشمول ـ تكرِّم الحق وتعلي إنسانية الإنسان.

وفي عود على بدء: إذا كان الصيام عبادة تزين المسلمَ فيها أمانة ما بينه وبين خالقه الذي لا تخفى عليه خافية، وهو العليم بذات الصدور: فهو عملية بناء متجددة من الداخل تبعث القوة وتلهم العطاء، يحوطها مع الإمساك عن المفطِّر قيام الليل والصلة بالقرآن صلة يفترض أنها صلة تلاوة وتدبر.

وإذا كان الأمر كذلك: فإن علينا في ظل هذه النعماء التي لا يقدر قدرها، أن نذكر أن عملية البناء التي نلمح إليها كانت تواجه موروثات جاهلية متغلغلة في النفوس، طاغية على العادات والأعراف من كل جانب. كما تواجه تحديات المشركين الذين لم يدعوا سبيلاً للأذى إلا سلكوه بعتوّ واستكبار وظلم، ناهيك عن أفاعيل أهل الكتاب ـ وما أدراك ما أفاعيل أهل الكتاب ـ وبخاصة اليهود يومذاك الذين كان لهم وجود بارز عند العرب على الصعيدين الفكري والاقتصادي؛ وأوضحه ما كان في المدينة قبل الهجرة.

ولا تسل عن الدَور التخريبي الذي كانوا يقومون به بين الأوس والخزرج، كيما يتسنى لهم السيطرة نتيجة ما يبعثون من الضغينة والاختلاف بين القبيلتين، ولكن أحاطت بهم خطيئة مكرهم وخابت ظنونهم والحمد لله.. وإن كانت الأفعى متربصة على الدوام!! فلقد واجهوا دعوة الإسلام ـ يوم واجهوها ـ بأعنف صور التعامل، وبكلِ ما قدروا عليه من صنوف الخبث والمكر ومنازلة الباطل للحق.

حتى إن المعارك الظاهرة في ميدان القتال: لم تحل ـ كما هو معلوم ـ دون محاولات الاغتيال المتعددة لرسول الله عليه والصلاة والسلام؛ ناهيك عن السلاح الإعلامي الهابط ومحاولات الوقيعة والتشويه، وإطلاق الشائعات التي تنذر ـ إذا انحسر التثبت ـ بالشر الوبيل.

ولا تسل ـ بعد هذا ـ عن النفاق والمنافقين الذين كانوا ـ على المدى ـ في موقع التآخي على حلف غير مقدس مع اليهود والمشركين، وحسبك أنهم ـ لكفرهم الدفين وخبث الطويَّة عندهم ـ لا تطمئن نفوسهم ولا يهدأ لهم بال، إلا بتثبيت دعائم الكفر، والتفريق بين المسلمين والإرصاد لهم، ولكن الله بالغ أمره، فكانت اليقظة الإيمانية لهم بالمرصاد، ومن الإنصاف للحقيقة أن الواقع العالمي ـ ومن أبرز ركائزه يومذاك كيانات فارس والروم والهند ـ كان واحداً من أسلحة التحدي التي تعمل على التأثير في عملية البناء التي كانت هجِّيرى أهل الحق ضمن التحديات جميعاً، وأسلحة المواجهة كافة.

والأمة مدعوة اليوم ـ بدعوة الحق ـ إلى أن تنمي يقينها بصلاحية الوجهة التي أرست قواعد البناء للفرد والمجتمع والأمة، يوم تنزل الوحي على رسول الله ﷺ بقول الله تعالى في فواتح سورة العلق: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾[العلق: ١-٥].

كما أنها مدعوة كذلك وعلى هذا السَّنَن أن توظف ـ مع اعتزازها بالإسلام ومع معرفتها بالواقع ـ أن توظف ما أعطاها الله من إمكانات بشرية ومادية على هذه الطريق. وأن تفيد من حصاد التجربة عند الآخرين. إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وتستخدم من معطيات العلم كل الوسائل التي لا تتعارض مع الإسلام.

كل أولئك كيما يكون استئناف المسيرة ـ بعون الله ـ استئنافاً يجمع بين الأصالة الهادية والتحديث الذي لا يتجاوز الوسائل إلى الغايات؛ لأن تحركنا على ساحة البناء والإنماء كائن لنا وفي صفنا إذا نحن استمسكنا بصدق الأصالة والانتماء بكل ما يحمل ذلك من هداية ونور.

أما إذا جنحت الأمة عن سواء السبيل ـ لا قدَّر اللّه ـ وملنا مع الريح حيث تميل؛ فهنالك الطامَّة الكبرى، ونُذُرها في حياة المسلمين لا تخفى.

وكم تكون الأمة على سنن التوفيق، والتفاؤل بعودة القوة والتمكين إذا كانت ـ وهي تتحرك على أصعدة التنهيج للتربية والبناء والإعداد المطلوب ـ على ذكر نافع فعَّال من قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

والنماذج الحية في المجتمع المسلم التي تبدو وهي تتحرك على أرض الواقع صورة حية لأحكام الإسلام وأخلاق الإسلام، حتى كأنها إسلام ناطق.. هذه النماذج سلاح فعَّال، من الخير أن يستخدمه المؤتمنون على التربية والتزكية في المجتمع؛ لأن من أول دلالاته: أن الإسلام ليس نظريات بشرية تستعصي على التطبيق، ولكنه منهج الخالق الحكيم الخبير الذي يتناسب مع ما فطر اللّه الإنسان عليه وما أهَّله له، وهذا أمر واضح لكل عاقل مُنصف. وبذلك تكون حركة هؤلاء النماذج مدعاة لتطويع النفوس للخير، والانصياع لضوابط التربية الإسلامية الحكيمة التي تضع الأمور مواضعها حيث العقيدة وبناء الشخصية وحرية القول والحركة، ضمن ضوابط تحفظ إنسانية الإنسان وكرامة الإنسان، وتجعل من الفرد ـ حقاً ـ لبنة تحمل العطاء الذاتي في المجتمع المنشود.

وكأين من واقعة في تاريخنا توحي بالأثر العظيم مع السلوك في حياة المسلم الذي توافر له البناء الإسلامي على الوجه المطلوب. جاء في كتاب «الأذكار» للإمام النووي: (عن عبد اللّه بن عمر رضي اللّه عنهما أنه دفن ابناً له وضحك عند قبره، فقيل له: أتضحك عند القبر؟ قال: أردت أن أرغم أنف الشيطان) وما ذلك ـ واللّه أعلم ـ إلا لأن هذا الصحابي الجليل ـ بما تربى عليه من مدرسة النبوة من العلم النافع والتقوى، والحرص على صدق التأسي بالنبي عليه الصلاة والسلام: قد وضع نصب عينيه ما يكون عليه الأمر في دار القرار، وأنه إذا صبر واحتسب ـ وفي ذلك

إرغام لأنف الشيطان ـ كان له في الجنة ما أخبر به المصطفى ﷺ. وعن حميد الأعرج قال: رأيت سعيد بن جبير رحمه اللّه يقول في ابنه ـ ونظر إليه ـ إني لأعلم خير خلة فيك، قيل: ما هي؟ قال: يموت فأحتسبه. وعن الحسن البصري رحمه اللّه أن رجلاً جزع على ولده وشكا ذلك إليه فقال الحسن: أكان ابنُك يغيب عنك؟ قال: نعم كانت غيبته أكثر من حضوره. قال: فاتركه غائباً فإنه لم يغب عنك غَيبة الأجرُ لك فيها أعظم من هذه. أجل إنها الغيبة التي تعقبه ـ إن هو صبر واحتسب ـ جنة عَدن التي يزلفها اللّه لعباده المنيبين المتقين، فيكون هو وولده الذي فقده من أهلها يتمتعان بنعيمها ويغمرهما رضوان اللّه ثم يكون لهما ما تقر به أعين المؤمنين من رؤية وجه ربنا الكريم سبحانه وتعالى.

ولما مات عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز وانتهى من دفنه قال عمر رضي اللّه عنه: وقد أحاط به الناس: «رحمك اللّه يا بني لقد كنت باراً بأبيك، واللّه ما زلت منذ وهبك اللّه لي مسروراً بك. ولا واللّه ما كنت قط أشد بك سروراً ولا أرجى بحظي فيك منذ وضعتك في هذا المنزل الذي صيرك اللّه إليه، أما واللّه أن كنت تدعو أباك إلى الجنة، فرحمك اللّه وغفر لك ذنبك وجزاك بأحسن عملك ورحم اللّه كل شافع يشفع لك بخير من شاهد أو غائب، رضينا بقضاء اللّه وسلمنا لأمر اللّه والحمد لله رب العالمين». ثم انصرف. أرأيت إلى كلام السعداء كيف يكون؟ أما واللّه أن كنت لتدعو أباك إلى الجنة.

أرأيت...! إنه البناء الإيماني المحكم الذي ينتصر على الرغبات والمعوقات. رحم اللّه خامس الخلفاء الراشدين ورفع مقامه في الآخرين. هذا مكمن القضية ولا يتعارض هذا السرور مع قدر من الحزن على ولده عبد الملك. مرة أخرى رحمه اللّه ورحم ولده عبد الملك الذي كان خير عون له ـ بعد اللّه ـ في خلافته وجمع بينهما في دار كرامته في الفردوس الأعلى يوم الدين.

* * *

من قضايا البناء.. في تسخير الكون

«١»

على الساحة الحضارية في تاريخنا، طرح القرآن الكريم من خلال واحد من معلمه الهادية، قضية جذرية بارزة، وسَّعت خطوات العلم بمختلف فروعه العملية، ونمّت بواعث البحث والنظر عند المسلمين تلك هي قضية العلاقة بين الإنسان والكون؛ ما هي طبيعتها، ما هي أبعادها، ما هي ثمراتها ونتائجها؟

حتى قضايا التفكر والتدبر، والنظر في آيات اللّه في الآفاق وفي النفس الإنسانية، يجد الناظر المتأمل أنها تسير ـ بكل أبعادها وميادينها ـ في ظل تلك العلاقة بين الإنسان والكون؛ والتعرف إلى طبيعة هذه العلاقة هو جزء من نظرة الإسلام إلى الإنسان والكون والحياة.

وأنت واجد في القرآن الكريم: أن علاقة الإنسان بالكون علاقة طبيعية لا تتسم بعداء وصراع ـ كما يقال ـ ولكنها علاقة ود وتلاحم وتناسق لما أن كلاً من الإنسان والكون مخلوق لله تبارك وتعالى. وقِوام هذه العلاقة أن الكون مسخَّر مذلّل للإنسان؛ ولم يكن ذلك عبثاً من العبث، فاللّه تعالى يعلم من خلق وما خلق، ويعلم الحكمة فيما كان وفيما يجب أن يكون.

فالإنسان وقد كرمه اللّه وخلقه في أحسن تقويم، وأهَّله للخلافة في الأرض، وجعله في موقع التكليف والمسؤولية، وما يترتب على ذلك من مثوبة أو عقاب، وأعطاه الفطرة والعقل والقلب، وأودع فيه ما أودع من المواهب والخصائص والطاقات، والغرائز والأشواق؛ هذا الإنسان عندما ينشط في تعامله مع الكون من طريق العلم، والمعاناة والتجربة، ورصد النتائج وربطها بالمقدمات، يؤدي رسالة يكون

فيها ممتثلاً لأمر اللّه عز وجل في التفكر والتدبر، والنظر في ملكوت اللّه وخلقه، والمشي في مناكب الأرض، والتمتع بخيراتها التي هي من رزق اللّه، واستخدام ذلك كله في بناء الحياة الأفضل التي تتحقق معها كرامة الإنسان ضمن إطار نورفي نسيجه العبودية لله تبارك وتعالى، الذي له الخلق والأمر، وإخلاص الوجهة إليه لما أنه الخالق والرازق والمسخر سبحانه.

وكلما أوغل في البحث والنظر نمت في نفسه تطلعات إلى الجديد، وكان أقدر على البناء في صورته المتكاملة كما أراد اللّه.

وهكذا تجد أن هذه الأهلية للإنسان قابلها تسخير الكون وتذليله وفق حكمة اللّه البالغة والصورة التي أرادها؛ فالكون مسخّر للإنسان، والإنسان قد أعطي مفاتيح هذا التسخير، بما أودع اللّه فيه من عقل وقدرة على النظر والبحث والتدبر والفهم والإفادة من المعاناة والتجربة.

فتراه ينتقل من المقدمات إلى النتائج، ومن الجزئيات إلى الكليات، ولا يفتأ يفتح الأبواب من هنا، ويدقق في الزوايا من هناك، وليس في هذا الكون مخلوق آخر يشاركه هذه الخصائص التي كانت من أوضح البراهين على كلمة اللّه تعالى حين سخر له الكون براً وبحراً وجواً وما هو من ذلك كله بسبب وذلّل له هذه الأرض، وكانت مفاتيح هذا التسخير والتذليل بين يديه. تجد ذلك جيلاً بعد جيل كلٌّ يبني على ما كان صواباً من المعرفة، ويهدم ما كان خطأ، كل أولئك بوضع الأهلية موضعها من النظر في ملكوت اللّه، والتدبر لآيات اللّه في الآفاق، والأمر في الإسلام مرتبط قبل ذلك وبعده بعقيدة التوحيد وذلك ما يقوي الحوافز وينشيء البواعث الصالحة على الاستمرار في العلم وفتح مغاليق الكون، حتى إن الإنسان بما سخر اللّه له يستخدم ما في الكون لفتح مغاليقه، وما أعظمه حكمة وأبلغه دلالة أن يكون بدء الوحي إلى نبينا عليه الصلاة والسلام بالقرآن قوله تعالى: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ ﴾ وما أكثر الآيات في ذلك.

ولنقرأ قوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت: ٥٣] ﴿ الرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الإِنسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ ﴾ [الرحمن: ١-٦] وسبحان من له الخلق والأمر، وهو على كل شيء قدير.

* * *

البناء.. وقضية تسخير الكون للإنسان

«٢»

ذكرت فيما سبق من القول: أن القرآن الكريم يهدي إلى أن العلاقة بين الإنسان والكون لا تتسم بعداء أو صراع ـ كما يقال ـ ولكنها علاقة ودودة قوامها تسخير الكون لهذا الإنسان بقدرة اللّه تعالى وحكمته، وأهلية الإنسان للإفادة من هذا التسخير بما أعطاه اللّه من طاقات وبما ميَّزه من خصائص. والمهم أن يضع ذلك حين يضعه ـ على صعيد البناء ـ في إطار العبودية لله تبارك وتعالى، والعمل على تنمية كل ما من شأنه صدق التوجه إليه جل وعلا، فهو المعبود بحق، وهو الذي خلق وقدَّر، وهو الذي سخَّر وذلَّل، وله الخلق والأمر ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الأعراف: ٥٤].

ولعل مما يجدر ذكره: أن أبعاد العلاقة، التي نومىء إليها بين هذا الإنسان وكون اللّه العريض: غير محدودة بشيء هو تحت أيدينا وأبصارنا، ولكنها محدودة على سحة العلم والعمل بمدى ما يمكن أن يصل إليه الإنسان ضمن طاقاته المحدودة وما أهه اللّه له، واللّه تبارك وتعالى هو العليم بما وراء ذلك.

وعلى الإنسان أن يكون صادقاً في عبوديته لله تعالى كيما يكون جديراً بهذه الكرامة التي أكرمه اللّه بها، حين سخر له الكون، وأعطاه مفاتيح هذا التسخير.

ولن يكون ذلك ـ كما أسلفت ـ إلا إذا ظل هذا الإنسان على تقلب الأزمنة والأعصار جيلاً بعد جيل، وقرناً بعد قرن وقَّافاً ـ وهو يقوم بعمارة الأرض والإسهام في بناء الحضارة وتنمية ما أوتي من خصائص، وما وضع اللّه بين يديه من نعم وطاقات ـ عند الغاية التي يعلنها قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات: ٥٦].

فاللّه تعالى كما تعبَّدنا باعتقاد ألوهيته ووحدانيته، وتنزهه عن الأضداد والأنداد؛ تعبدنا بشريعة ناظمة ــ على المنهج الأوفى ـ لكل شؤون الحياة. والعملُ بها طريق البشرية إلى السعادة والاستقرار في الدنيا والفوز بجنة عرضها السماوات والأرض في الآخرة.

وما نقوله في هذه العجالة هو ثمرة من الثمرات الغنية بأهلية الدفع إلى الأمم، وهي الثمرات التي يجب أن تنتجها العلاقة بين الإنسان والكون وذلك بجانب واحدة لا ينكر أنها من بدهيات الأمور، وهي أن لا تستخدم هذه العلاقة وما يصل إليه الإنسان مع مدارج الرقي العلمي وما يتفتح له من آفاق.. أن لا تستخدم في سبيل هدم الإنسان وإهدار كرامته وإنسانيته وحريته، كما هو حاصل اليوم من أولئك الذين تبختروا على ظهر القمر، وهم اليوم على طرف الثمام من الاتصال بعدد من الكواكب الأخرى، ناهيك عن الجنوح بهذا الإنسان عن الطريق السوي، ووضعه على طريق الضياع، والقلق، لما أنه حيل بينه وبين العبودية الخالصة لله عز وجل وما يحدث ذلك من طمأنينة نفسية، وقدرة على مواصلة رحلة الحياة، لأن هناك يوماً آخراً هو آت لا ريب فيه، وهو اليوم الحق الذي توضع فيه الموازين القسط، ويجزى كل إنسان بعمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

وموعدنا كلمات قادمات نعرض فيها لبعض آيات التسخير المباركات في إشارة إلى ما تعطيه من زاد على طريق العلم والبناء، ربما تبعث إلى التطلع والاستشراف إلى مزيد من آفاق المعرفة، وما يرافق ذلك من تنمية قدرِ هذا الإنسان الذي أعطي مفاتيح التسخير والتذليل.

* * *

البناء.. وقضية التسخير

«٣»

في حديث موصول بما قلته من قريب: أود الإشارة إلى أن القضية التي نأخذ ببعض أصرافها، والتي يطلع بها واحد من المعالم القرآنية على الساحة الحضارية في تاريخنا وهي قضية ما قضى اللّه بعدله وحكمته من تسخير الكون وما فيه للعباد، وتذليله للإنسان الذي خلقه في أحسن تقويم، وتأهيله بما يمكنه من تحقيق هذا التسخير... هذه القضية العظمى قد حظيت بقدر كبير من الآيات في الكتاب الكريم، وجاء ذلك بأساليب متنوعة، وعلى صور تسعف في تحقق الهداية على هذه الساحة المباركة.

وكان ذلك كله ناطقاً بالإعجاز الذي من سماته وضع كل قضية موضعها على محور الهداية بالتعبير الوافي المكين، والأسلوب الرائع المتين.

وكانَ لذلك ما له من دلالة فيما يجب أن يكون عليه البناء المتكامل للإنسان وقد سخر له الكون وما فيه، وتنمية إمكاناته، والارتفاع بأهليته لينعم بهذا التسخير، ويضع ثمراته موضعها في خدمة الحق والإنسان، وآية ذلك ألاّ ينسى وهو ينعم بتلك النعمة العظيمة نعمة التسخير ويتغنى عقله بما يزيح كل يوم من الحواشي عن شيء جديد من مكنونات هذا الخلق البديع... ألاّ ينسى وهو يكتشف ما يكتشف من آفاق الكون وموجوداته.. خالق الكون ومبدعه الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ الإنسان من خلقَ من طين.

وأنه ـ هو ـ مخلوق لله تبارك وتعالى، خلقه وكوّنه على حال معينة تحمل الأهلية التي تجعله ـ في عمره المحدود بقدر اللّه وإرادته ـ كفاء مواجهة الكون والحياة، وتحقيق إرادة اللّه فيما خلق من أجله الإنسان والكون والحياة.

ها نحن نقرأ في الآية الثانية من فواتح سورة «الرعد» ـ وهي سورة مدنية ـ قول الله جلت حكمته: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ۝٢﴾[الرعد ٢].

وفي سورة «إبراهيم»... وهي سورة مكية ـ تشرق الآية الحادية والثلاثون بخطاب للنبي ﷺ يؤمر فيه المؤمنون بإقام الصلاة والإنفاق مما رزقهم الله سراً وعلانية من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلال. ذلكم قول الله تباركت أسماؤه: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ۝٣١﴾[ابراهيم:٣١].

ثم يتلو ذلك آيات في التسخير الإلهي وإفاضة النعم، الأمر الذي يدل على الغاية التي سبق الإلماح إليها فيما مضى من القول؛ وهي وجوب أن توضع ثمرات نعمة هذا الفضل الكبير عند البناء والتنمية على طريق العبودية لله تعالى وطاعته وتقواه؛ وفي ذلك ـ أن لو أنصف العباد وشكروا النعمة ـ تحقيقٌ لإنسانية الإنسان، وسعادته في دنياه وآخرته.

وذلكم هو المؤشر الحقيقي لسلامة البناء الذي يعانيه الإنسان، ويبذل له من وقته وطاقته، وإلا فعاقبة هذا الجهد المبذول، والطاقات الفاعلة: ضياع وخسران.

والكلمات الهاديات التي نومىء إليها هي قوله سبحانه: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ۝٣٢ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۝٣٣ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ۝٣٤﴾ [ابراهيم: ٣٢-٣٤].

ومهما يكن من أمر؛ فإني مذكّر بما قلته فيما سبق، من أنه حتى الآيات التي دعت إلى النظر والتدبر والتفكر في آيات الله المبثوثة في آفاق الكون وفي النفس الإنسانية. ما بدّ أن ينظر إليها في ظل القضية الكبرى التي يساق إليها الحديث.

وأن العلاقة بين الإنسان والكون ـ في هدي هذا الدين الحنيف ـ ليست علاقة عداء وصراع تقتضي محاولة السيطرة والقهر، ولكنها علاقة تناسق وتناغم يتحقق معها ـ أن لو سلك المنهج القويم ـ خيرٌ كثيرٌ.

فتعبير ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم﴾ وتوكيد هذا التسخير للعباد بكلمة ﴿ لَكُم﴾وأمثال هذا وما يأخذ ذلك على ساحة القناعة الإيمانية من أبعاد: يفتح للمسلمين آفاق العلم والمعرفة ـ من منطلق التوحيد ـ على مصاريعها، وبخاصة ما يتعلق بتلك العلوم العملية التي بدونها لا يمكن أن تظهر حقيقة فضل الله في التسخير، وأن يستشعر الناس أن ذلك نعمة جلى لا بد من شكرها بوضع الأمور مواضعها بإيمان واستقامة.

وهكذا تقتضينا الموضوعية ـ بعيداً عن التقليد الأعمى للأقوياء ولو كانوا على غير سبيل الرشد ـ تقتضينا ونحن على حال تشدنا فيها الرغبة عند أولي النهى فينا إلى تحقيق بناء الذات في مجال العلم التقني وكل ما هو منه بسبب؛ من حيث المقدمات التي تبنى عليها النتائج، والتسلح بثمراته في مواجهة ظروف لا تخفى، ووقائع لا نستشار فيها، ومنها ما يكون في الحسبان، ومنها ما لا يكون.

أقول: تقتضينا الموضوعية، وصدق الانصياع لما تهدي إليه معالم الكتاب الكريم وبيانها من سنة المصطفى عليه الصلاة والسلام، أن نفتح بصائرنا أكثر وأكثر لنرى أي جذور راسخة أصَّلها القرآن في حياة الأمة حين جعل العلم أداة طبيعية لفتح مغاليق ما سخر الله للإنسان وأنعم عليه في هذا الكون العريض.

الأمر الذي يفسر تلك المراحل التي قطعتها أمتنا ـ يوم كانت تدور مع الإسلام حيث دار ـ على هذا الدرب الحضاري المكين.

وعندها ننهد للانتفاع بحقيقة أنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، و لله الهادي إلى سواء السبيل.

* * *

البناء.. وقضية التسخير

«٤»

ما تزال الآيات الكريمات التي تدل على عظيم نعمة اللّه على عباده فيما سخَّر لهم وذلَّل، وفيما أفاض عليهم من الخيرات التي يتنامى نفعها بمقدار ما يتوافر للإنسان من المعرفة ودقة النظر في ملكوت اللّه سبحانه.. ما تزال تأخذ بأيدينا إلى ما فيه تفتح على هذا التأصيل للعلاقة الطبيعية بين الإنسان والكون، وما تثمره العلاقة ـ على هذه الصورة ـ من الرقي في مدارج العلم والانتفاع المنظَّم بتلك العناصر المبثوثة في ذلك الكون بكل ما فيه، ناهيك عما تصنعه تلك العلاقة من تجدد زيادة الإيمان بوجود اللّه ـ سبحانه ـ وقدرته وبالغ حكمته.

وليس من مكرور القول أن نشير إلى أن الأمة مدعوة إلى أن تفيد بسعة أفُقٍ وموضوعية من هذه الحقيقة التي أشرق بها واحد من معالم الكتاب العزيز.

وقد رأينا من خلال هذا المعلم الميمون شيئاً مما جاء في سورتي «الرعد» و«إبراهيم» ودلالة ذلك على ضرورة التكامل في البناء، سواء على صعيد المنهج أو على صعيد التطبيق؛ بحيث يجتنى العلم ويأخذ دوره الباعث على العمل والانتفاع بما يهدي إليه من خيرات هذا الكون ويضعها موضع الإسهام في بناء القوة الذاتية للأمة، والأخذ بما به تتحقق حراسة الدعوة المحمدية وأهلها من التجاوز والعدوان، وإتاحة الفرصة لنشرها ـ وهي الحق لا ريب فيه ـ في العالمين.

ذلك بأن العلم يبلغ أن يكون ـ إذا صحبه الوعي والحرص على الذود عن الحق ـ أداةً طيعة للتسخير، يفتح الآفاق، ويكتشف ـ يوماً بعد يوم ـ ما هو في حدود الإمكان وفق المتابعة ورصد النتائج التي آذنت بها المقدمات؛ الأمر الذي يدل ـ فيما

يدل ـ على عظمة الخالق المبدع جل شأنه وأنه الحكيم الخبير الذي لا ترى في خلقه مهما رجعت البصر شيئاً من الخلل أو الفطور ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الملك: ٢-٤].

هذه واحدة. وأما الثانية: فإن المعلم القرآني يهدي ـ بكل وضوح إلى وجوب أن لا تزيغ الأبصار، ويحيد المرء عن الطريق؛ إذ الواجب أن يكون التقدم العلمي مدعاة لمزيد اليقين بوجود من خلق سبحانه وعظيم حكمته، لا أن يقع الإنسان في حمأة الغرور المردي الذي يذلل للشيطان أن يبيض ويفرِّخ في عقل الإنسان.

كما أن الواجب وضع ثمرات التسخير وما يصنعه العلم من فتح أبواب النعم ـ كما سبقت الإشارة غير مرة ـ على صعيد العبودية لله تعالى، وكل مايضمن طمأنينة الإنسان ـ بكل ما تحمل هذه الكلمة من المعاني ـ واستقرار المجتمعات والسلوك بالبشرية مسلك السعادة في الدارين لا أن يسخر العلم ـ بعيداً عن الأمانة والخلق ـ ليكون معول هدم للإنسان ـ على وجه العموم ـ وسلاحاً فتَّاكاً للعدوان على الضعفاء ـ على وجه الخصوص ـ يسامون سوء العذاب، ويوضعون موضع القهر وخسارة وجودهم المادي ووجودهم المعنوي جميعاً.

وها هي ذي سورة النحل ـ وهي سورة مكية من محاور الهداية فيها: هدمُ الوثنية في نفس الإنسان وبناؤه على عقيدة التوحيد الخالص ومستلزماته ـ نجدها بعد التذكير بأصناف النعم التي يفترض أن يحرك وجودُها عقولَ المشركين نحو الإيمان بوجود المنعم سبحانه: تطلع علينا بهذه الآيات المباركات:

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ

فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴿١٤﴾ وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وأنهاراً وسبلاً لعلكم تهتدون ﴿١٥﴾ وعلامات وبالنجم هم يهتدون ﴿١٦﴾ أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون ﴿١٧﴾﴾ [النحل: ١٢-١٧].

وبعد: فسبحان من خلق الإنسان وملأ عليه وجوده بالآيات التي تدعوه إلى الإيمان، وتفتح له أبواب العلم على مصاريعها. والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

أن تتنزل هذه الآيات من سورة النحل ـ ولها نظائر عديدة في كتاب الله ـ على رسول الله ﷺ في وقت مبكر من عمر الدعوة في العهد المكي: تبدو في وجهها الأول؛ وهي تهدف إلى تحريك العقول والقلوب وتوجيهها وجهة الإيمان بالله عز وجل، والإقلاع عن تلك الخرافة المهينة في عبادة الأوثان التي لا تملك لنفسها ضراً ولا نفعاً فضلاً عن أن تملك ذلك لمن يهملون عقولهم ويعطلون النظر فيعبدونها. فالله الذي سخَّر وأنعم هو الجدير بالعبادة والإفراد بالألوهية جل وعلا.. ولكنها تبدو في وجهها الآخر، وهي تهدف ـ والله أعلم ـ إلى إشعار هذه الأمة بأن الحياة التي تدعو إليها رسالة محمد عليه الصلاة ولاسلام: تأخذ بعين الاعتبار مقام العلم في الوصول إلى حقيقة هذا التسخير ومفاتيحه، وأنه بدون هذا العلم العملي، وتمية حوافز انبحث والتنقيب، لا يمكن أن يصل الإنسان إلى اكتشاف أسرار هذا الكون، والوقوف على سنن الله التي بناه عليها، وسيَّره بمقتضاها، على صعيد الإنسان والحيوان والجماد، وفي البر والبحر والجو.

وإذا كان فقه هذه النصوص وتدبرها لازماً للوصول إلى هدايتها والعمل بها: فكل أولئك المؤتمنين على مصادر القوة، وموارد الثروة البشرية منها والاقتصادية ـ وبخاصة من وكل إليهم بناء الأجيال، وتحديد الفهومات في شؤون الحياة، وإرساء قواعد التفكير، ورسم خطط المواجهة للخروج بالأمة من ضيق السيطرة والقهر إلى سعة العزة والكرامة والتمكين ـ كل هؤلاء ومن لفَّ لفَّهم مسؤولون أمام الله ثم أمام

التاريخ وأجياله أن يجعلوا من الحقائق القرآنية التي تزخربها النصوص وتدل عليها معالم الخير والهدى نبراس هداية للأمة؛ يحدد بمنهجية علاقة الإنسان بالكون. ويدفع إلى ترجمة هذه العلاقة إلى حركة دائبة على صعيد العلم، وتوسيع آفاق المعرفة المنتجة لما به الإسهام في قوة الأمة وتحقيق وجودها الذاتي بالإسلام، وحشد ما يجب حشده من إمكانات بشرية ومادية لذلك.

ولهذا الاتجاه ـ مع ما فيه من مرضاة اللّه عز وجل والعمل بنصوص الهداية ـ آثاره الطيبة المكينة في البنية الحضارية للأمة، والارتفاع بها عن أن تظل حبيسة التقليد البارد للآخرين، وأن تحقق ذلك بوضع طاقات أبنائها ومواهبهم، وقدرتها الاقتصادية والاستراتيجية والفكرية، مكانها اللائق في ميادين البناء الموجه للحياة، والعودة بالبشرية إلى الحضارة المثلى حضارة الإسلام التي لا تشكو عرجاً ولا تناقضاً ولا أي لون من ألوان المرض الذي تشكو منه حضارة اليوم.

* * *

البناء وقضية التسخير

«٥»

ألقينا عصا التسيار فيما سبق من القول عند آيات كريمات من سورة «النحل» المكية ورأينا من عطائها على ساحة التسخير ما جعلنا نؤمن بضرورة أن تأخذ دلالتها ودلالة أمثالها ـ وهي كثيرة في الفرقان الحكيم ـ على أهمية العلوم العملية في الوصول إلى حقيقة هذه النعماء التي هي فضل من اللّه على عباده وإحسان.. أن تأخذ هذه الدلالة مكانها الملائم عند المسلم على صعيد العلم والمنهجية في رؤية آيات اللّه الذي له الخلق والأمر ـ في الآفاق وفي الأنفس كما شاء سبحانه بأصالة ترتفع بالأمة عن وهدة التقليد البليد والاقتصار على فتات الآخرين، وتشفيها من الانهزام النفسي الذي يزيّن الكسل والخنوع، ويصرف الطاقات الفاعلة إلى حيث تكون عبئاً على أصحابها وعلى الأمة بدل أن تكون عنصراً جوهرياً من عناصر اليقظة واستئناف مسيرة الخير التي قادها صانعو تاريخنا تحت راية الإسلام الذي ابتدأ ربنا تبارك وتعالى وحيه به إلى نبينا محمد عليه الصلاة بكلمة «اقرأ».

ونقف عند سورة «الحج» وهي سورة مدنية، لنقرأ ـ واللام هنا للعاقبة ـ في الآية الخامسة والستين قول اللّه جل وعلا: ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴿٦٥﴾ ﴾ [لحج: ٦٥].

فمن الواضح أن التسخير الذي حملت الآية الكريمة التذكير به ليؤمن الكافر، ويزداد المؤمن إيماناً، قد شمل البر والبحر والجو.

وكم هو معجز حقاً. وبرهان قاطع صدقاً على أن هذا الكلام كلام اللّه: أن يذكر القرآن المنزل على النبي الأمي هذه الأمور، والناس في متنزل الوحي ـ كلُّهم أو جلُّهم ـ لا يعرفون عن البحر إلا القليل، وأين منهم أية دراسة تتعلق بالجو، تولِّد شيئاً من المعرفة مهما تضاءل حجمها!!

غير أن العلم قد خطا ـ فيما بعد ـ وبخاصة في العصور الأخيرة، خطوات وقفت الإنسان على كثير من مظاهر قدرة اللّه في تلك الآفاق. والقافلةُ تسير! ومكّنت منجزاته البشر من كثير من خيرات هذا الخلق العظيم في شتى المجالات.

ويا ويل أهل النار ذوي العناوين العريضة الذين همهم السيطرة وقهر الآخرين باسم الحرية وحقوق الإنسان: أولئك الذين وضعوا ويضعون منجزات العلم على صور تقلب النعم نقماً والعياذ باللّه!

أجل لقد سخروا العلم والعلماء لأهوائهم وتحقيق أطماعهم في السيطرة وإحكام التضييق على أهل الحق، ولو كان في ذلك الدمار والخراب، وانتهاك حرمات الإنسان، والعدوان حتى على أبسط قواعد الأخلاق والتعامل بين الناس، ولا تسل عما يعينهم عليه شياطين الإنس والجن من التناقض في التعامل وفقاً للهوى والرغبة في تحقيق ما يهدفون إليه من السيطرة والسلطان!! فالمحرَّم ـ في نظرهم ـ هنا: حلال هناك، والحلال هنا: محرَّم هناك... ولله عاقبة الأمور.

على أن هذا كله لا يصلح مسوغاً لأن تحيد أمة الإسلام عن الحق، وإن كان واجبها أن تُعدَّ المستطاع من القوة، وتضع الأخلاق والمواجهة بالقوة كلاً في موضعه الملائم.

فما أحسن أن تزيح أمتنا الركام، وتعمل على النهوض من عثار، وتتيح لأبنائها العلماء الموهوبين القادرين: أن يأخذوا مكانهم الطبيعي في المجتمع، وتستخدم ما يقدمونه من منجزات علمية ـ وهي خير أمة أخرجت للناس ـ في البناء السليم الذي يعود على الإنسانية بالخير، وينمي عوامل الطمأنينة والاستقرار.

وفي متابعة للمحور الذي يدور حوله الحديث: نقرأ في سورة «العنكبوت» ـ وهي سورة مكية ـ تأنيباً من اللّه تعالى للمشركين في عبادتهم غيره سبحانه، مع اعترافهم بأنه هو الذي خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر وغير ذلك؛ ذلك في قوله جل شأنه: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ

﴿لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٦١ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٦٢ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ ۝٦٣﴾ [العنكبوت: ٦١-٦٣] فأنى يؤفكون: أي فأنى يُصرفون عن توحيده بعد إقرارهم بذلك.

أرأيت إلى هذا الوضوح في إقامة الحجة، وعظم استخدام الواقع في الاستدلال على فساد ما عليه المشركون وبُعدهم عن حكم العقل السليم والتمرغ في حمأة التناقض المردي؟!

أجل إنه لجنوح هابط عن الحق الأبلج، وتناقض لا يكاد يلحق به تناقض آخر، إلا أن يكون مثله أو أسوأ منه. وأين من ذلك بناء الإنسان على عقيدة الفطرة، والنهج الذي يوائم العقل المبرء من غشاوات الجاهلية وما يثقلها من تناقضات! وتنمية وجوده الذاتي المطمئن بتلك العقيدة؟!

وتحملنا الرحلة المباركة إلى سورة «لقمان» المدنية، لنقرأ فيها قول الله جلَّ وعز: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ۝٢٠﴾ [لقمان: ٢٠].

وهذا الذي ختمت به الآية الكريمة من ذم أولئك الذين يجادلون في وجود الله بغير علم ولا هدىً ولا كتاب منير. يعزز ما سبق بيانه من قبل، من أن الوصول إلى حقيقة التسخير وصورته العملية بمقدماتها العلمية المنضبطة، وما يترتب عليها من نتائج: هو رهن العلم الذي يتجاوز النظرة العادية إلى ما هو وراء ذلك من الملاحظة والتجربة ورصد كل ما يجب رصده ومقدار التأثر والتأثير... وكل ما له علاقة بسلامة الطريق المسلوكة للوصول إلى الحقيقة في نظر العلماء المتمرسين.

صحيح أن المشركين عموماً ـ وفيهم هؤلاء الذين كان صنيعُهم سببَ النزول ـ لن يكون لديهم أو لدى من يكون وراءهم علم يقيم الدليل على عدم وجود الله لأنه لا علم بذلك. وتعبير ﴿يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ لا يعني أن هنالك من يجادل في الله

بعلم، بل هو تعبير عن واقعه، وحاشا لله أن يكون هناك أي دليل على نفي هذه اليقينية التي هي كبرى اليقينيات... صحيح أن هذا غير كائن أصلاً، ولكن التنصيص على العلم والهدى والكتاب المنير في هذا المقام: يضفي على قضية التسخير وعلاقة الإنسان بالكون لوناً من ألوان الدعوة الحية القائمة المتجددة حتى يرث اللّه الأرض ومن عليها.. إلى أن تأخذ العلوم العملية وجودها المرتبط بالإيمان في استئناف بنائنا الحضاري اليوم كما أخذته في الماضي؛ فضلاً على أن تحصيل هذه العلوم أصبح من البدهيات على صعيد بناء القوة الذاتية لحماية الدعوة ونصرة الحق ودرء العدوان عن المسلمين وديارهم؛ فهو لون من ألوان الإعداد الذي لا يستغنى عنه، ولا يستهان به، بل يكاد يكون هو السلاح الأمثل في العصر الحديث، وإغماض العين عن ذلك إهمال لواجب حتمي دعيت الأمة دعوة جازمة إليه بقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ وهذا ما يسوء أعداء اللّه وأدعياء حرية الشعوب.

* * *

البناء.. والواقع.. والتسخير..والشباب

«٦»

من عظمة هذا القرآن الحكيم: أنك كلما أمعنت النظر في آيه العظام، وسلكت سبيل المتدبرين، مستهدياً بمعالمه النيِّرة الخيِّرة: وقفتَ على عطاء كبير، وازداد يقينك بأن كلاماً يزينه هذا العطاء المتجدد الذي لا ينفد، حاشا أن يكون من عند البشر، ولكنه كلام رب العالمين، أنزله وحياً على خاتم رسله النبي الأمي محمد بن عبد اللّه عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، وكلمات اللّه لا تنفد... ألم تر إلى قوله تعالى في سورة الكهف: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (١٠٩)﴾ [الكهف: ١٠٩] وقوله ـ جل شأنه ـ في سورة لقمان: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٧)﴾ [لقمان:٢٧].

وفيما أشرقت به الكلمات الهاديات، وأسعدنا فيما سبق من القول اصطحابه من هداية المعالم القرآنية بشأن العلاقة بين الإنسان والكون، وما يمكن أن تصنعه نعمة التسخير على صعيد العلم وإعداد القوة المستطاعة: إيذانٌ بما ينتظر شبابنا من واجب محتوم على هذا الصعيد.

يلمح المسلم هذا الإيذان وهو ينظر إلى واقع تعيشه أمتنا اليوم، يتسم بقدر لا بأس به من الجدية في عملية التحويل إلى ما هو أفضل، والحرص على التخلص من وطأة التخلف عن اللحاق بركب الأقوياء ـ وهو تخلف لا مجال للخوض في أسبابه هنا ـ الأقوياء الذين أعماهم حب السيطرة والسلطان من أي طريق وبأية وسيلة؛ فلا يرعون للإنسان ـ خارج حدودهم الجغرافية أو النفسية ـ حرمة، ولا يرقبون في

المسلمين إلاَّ ولا ذمة. إنهم جبابرة هذا العصر الذين لا ينقمون منا إلا أننا أبناء عقيدة الإسلام والمنتمون إلى تاريخ الإسلام، التاريخ الذي لا يملُّون عضَّه والبعدَ عن الإنصاف فيه. ولهم ما لهم من الأعوان والتابعين من بني جلدتنا.

ولما كان الأمر كذلك: كان مما يحرصون عليه ـ لكيلا نكون على مستوى الدفاع عن النفس ـ أن تظل الجسور منقطعة بيننا وبين العلم الذي يسهم إسهاماً عظيماً في إتاحة الفرصة لتوافر السلاح والقوة؛ كل أولئك كيما نظل في الوهدة خانعين، وعلى أعقابهم ممرغين بالذلة خاضعين.

ونظرة واحدة يصحبها شيء من الوعي إلى مواقف أعداء الإسلام من أي بادرة تشعر بأننا قد نشب عن الطوق، ونحكم كسر القيد، الأمر الذي يؤذن بالخطوة المبصرة على طريق البناء الذاتي، والتخلي عن استرخاء التبعية والضعف، على اختلاف في النسب ونوعية المرحلة والواقع الجغرافي والاقتصادي والسياسي بالنسبة إليهم.

أقول: نظرة واحدة إلى تلك المواقف أو بعضها ـ على الأقل ـ جديرة أن توقظ شبابنا من سبات، وتشدهم إلى مزيدٍ من سلامة التصور، والأخذ بمنهج الإسلام في تفسير التاريخ، وتعليل الواقع، وربط النتائج المرعبة التي نواجه بها، بالمقدمات التي نحن ـ أو أكثرنا ـ عنها غافلون. ناهيك عما يهدينا إليه في الفكر والمنهج.

وهي جديرة في الوقت نفسه أن توقظ الهمم والعزائم لتخطي الصعاب، وإعطاء قدر أكبر من الاهتمام لتحصيل كل لون من ألوان المعرفة من شأنه أن يسهم في عملية التغيير التي يريدها الإسلام، كيما يعطي التمخض في العالم الإسلامي بعون اللّه ـ وإن كانت الفتن تدق أبوابنا صباحَ مساء ـ ما يشعر بتحول الخط البياني عن مساره المؤذي، خصوصاً وأن الناظر إلى ـ المسار بشيء من التدبر وسلامة التحليل للأحداث يلمح في الأفق تباشير تحول جديد إن شاء اللّه، يباعد بين أمتنا وبين

الانهزام النفسي، ويشعر أبناءها بالاعتزاز النابع من الوعي الإيماني والإدراك. ولا يخفى ما في ذلك من تنمية مخزون من الطاقات المادية والمعنوية يمكن أن تكون في خدمة المعركة الفاصلة وهي قادمة.

وهل يخفى على ذي بصيرة يشرف بحمل هموم الأمة: أن من سلامة التصور والتزام منهج الإسلام في التفكير ـ حيث ينتفي الفصل بين الإيمان ومقتضياته وبين السلوك ـ: أن يكون ما يعطيه تسخير اللّه ما في السماوات وما في الأرض للإنسان، وما تقوم عليه طبيعة العلاقة بين الإنسان والكون في القرآن: حافزاً عظيماً يشحذ الهمم ويجند الطاقات التي قوامها ـ بعد الإيمان والتقوى ـ العلم والإفادة من فضل اللّه في إنعامه بالتسخير.

وذلكم مؤشر الجدية في إحكام البناء، وعنوان صدق العزيمة في العملية التنموية على كل صعيد وفي كل ميدان.

وذلك ما يرهبه الأعداء ويجدون فيه نذير استئناف أمتنا للمسيرة القيادية في العالمين، وهذا في نظرهم ليس من حق هذه الأمة؛ فكل شيء مما له علاقة بالحياة الغنيَّة بالتميز واستقلالية المنهج: مباح لغيرنا محرَّم علينا.

أو لا يرى الواعون من أبناء الأمة المحمدية التي قلب الدهر لها ظهر المحن، وأصبح أعداء اللّه المغضوب عليهم والضالون يهددونها في عقر دارها، كيف يكون العبث بالمصطلحات والتعريفات؟ فمن التعامل الحضاري المقبول أن يعتدى علينا تحت سمع الدنيا وبصرها ولا ضير، ومن غير المقبول أن نحاول الدفاع عن أنفسنا لأن ذلك تعامل غير حضاري وهل من حاجة لنؤكد هذا الذي نقول؟! فالمقبول عندهم أن يعتدى علينا في أرضنا وفكرنا ووجودنا الذاتي في دنيا الناس تحت سمع الأقوياء وبصرهم ولا ضير. ومن غير المقبول جملة وتفصيلاً أن ترتفع أصواتنا بالعتب والنقد غير اللاذع فضلاً عن محاولة الدفاع عن أنفسنا ورد عدوان المعتدي وأذى الغاصب، لأن ذلك نوع من التعامل

الذي يعوزه الذوق الحضاري؛ فمن الحضارة أن يضربك ويهينك المعتدي الأفاك الأثيم، وليس من الحضارة في شيء أن تتململ تحت ضرباته أو تتبرَّم من سوء ما يجترحه من سلوك تُمتَدَحُ بهِ شريعة الغاب!!

وهل هذا الضجيج الذي لا ينتهي من حول «باكستان» المسلمة تنديداً بمحاولة امتلاكها القنبلة الذرية ـ مع ما يحيط بها من الظروف السيئة والمخاطر ـ إلا لون من ألوان هذا العبث العابث في أواخر القرن العشرين؟ لأن هذا الضجيج المقترن بالوعيد المجنَّح من هنا وهناك، لا وجود له بالنسبة للجارة الكبرى أو لليهود، بل هناك مع التجاهل ما يشعر بالرضا، وإن شئت فقل بالمعاونة على الأذى ومظاهرة هؤلاء على المسلمين.

وبعد: فإنا إذ نذكر قول شاعرنا:

أَحـــــــرام على بلابله الدَّوْ ح حلال للطير من كل جنس ـ؟

نعود إلى التذكير بأن السلوك الإيجابي القائم ـ بعد الإيمان ـ على العلم والانتفاع بتسخير اللّه ما سخر في كونه العريض، والسير في الطريق التي تمكِّن ـ بعون اللّه ـ من إعداد القوة المستطاعة ـ كما أمر اللّه ـ هو المعتصم المرضي نه، ونصر اللّه آت لا محالة إن نحن نصرناه بتقواه والعمل بهداه. وسنن اللّه في القوة والضعف، والنصر والهزيمة، هي السنن الحكيمة التي لا تتخلف، ولن تجد لسنة اللّه تبديلاً.

* * *

مع البناء.. وثمرات التسخير

«٧»

في استئناف لرحلتنا مع الآيات التي تذكّر بقدرة فاطر السماوات والأرض جل وعلا وما سخر لعباده من هذا الخلق العظيم، وما أعطاهم من مفاتيح النعماء والفضل في ذلك: يجدر استذكار ما رأينا من قريب من قوله تعالى في سورة «لقمان»: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ [لقمان: ٢٠].

وهو استذكار يعيدنا إلى ما تشعر به الآية على سلَّم الهداية من مقام العلم وامكاناته في بناء الحياة الإسلامية. وضرورة الاستجابة لمبتغى العقل بإقامة الدليل على ما يُدَّعى، الأمر الذي يهدي إلى حقيقة غاية في الوضوح وهي أنه ليس في دين الإسلام: آمِنْ وأنت أعمى، ولكن في دين الإسلام أخذ الفطرة التي فطر اللّه الناس عليها بعين الاعتبار، مصحوباً ذلك بتقديم البرهان على كل قضية من القضايا المطروحة على ساحة الإيمان؛ لأن كلاً من الفطرة والعقل في هذا الدين الذي رضيه اللّه لعباده ـ كما تدل معالم الكتاب العزيزـ بحسبان.

وحين يستمسك المؤمن بأهداب العلوم العملية التي يقف معها على شيء من أسرار الكون وتسخير ما سخر اللّه منه لعباده، وينتقل من النعمة العظيمة، إلى المنعم القادر الحكيم الذي له الخلق والأمر، والذي قدَّر فهدى، فيزداد يقيناً بوجوده وبالغ حكمته جل وعلا: يكون مستحوذاً على الخير من أطرافه بلا ريب.

وما عليه ـ وراء ذلك ـ إلا أن يأخذ نفسه بمقتضى الإيمان وشكر المنعم، فيكون اللبنة الصالحة في مجتمع تتصل جذوره بالإيمان، وتشرق في جنباته طاعة اللّه في إحكامٍ للبناء علماً وعملاً وسلوكاً: الأمر الذي يضمن ـ بعون اللّه ـ خيرية المنهج وخيرية الاستمرار على صراط اللّه القويم باستنارة عقل وحضور قلب.

ولقد تأكد هذا العطاء المومى إليه والذي أشرق به المعلم القرآني في سورة «لقمان» بذم أولئك الذين لا يستضيئون بنور العقل، ولا يأخذون طريقهم إلى العلم الذي يفتح لهم أبواب الهدى، ويدلهم على أن الذي خلق الخلق بقدرته وسخر ما في السماوات وما في الأرض لبني الإنسان: هو الجدير بالعبادة والاستعانة والدعاء، وكل ما هو من ذلك بسبب. بل يجنحون إلى ولوج باب من أبواب الشيطان ينفذ بهم إلى عذاب السعير؛ ذلكم هو التقليد الأعمى للآباء والأجداد الذين وافتهم آجالهم وهم يتمرغون في أوحال الضلالة مهملين النظر بعقولهم، عاكفين على كسلهم الفكري والنفسي، وما ذاقوا للهداية طعماً ولا تزحزحوا عن هذا التخلف المردي قيد أنملة؛ فهم في تصوراتهم واعتقاداتهم وسلوكهم بجانب، والعلمُ والهدى والكتاب المنير بجانب.

وهذا ما دلَّ عيه أوضح الدلالة قوله جل وعز في أعقاب الآية السابقة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾ [لقمان: ٢١].

ونظير ذلك ما جاء في سورة البقرة من تنديد بالإعراض عن الاستجابة للدعوة إلى ما أنزل اللّه، والإقامة على ما ألفى الجاهليون عليه آباءهم، والكشف عن أن صنيعهم هذا عدوان على التعقل والتماس الهدى؛ لأنهم يخوّضون في حمأة هذا اللون من التقليد ولو كان الذين يقلدونهم لا يعقلون شيئاً من أمر الدين الذي فيه ذكرهم في الدنيا ومنجاتهم من عذاب اللّه في الآخرة ولا يهتدون إلى الحق.

وما جاء في سورة البقرة هو قول اللّه تباركت أسماؤه: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [البقرة: ١٧٠] الهمزة للإنكار أي أيتبعونهم بعبادة الأوثان والأخذ بأعراف جاهلية

تتناقض مع العقل السليم، ولو كان هؤلاء الآباء لا يعقلون شيئاً من أمر الدين القائمة أصوله على الأدلة والبراهين القاطعة ولا يهتدون إلى الحق الذي يُفترضُ أن ينشده العقلاء؟!

ونقف في سورة «لقمان» على آية أخرى ـ والقرآن كله حق ونور ـ تفتح لنا أفقاً جديداً نبصر من خلاله ما يعطيه القرآن من أهمية لتوظيف المعرفة والإفادة مما سخر اللّه في السماوات والأرض على طريق العمل المجدي، والبناء الذي يتساوق مع الإيمان؛ تلك هي قول اللّه سبحانه: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ [لقمان: ٢٩].

إذن هنالك العمل الذي يعني التحرك على هدى في الحياة، وهنالك المسؤولية عن هذا العمل وعن حقيقته؛ ما إذا ما كان على هدي قاصد، أو كان بعشوائية تسيرها فوضى التقليد الأعمى للآباء والأجداد.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أرأيت إلى هذه الكلمات النيرات التي ختمت بها الآية: فيها الوعد وفيها الوعيد؛ فلينظر المؤمن ماذا هو صانع على ساحة الاستجابة وما يصحب ذلك من مسؤولية لا يغني غَناء أخذها بجدية وحزم وإخلاص لله شيء.

ويستوقفك ما تلا هذه الآية من الكلمات الهاديات التي أشعرت بالجزم بما هو حق وما هو باطل على هذه الساحة، وذكَّرت بأن اللّه هو الحق وأنه العلي الكبير. وهو أهل لأن يوحَّد ويعبد لا شريك له. ذلكم قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [لقمان: ٣٠-٣١].

وبعد: فإن الحضارة التي بنتها معالم القرآن الكريم بسواعد المؤمنين وعقولهم، ليست جَعبة من العواطف والتهويمات التي لا تليق بخطاب العقلاء، ولكنها حقائق تلمس آثارها في البناء الفكري، والاقتصادي والاجتماعي والتشريعي على وجه

العموم، والسمة الإنسانية في هذا كله لا تخفى على منصف يدخل البيوت من أبوابها؛ فيطلع ويفقه الحقائق وما ترمي إليه، ولا يرضى من العلم بالإسلام بمن يقول: قيل كذا، وسمعنا كذا..!!

من هنا يمكن القول بأن الأمة حين تنطلق اليوم لخوض معركة البناء والنماء، لا تنطلق من فراغ، ولكنها تنطلق من رسالة ربانية وتاريخ؛ هذا بالإضافة إلى ما حباها الله من إمكانيات بشرية ومادية وموقع جغرافي في هذه المعمورة.

وإحكام الصلة بالعطاء القرآني وبيان هذا القرآن من حديث رسول الله عليه الصلاة والسلام وهديه، في بناء الإنسان والمجتمع والدولة، وبمسيرتنا الحضارية عبر التاريخ وسِيَر صانعيه الحقيقيين: أعون على الخطوة الثابتة الملتزمة المعبرة عن قوة الاندفاع وصدق العزيمة، وعلى ترجمة علاقة الإنسان بالكون، ترجمةً تأخذ بأسباب العلم، وتنمي ثمرات الانتفاع بما سخر الله وذلَّل، وتضع النعم مواضعها المرضية لله عز وجل المعبِّرة عن شكره سبحانه على آلائه التي لا تحصى... وسبحانه هو المحمود على كل حال.

* * *

المسلم.. ورحلة البناء

إن مما يميز رحلة البناء في حياة المسلم ـ على تنوع ميادينها وتوزع شعبها ـ أنها رحة لا تهمل الإنسان، بل تكرمه وتعلي من شأنه، ولا تُسف إلى غايات هابطة تسلك إليها وسائل من جنسها، ولكنها رحلة تهدف إلى تحقيق أنبل الغايات وأكرم المقاصد، وتسلك إليها أفضل ما يلائم ذلك من الوسائل..

وإنما جاء ذلك من ارتباط حركة المسلم في البناء وتنمية الطاقات الفاعلة المبدعة: بهداية القرآن التي تشرق بها معالمه على اختلاف الموضوعات وتنوع الأساليب.

والحيدة عن ذلك إيذان بالانحراف عن الجادة، وهو انحراف تكشفه سلامة المنطلق القرآني الذي يرتفع بالغاية والوسيلة جميعاً.

ولعل فيما سبق من القول عند الكلام على الهداية الربانية في بناء المسلم وتكوين ما يضمن سلامة هذا البناء كيما يحقق الغاية المرتجاة في ظل رسالة الإسلام: ما يقر ويؤكد هذا الذي نقول.

حسبك من ذلك أن طبيعة العلاقة بين الإنسان والكون الذي برأه اللّه وسيره على سنن حكيمة لا تتخلف إلاّ بإرادته، وما كشفت الآيات من أن اللّه تعالى هو الذي سخر للبشر ما في السماوات وما في الأرض براً وبحراً وجواً.. حسبك أن ذلك كله يشد المسلم ـ كما سبق ـ إلى الأخذ بأسباب العلم الذي يقفه على أسرار الموجودات، ويحمل إليه معطيات التسخير؛ في ظل عبودية خاشعة لله الذي بيده ملكوت السماوات والأرض وله الخلق والأمر، لا يُسألُ عما يفعل وهم يسألون.﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر: ٢٨].

فأجدر بهذه الحقائق أن ترتفع بالمسلم ـ وقد استنار عقله وصفا قلبه ـ إلى حيث اليقظةُ التامة حين يأخذ وحين يذر، وإلى حيث الحرصُ على سلامة كل من الغاية والوسيلة دون وكس ولا شطط. يصحب ذلك وضع النعم في مرضاة المنعم ـ سبحانه ـ لا في معصيته والعدوان على الحق وكرامة الإنسان.

وتلك ـ بلا ريب ـ ضمانة أن لا يكون البناء ركاماً يُركَمُ بضعه فوق بعض ولكن لبنة مكينة تؤاخيها لبنة مثلها أو خير منها في تساوق بين الخُطا، وتنمية لعوامل الارتباط السليم بين الوسيلة والغاية.

وأعلام الإسلام في شتى العلوم الإنسانية والعملية، بل يمكن القول بأن كل أولئك الذين كانوا عماد حضارة الإسلام وصناعها: من أبطال فاتحين، وحكام عادلين، وعلماء عاملين ومجاهدين صادقين، وزهاد صادعين بالحق سالكين.. وغيرهم وغيرهم: صورة حية تعكس عمل الخلية الإسلامية في بناء المجتمع، وتميط اللثام عن أن تنمية معطيات العلم، لم تقتصر على جانب دون جانب؛ لما أن ذلك كله يرتد إلى العطاء الإلهي في تسخير ما سخر سبحانه للإنسان الذي خلقه في أحسن تقويم وعلمه البيان، وإقامة الكون بكل ما فيه ومن فيه على سنن هي الحكمة البالغة بعينها، وهي الكمال المطلق الذي يشير إليه قوله تعالى في سورة الملك: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الملك: ١-٤].

التفاوت: التباين وعدم التناسب ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ﴾ أعده إلى السماء. والفطور: الشقوق. ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ كرَّة بعد كرَّة. ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا﴾ ذليلاً لعدم إدراك خلل ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ منقطع عن رؤية خلل.

سبحان الخالق الحكيم. هذا الذي وجهت إليه الآيات البينات، والحقائق التي زخرت بها تلك الآيات، يحمل في طياته الإرشاد الرباني إلى العلم، العلم الذي به يتحقق المراد من الهدي المقصود. وكلما ازداد علم المؤمن المتعلق بهذه القضايا الكونية الكبرى: ازداد يقيناً بوجود اللّه وحكمته وأنه ـ سبحانه ـ متصف بصفات الكمال كافة، منزه عن أي صفة من صفات النقص؛ فكمال هذا الخلق وانتفاء أي تفاوت مهما صغر عنه، يدل أعظم الدلالة على كمال الصانع جل شأنه الذي خلق وبرأ وصوَّر.

ولنتجاوز الحديث إلى آيات أخر تأخذ مكانها المشرق بالهداية على هذا المحور، قد يكون فيما وصل إليه العلم الحديث استجلاء لبعض أبعادها ودلالاتها هي ونظائرها ولا نزعم اليقين. قال اللّه تعالى في سورة فاطر: ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾﴾ [فاطر: ١٢-١٣] القطمير: لفافة النوى.

وفي سورة الزمر نقرأ قوله جل وعز: ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾﴾ [الزمر: ٥-٦].

أرأيت إلى ما ختمت به الآية الأخيرة بعد هذا البيان المعجز في التذكير بعدد من آيات اللّه العظام في الكون وفي خلق الإنسان. لقد ختمت بما يدعو إلى عدم الوقوع فيما يناقض النظر المتبصر وحكم العقل السليم ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ أي: فأنى تصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره وهو ربكم الخالق الحكيم الذي له الملك لا إله إلا هو؟

وفي خاتمة المطاف: هل لي أن أقول: إن فجراً جديداً في سماء الأجيال المسلمة يبدد الظلمات ويضيء المسالك: رهن تعامل جديد بين الأمة وبين القرآن الذي به كان وجودها القيادي المؤثر، وكانت بهدايته خيرَ أمة أخرجت للناس.

وصيغة التعامل الجديدة التي سَداها ولحُمتها ـ بعد العلم ـ صدق التجرد لتلقف هدايته، وصدق العزيمة في العمل بتلك الهداية على مختلف الأصعدة والميادين، مصحوباً ذلك بعناية فائقة ببيانه من سنة المصطفى عليه الصلاة والسلام.. هذه الصيغة المباركة هي مناط البناء الحقيقي على طريق يلتمس فيه أبناؤها استئناف المسيرة الإسلامية الخيِّرة بغية الخروج من ظلام التبعية والتقليد العشوائي للأقوياء الذين تستعصي ألوان إيذائهم ومكرهم بأمتنا، ومظاهرة الباطل على حقها في الحياة الكريمة على العد، فهل من صحوة على صوت النذير؟!

إن هذه الصحوة طريقها التربية القرآنية الواعية التي تثمر علماء يجمعون إلى المعرفة واستنارة العقل، استنارة القلب وضياء النفس، الأمر الذي يجعلهم على حال من الخشية من الله تزيد الإيمان وتبعث على متابعة التحصيل بدقة وأمانة، والتطلُّع الدائب إلى مرضاة الله تعالى في كل ما يأخذ العالم ويذر، وهذا عام في جميع ألوان المعرفة التي تحتاج إليها الأمة في بناء كيانها الحضاري مع أسس تجمع بين الدنيا والآخرة. ولنتذكر في هذا المضمار قول الله تعالى في سورة فاطر: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ [فاطر: ٢٧-٢٨].

* * *

صورة من شمول عملية البناء.. السفهاء والمال

«١»

العموم الذي جرى التنبيه عليه فيما سبق من وقفات مع المعلم القرآني في الآية الخامسة من سورة النساء، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾﴾[النساء: ٥] هذا العموم، دلَّ على أن أموال السفهاء ـ وهم أولئك الذين لا يحسنون التدبير ويسيئون التصرف في المال ويفسدونه ـ داخلة تحت قوله تعالى:﴿ أَمْوَالَكُمُ﴾ فكأن اللّه جل ثناؤه يقول: ولا تؤتوا السفهاء أموالكم ولا أموالهم.

وانظر إلى هذه الرائعة من روائع العطاء القرآني في معالمه الهادية؛ هذا الإنسان الذي كسب المال بكدِّه وجهده، أو جاءه هذا المال من طريق أخرى مشروعة كالأرث والهبة وغير ذلك: عندما لم يكن أهلاً للتصرف بسبب طيشه وسوء تدبيره، حكم الشرع المطَهَّر بالحجر عليه لأنه سفيه في هذه الحال، وبرفع يده عن ماله هو حفاظاً على هذه الثروة، ويتولى الإنفاقَ عليه بالقدر المطلوب مصحوباً بذلك بالقول المعروف: من رضيه الشارع وصياً عليه، ريثما يزول عنه السفه، فيصبح أهلاً لحسن التصرف في ماله، ويُعاد إليه هذا المال. ذلكم قول اللّه تبارك وتعالى في ختام الآية الموعى إليها: ﴿ وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾.

إنها حكمة الحكيم سبحانه، ربُّنا الذي هو أعلم بما يصلح عباده، حيث التوجيه إلى النظرة الواقعية إلى المال ـ بصرف النظر عمن هو في ملكه ـ وإلى وظيفة هذا المال في حياة الفرد وبنية المجتمع، والكشف عن أثره في إحكام هذه البنية ـ والفرد

المتمتع بالأمن من الجوع والخوف هو اللبنة الأساسية فيه ـ وتنمية طاقات هذا المجتمع الذاتية بشرية كانت أو اقتصادية، أو اجتماعية، أو فكرية.. كيما يكون قدراً على مواجهة الحياة بالوسائل التي لا بد منها في كل عصر ومصر؛ وغني عن البيان أن الاقتصاد السليم عنصر فعَّال ومؤثر من عناصر هذه المواجهة.

وهكذا استنبط علماؤنا حُكم الحجر على السفهاء من هذه الآية؛ فاللّه تعالى نهى ـ والخطاب للجماعة ـ عن أن يؤتى هؤلاء السفهاء أموالهم لكيلا يفرطوا فيها ويضيعوها، وأعطى الجماعة ـ ممثلة في السلطة الحاكمة بما أنزل اللّه في المجتمع المسلم ـ حقَّ نصب الوصي على السفيه، الذي يتولَّى الإنفاق المشروع عليه من ماله ـ كما أسلفنا ـ ومعاونته بالتوجيه المثمر والكلمة الطيبة، كيما يعود إلى الجادَّة، ويصبح أهلاً لأن يعاد إليه ما بقي من ماله بعد الإنفاق.

ومهما يكن من أمر: فالذي تجدر الإشارة إليه: أن الحجر تارة يكون لصغر السن؛ فإن الصغيرـ كما يقول أهل العلم ـ مسلوب العبارة، وتارة يكون الحجر للجنون، وتارة يكون لسوء التصرف، لنقص في أهلية التدبير، أو العقل، أو الدين، كما أنه يكون تارة للفَلَسِ، وهو ما إذاما أحاطت الديون بامرىء وضاق ماله عن وفائها؛ فإذا سأل الغرماءُ الحاكم الحجر على هذا المفلس، حُجِر عليه.

وفي كل ذلك ـ كما ترى ـ تقدير لنعمة المال، وحراسة لها من الضياع؛ إذ حتى صاحب المال ليس حراً في أن يسيء التصرف، ويضع هذا المال في بُحران الضياع.

هذا: والحرص على تنمية المال، والبعدِ به عن سوء التصرف والإضاعة ـ مادياً أو معنوياً ـ لا يعني ـ كما سبقت الإشارة آنفاً ـ إهمال الإنسان. والعملِ على مداواته من النقص الملمِّ به، ثم تنمية إمكاناته العقلية وحوافزه الخلقية التي تجعله أهلاً لأن يعادَ إليه ماله، ويكونَ بذلك فرداً صالحاً في المجتمع، يسهم ـ على بصيرة ـ في تنميته وإحكام بنائه.

وهذه القضية جلية واضحة في المعلم القرآني، حيث يدل نص الآية الكريمة على التكامل في شرعة الحكيم الخبير جلَّ شأنه وتباركت أسماؤه.

فالحجر قائم على السفهاء، لا يمكَّنون من مالهم ولا من مال غيرهم ـ بالأولى ـ، وفي الوقت نفسه نرى الأمر الإلهي ﴿ وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا﴾.

ألا إن الحياة الكريمة التي تُشعر الإنسان بإنسانيته وكرامته وحريته، ركيزة على غاية الأهمية في شريعة الإسلام، والحرصُ عليها مَعْلَمٌ أوَّليٌّ بارز من معالم حضارة الإسلام، ومعاونة هذه الزمرة من الناس بالحفاظ على أموالهم، وإسداء النصح والتوجيه لهم بالقول المعروف، والأسلوب الحكيم: واجب على الجماعة؛ وفي ذلك ما فيه من الإسهام الحكيم المنتج في علاجهم، وشدهم بإنسانية ورفق إلى طريق الصلاح والإصلاح؛ ذلك بأن هذا السفيه يحتاجُ إلى المعاونة والمداواة بالطريقة التي توصل إلى الغرض المنشود ـ كما جرت الإشارة من قبل ـ وليس مجرماً يعامل بالعقوبة معاملة المجرمين.

إنه بناء الإنسان الصالح، والمجتمع المستنير المتكامل من كل الوجوه والجوانب، والتنميةُ الشاملة التي لا تعول ولا تجور؛ على نهج لا يعوزه ـ مع إبعاد المال عن سوق الضياع والتبذير ـ الحرص على إنسانية الإنسان، وإعدادِه إعداداً يشعره بكرامته وإنسانيته، وقدرته على العطاء في ظل ما رزق من ثروة، وما وهبه الله من إمكانات وطاقات، والحمد لله رب العالمين.

* * *

صورة من شمول عملية البناء

«٢»

إن التطور الذي دخل على مجتمعاتنا اليوم، وما نرى من تنوُّع وجوه الإنفاق، وفق المتطلبات المتجددة، والآفاق المتسعة هنا وهناك! وموقع الاقتصاد في حياة الأمة على صعيد المواجهة لتحديات العصر، ناهيك عن إسهامه الفعَّال في جوانب حياتها العلمية والسياسية والاجتماعية، وتكوين القدرة على تحرير ذاتها وأرضها من رجس الغاصبين والغزاة.. إن ذلك كله يحملنا على تكرار التذكير بما دل عليه المعلم القرآني الذي أشرق به قول الله تبارك وتعالى في سورة النساء: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝﴾[النساء: ٥].

فقد كان واضح الدلالة على الشمول، وأن السفه هنا لا يعني ـ والله أعلم ـ المرأة دون الرجل، ولا الرجل دون المرأة؛ فالآية عامة، ولم تخصَّ سفيهاً دون سفيه، وإنما لمسؤولية المجتمع أن يكون حريصاً على وضع المال في مواقعه النافعة المثمرة، وتسييره في طرائقه التي تسهم في الحياة المطمئنة الآمنة للفرد والجماعة، والبناءِ الذاتي للأمة الذي من أسسه الهامة تنمية عناصر القوة التي تتيح لها اقتحام الصعاب، وتجاوز حالات الضعف والاستخذاء.

ولقد سلفت الإشارة إلى رأي شيخ المفسرين الإمام الطبري الذي يسعف في تجلية هذه الحقيقة؛ ولنترك له أن يقدِّم لنا رؤيته في تأويل الآية، وهي رؤية تنير السبيل، وتدفع اللبس.

يقول رحمه الله: (والصواب من القول في تأويل ذلك عندنا: أن الله جل ثناؤه عمَّ بقوله: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾فلم يخصص سفيهاً دون سفيه؛ فغير جائز لأحد

أن يؤتي سفيهاً ماله، صبياً صغيراً كان، أو رجلاً كبيراً، ذكراً أو أنثى، والسفيه الذي لا يجوز لوليه أن يؤتيه ماله: هو المستحق الحجر بتضييعه ماله، وفساده وإفساده، وسوء تدبيره ذلك).

وكان جميلاً ما استدل به أبو جعفر لهذا الشمول: من أن الله تعالى قال في الآية التي تلي هذه الآية: ﴿ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴾ [النساء ٦].

فأولياء اليتامى مأمورون بدفع أموالهم إليهم إذا بلغوا النكاح وأونس منهم الرشد، وقد يدخل اليتامى الذكور والإناث، دون تخصيص الذكور دون الإناث ولا العكس.

ونظل مع نثارات الضياء التي يلقيها المعلم القرآني على دروب الخطاب التكليفي، حيث تعمل الآية الكريمة على الحيلولة دون إضاعة المال فيما لا يجدي، وتسمي فاعل ذلك سفيهاً، وتعطي حق الحجر عليه، مع مواصلة الإحسان والتوجيه، والارتقاء به إلى مستوى الطريق المثمرة المنتجة.

ولعل من الوقفات النافعة. أن لا نغادر الآية بعد الرحلة العجلى التي لا يتسع لأكثر منها المقام، حتى نصحب شيخ المفسرين مرة أخرى في رده على من ذهب إلى أن المعني بالسفهاء، النساءُ خاصة.

فبجانب ما رأينا من شمول الآية ـ كما قرر أبو جعفر ـ لكل من يستحق لقب السفيه، صبياً كان أو رجلاً كبيراً، ذكراً أو أنثى: ردَّ أبو جعفر هذا القول من الناحية اللغوية؛ ها هو ذا يقول: (وأما قول من قال: عنى بالسفهاء النساء خاصة: فإنه جعل اللغة على غير وجهها؛ وذلك أن العرب لا تكاد تجمع «فعيلاً» على «فُعلاء» إلا في جمع الذكور، أو الذكور والإناث. وأما إذا أرادوا جمع الإناث خاصةً لا ذكران معهم: جمعوه على «فعائل» و«فعيلات»؛ مثل «غريبة» تجمع على «غرائب» و«غريبات» وأما الغرباء: فجمع «غريب»).

وبعد: فلا مشاحّة في أن قدرتنا اللغوية ـ والعربية لغة الكتاب والسنة ـ ضرورة لا مندوحة عنها، لفهم كتاب اللّه على الوجه الصحيح، والاستنارة بمعالمه الخيِّرة، في ميادين الحياة كافة، وشؤون الدين والدنيا والآخرة ـ على العموم ـ مستعينين بالسنة المطهَّرة لأنها بيان الكتاب الكريم.

فالملاحظ مرة أخرى: أن أبا جعفر يرحمه اللّه وقفَنا باللغة على مدلول السفهاء، حيث يمتد رواء الآية الكريمة إلى ساحة المال والاقتصاد والاجتماع، والاستقرار المطلوب لأمة تطمح أن تكون على الجادة أبداً في دينها ودنياها، تؤدي رسالتها في العالمين، مع تثبيت الكيان، وترسيخ قواعد الذاتية والأصالة من جديد، وسبحان من أنزل كتابه المعجز بلسان عربي مبين.

* * *

الرسالة الخاتمة... وقضية البناء

على صعيد البناء الذاتي للأمة، وتنمية الطاقات ـ بمختلف أنواعها ومصادرها ـ المؤثرة الفاعلة في شتى ميادين الحياة، ومتطلبات التغيير إلى ما هو أفضل وأقوم، والتهيج لوضع الأمور مواضعها في تناسق متميز، وربط للجزئيات بالكليات وإبراز لسنن الله في الكون والحياة، تلك السنن الربانية التي لا يمتد إليها التحويل أو التغيير...

نجد أن معالم الفرقان الحكيم، تخط طريقها الإيجابية المتميزة التي تقف هذه الامة على الجادة تصوُّراً وعملاً مثمراً على صعيد البناء الصالح القويم، وتباعد بيها وبين الركون إلى الدعة والقعود، وترقب ما تحمله المصادفات.

ولعل من أوضح المعالم على هذه الساحة في الدفع إلى البناء والإنماء على دروب الخير كافة: ما تنزَّل على الرسول المصطفى صلوات الله وسلامه عليه في أواخر ما تنزل، من قرآن يدلُّ على إكمال الدين وإتمام النعمة، وختم النبوة برحمة العالمين محمد عليه الصلاة والسلام؛ فلا دين بعد الإسلام، وهو الدين الذي ارتضاه الله لعباده، وكلهم مدعوون لاعتناقه عقيدةً وعملاً وسلوكاً، ولا نبيَّ بعد سيد العالمين وخاتم النبيين صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى أنبياء الله ورسله أجمعين.

وإنا لنقرأ في ذلك قول الله جلَّ ثناؤه في الآية الثالثة من سورة المائدة ـ وهي من أواخر ما نزل من القرآن الكريم: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾.

فهذه ـ كما يقول المفسرون ـ أكبر نعم الله تعالى على هذه الأمة حيث أكمل تعالى لهم دينهم، فلا يحتاجون إلى دين غيره، ولا إلى مذهب سواه، ولا إلى نبي غير نبيهم صلوات الله وسلامه عليه، ولهذا جعله الله خاتم الأنبياء، كما قال تعالى: في

سورة الأحزاب: ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ﴿٤٠﴾ ﴾[الأحزاب: ٤٠] وبعثه إلى الإنس والجن، فلا حلال إلا ما أحلَّه، ولا حرام إلا ما حرَّمه، ولا دين إلا ما شرعه وكل شيء أخبر به فهو حق وصدق، لا كذب فيه ولا خلف.

كما قال تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ ﴾ [الأنعام: ١١٥] أي صدقاً في الأخبار ـ كما يقول الحافظ ابن كثير ـ وعدلاً في الأوامر والنواهي، فلما أكمل لهم الدين، تمت عليهم النعمة، ولذلك قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً ﴾ [المائدة: ٣] أي فارضوه أنتم لأنفسكم، فإنه الدين الذي أحبه اللّه ورضيه وبعث به أفضل الرسل الكرام، وأنزل به أشرف كتبه. روى البخاري ومسلم وأحمد وغيرهم ـ واللفظ لأحمد ـ «أن رجلاً من اليهود جاء إلى عمر بن الخطاب فقال: يا أمير المؤمنين إنكم تقرؤون آية في كتابكم لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً؛ قال: وأي آية؟ قال: قوله: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ.... ﴾الآية فقال عمر: واللّه إني لأعلم اليوم الذي نزلت على رسول اللّه ﷺ، والساعة التي نزلت فيها على رسول اللّه ﷺ عشية عرفة في يوم جمعة».

والمعقول المقبول لا مقبول غيره ـ بعد هذا ـ أنه ما دام الأمر على هذه الشاكلة في شأن هذا الدين، وفي ختم النبوة وأنه لا نبي بعد رسولنا محمد عليه الصلاة والسلام: أن تكون رسالته صلوات اللّه وسلامه عليه، رسالة عامة للناس جميعاً، بل للإنس والجن أجمعين؛ من كان في زمنه ومن يأتي بعده، وحتى يرث اللّه الأرض ومن عليها.

وفي ذلك يقول ربنا تباركت أسماؤه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾ [سبأ: ٢٨] ويقول سبحانه: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ...﴾ [الأنعام: ١٩] أي وأنذر من بلغ؛ فمن بلغه القرآن فقد أبلغه محمد ﷺ.

هذه القضية الكبرى بمقوماتها وأبعادها، وانعتاقها من سلطان جنس، أو لونٍ، أو قومٍ الإنسان، ومن حدود الزمان والمكان: وضعت الأمة المسلمة في مواجهة الواجب بناءً للإنسان، وللحياة بكل ميادينها، ومختلف جوانبها في ظل الرسالة الخاتمة رسالة الإسلام الذي أكمل اللّه به الدين، وأتمَّ به النعمة، ورضيه لها ديناً، وله الحمد والمنة.

فالمسلمون لا ينتظرون رسالة جديدة، ولا رسولاً جديداً، ولكن يديرون حركة الحياة، وينطلقون في ميادينها عاملين بهذه الرسالة، مستضيئين بهديها في كتاب اللّه وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام، ثم ما أعطاه الواقع العملي في كل الميادين الاقتصادية والاجتماعية والفكرية وما إليها، حين خرجوا إلى حيز التنفيذ، وتوظيف الثقافة والفكر على أرض الواقع الحيِّ؛ فكنت ترى كل يوم جديداً في ساحات البناء والإنماء! ومما يندرج في ذلك: ما كان من البناء الحضاري الذي لم يعوزه أبداً تكريم الإنسان والحق.

وعمر رضي اللّه عنه الذي قضى أيامه كلها بعد إسلامه قبل إمارة المؤمنين وبعدها، في بناء صروح القوة لهذه الأمة، وتنمية إمكاناتها الذاتية، ومدِّ روائها الإنساني الخيِّر في العالمين، الأمر الذي قلب المفهوم الدولي يومذاك، حيث آذن المدُّ الإسلامي بتبديل خريطة العالم، ومكَّن للمبادىء الخيِّرة أن تُحوَّل إلى وجود عملي في كيان الفرد والأسرة والمجتمع والدولة.. عمر رضي اللّه عنه الذي حمل بجدارة وأمانة قضية البناء والإنماء في جزيرة العرب وأراضي الفتوح بكلتا يديه، كان على غاية العفوية في ذلك الحوار ــ الذي سلفت الإشارة إليه ــ بينه وبين ذلك الرجل اليهودي؛ أجل كان على غاية العفوية والتمكُّن في سلامة التصور لأبعاد الرسالة الخاتمة ومهامها في العالمين؛ تلك المهام التي يحمل أعباءها المسلمون علماً وعملاً وجهاداً في سبيل اللّه وسلوكاً، وما الذي يعنيه كمال دين الإسلام، فهو مستغرق وقته وجهده وكل ما أعطاه اللّه من طاقات ومواهب قيادية منضبطة بحدود الشرع، في العمل الدائب من أجل استمرارية الإنسان المسلم والمجتمع المسلم والدولة المسلمة

وأمة الإسلام؛ فالقضية عنده ليست اتخاذ يوم نزول الآية يوم عيد، ولكنها الاستجابة الواعية لما تعنيه على صعيد الإيمان، وتحقيق مقتضيات هذا الدين في الأنفس وفي الواقع العملي؛ ولذلك رأيته يعتز بأنه يعلم اليوم الذي نزلت فيه الآية على رسول اللّه ﷺ والساعة التي نزلت فيها عشية عرفة، وهو درس عظيم أعطاه عمر لأجيال الإسلام حتى تقوم الساعة فرضي اللّه عنه وأرضاه.

* * *

الفاروق... وعملية البناء

«١»

في حديث موصول بما جرت الإشارة إليه فيما سبق، من أن اللّه تبارك وتعالى وضع أمتنا ـ كما دلت النصوص والوقائع ـ في ساحة الواجب الذي سَداه ولحُمته عروة الرسالة الخاتمة الوثقى، والعمل الإيجابي الذي لا يعوزه شيء مما به تُبنى القدرة الذاتية للأمة، وتنمَّى كل مقومات وجودها العملي على ظهر هذا الكوكب...

في حديث موصول بهذا: يبدو لزاماً إيضاح ما ألمحت إليه من الحوار الذي جرى بين أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه، وبين رجل من اليهود هو واحد من علمائهم وأحبارهم، وذلك بإيراد رواية البخاري في ذلك، وهي رواية قوامها: أن واحداً من علماء اليهود تحدث إلى عمر رضوان اللّه عليه ببعد نظر وروية، وحسرة يجدها هذا اليهودي حسداً من عند نفسه، فقال له: آية في كتابكم تقرؤونها، لو عينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً. يعني قول اللّه تعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً ﴾[المائدة: ١٢].

وعمر ـ رضي اللّه عنه ـ مع استشعار ما يوحي به كلام اليهودي من تناقض بين هذا الكلام وبين إصرار اليهود على الكفر بالقرآن وبمحمد عليه الصلاة والسلام ـ لم يُشعره بأنه أتى بجديد في شأن عظمة الآية وجلالها ولكنه أجابه بعفوية وتمكُّن ـ كما أشرت في حينه ـ إجابة توحي بالأهم في هذا المجال، فليس من حاجة عندنا إلى عيد جديد يُعنى بالمظهر وحسب، ولكن الحاجة متجددة إلى شحذ الهمم والتشمير عن ساعد الجد في طاعة اللّه التي يوجبها هذا الدين. فعيدا المسلمين الفطر والأضحى يجيء كل منهما في إثر عبادة وفق اللّه لأدائها؛ ذلكم قوله: «قد

عرفنا ذلك اليوم الذي نزلت فيه على النبي ﷺ وهو قائم بعرفة يوم الجمعة» فكأنه يقول: إن الأمر المهم بالنسبة لنا ـ نحن المسلمين ـ أن تستغرقنا عملية البناء الإسلامي الفريدة التي تهدي إليها هذه الآية الكريمة، بشارة من الله عز وجل، وأمانة ثقيلة حملت الأمة أداءها وعبء القيام بها على صعيد الفرد والأسرة والمجتمع والأمة، بل على صعيد الإنسانية جمعاء؛ أجل؛ نبه الخليفة الثاني على ذلك حين اكتفى بالكشف عن أنه يعرف ذلك اليوم الذي نزلت فيه على النبي ﷺ والساعة التي أنزلت فيها ـ كما رأينا في رواية سابقة ـ يوم الجمعة وهو ـ صلى الله وسلم وبارك عليه ـ قائم بعرفة يوم الجمعة.

إن قراءة جديدة لكلمة عمر هذه في مراعاة للجو الذي قيلت فيه، مصحوباً بتدبر الآية وتبيِّن معانيها ودلالاتها وأبعادها في حياة الأمة التي أكدها الخطاب الجمعي في قوله سبحانه:﴿لَكُمْ دِينَكُمْ﴾، ﴿عَلَيْكُمْ﴾، ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ﴾...إن قراءة واعية لها على هذه الشاكلة التي توظفها بمنهجية على أرض الواقع، ومن خلال سيره رضي الله عنه على السنن الذي سار عليه أبو بكر رضوان الله عليه قبله، اقتداءً بالرسول المصطفى صلوات الله وسلامه عليه... تضع أيدينا على مفتاح النهج العملي المبتغى فيه مرضاة الله تعالى عند هذا الرجل العظيم في فهمه لكتاب الله عز وجل، وهدي النبي عليه الصلاة والسلام، ناهيك عن سلامة التصور للرسالة الخاتمة وأبعادها، والمهام المنوطة بالأمة التي أكرمها الله بأن كانت خير أمة أخرجت للناس، والطريق التي يجب سلوكها من داخل النفس وفي التعامل مع الآخرين.

إن أبا حفص عليه الرحمة والرضوان لا يرى ـ كما أسلفنا ـ حاجة إلى عيد جديد، كالذي يوحي به كلام اليهودي، ولكنَّ الحاجة ماسَّة إلى ما كان يترجمُه سلوكه في السهر على متابعة الرحلة التي ابتدأها الرسول ﷺ وخليفته من بعده أبو بكر رضي الله عنه، رحلة البناء الذي هو الصورة التطبيقية العملية للرسالة الخاتمة في كل زاوية من زوايا المجتمع الوليد الأمثل الفكريةِ والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وحرصه العميق على أن يكون ارتباط الأمة بتلكم الرسالة المباركة عملاً

وسلوكاً واعتزازاً: في نماء وتصاعد مستمرين، كيما تمكّن للخير في أرضها وتحمله عن طريق الدعوة والفتوح ـ الذي هو وسيلة من وسائل الدعوة عند الحاجة ـ بقوة وأمانة إلى الناس كافة.

من هنا كان منهج عمر الغني بالوقائع صباحَ مساء بدءاً من يوم إسلامه وحتى لقي الله عز وجل بعد عشر سنوات من خلافته: عنواناً ضخماً مترامي الأبعاد على صلة النقاء والصفاء بالله عز وجل، واستشعار المسؤولية على شكل يقل نظيره، كما أنه معلم حضاري متميِّز، يوحي بتجدُّد العمل الدائب، وتنمية العزائم، وشحذ الهمم على صراط ضياؤه إغناء طريق الأمة بكثيرٍ كثيرٍ من البذل والتضحيات، وأن يتجاوز كل فرد بدءاً من المسؤول الأول: ما يحب، إلى ما يحبه الله، ويترك ما هو مراده، إلى ما هو مراد الله، والثمرات المترتبة على هذا في حياة الأمة حضارياً وتمكّناً وأمناً تكاد تعز على الحصر.

ولا يرتاب منصف في أن أمتنا اليوم بأمسِّ الحاجة إلى أن تجدد حياتها في ظل الرسالة الخاتمة، كيما يكون في مقدورها ـ بعد الاستعانة بالله ـ تخطي الصعاب وتجاوز العقبات، وكيما تنتفي عن طريقها كل السلبيات التي يُلقي بها التنصل من المسؤولية وحبّ العافية، والهروب من تبعات البناء.

إن إكمال الدين وإتمام النعمة بالإسلام الذي رضيه الله لعباده، مسؤولية كفاؤها تحويل المبادىء إلى وجود عملي ناطق يتحرك في شتى الميادين ويحرس طريق الأمة، جهاداً للأعداء في الخارج، وتزكية للنفوس وأمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر في الداخل، الأمر الذي ينمِّي تنمية إيمانية شعورها بتلك المسؤولية، والتداعي إلى توظيف العقيدة على أرض الواقع بتحرك منهجي سليم: فهي ليست بحاجة إلى أن تحتفل بعيد جديد، ولكنها بحاجة ماسَّة ملحَّة إلى نظرة عمرية بعيون أبنائها، تحمل كل مقومات الفاعلية، وتخطي عقبات البناء والنماء في الأفراد والمجتمع. وذلك ما يهدي إليه المعلم القرآني، ويحمِّل التبعة التي يوحي بها خطاب الجماعة، كلَّ فرد يدين بالولاء لرسالة الإسلام حسب موقعه الذي أقامه الله فيه.



الفاروق وعملية البناء

«٢»

إن عمر رضي اللّه عنه ـ وهو يأخذ نفسه وذويه وكل من ولاه اللّه أمره بالإسلام ـ كان يتجه صوب بناء الإنسان، والارتفاع بالمجتمع المسلم ـ كما رسمه النبي ﷺ وخليفته من بعده ـ إلى مستوى البناء الحضاري العالمي، عندما نبَّه في حواره مع ذلك الحبر اليهودي في شأن قول اللّه جل ثناؤه: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا ﴾ على أن الآية نزلت في يوم عظيم هو يوم عرفة عام حجة الوداع، فقال رضي اللّه عنه ورحمه: «قد عرفنا ذلك اليوم والمكان الذي نزلت فيه على النبي ﷺ وهو قائم بعرفة يوم الجمعة».

أجل كان يتجه صوب المعاناة الحقيقية الواعية في بناء الإنسان المسلم ـ ذكراً كان أو أنثى ـ وإقامة حضارة إنسانية متكاملة الوجود لا تشكو عرجاً ولا عوراً ـ كما نرى في الحضارة المادية اليوم ـ على قواعد تلك الرسالة الربانية الخاتمة التي عناها قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾الآية.

ولعل من الخير التذكير بأن ثاني الراشدين الفاروق رضي اللّه عنه وأرضاه، أعطى ـ في الوقت نفسه ـ ذلك البُعد العميق للمعرفة، معرفة أن الآية المعنيَّة نزلت على رسول اللّه ﷺ في ذلك اليوم العظيم، والمعرفة مسؤولية وتبعات، والمعرفة ليست ترفاً ثقافياً في حياة المسلم، ولكنها ـ مع المسؤولية ـ نقطة بدء على طريق تنأى بسالكيها عن السآمة وما هو الألصق بالعافية من التبعات، وهم يزاولون عملية البناء في أنفسهم وفي مجتمعهم تطبيقاً للمنهج الرباني الذي أملاه الإسلام الحنيف؛ تحقق بذلك أهل الفلاح الذين صدقوا ما عاهدوا اللّه عليه، ولم يتخلفوا عن ساحة من ساحات البناء والعمل الجاد المثمر، ولو كان في ذلك إزهاق الأنفس، ما دام الأمر منوطاً بمرضاة اللّه ومرضاة رسوله عليه الصلاة والسلام.

وفي نقلة إلى الواقع المتخلف الذي تعيشه أمتنا في مختلف بقاعها بشقيه: التماوت الداخلي والتمزق والفرقة والبعد عن حقيقة الإسلام في كثير من النواحي. والقهر من العدو الخارجي بكل شعبه الغاشمة الظالمة وفي شتى الميادين، الأمر الذي تذوب له القلوب وتتفتت الأكباد: يبدو من آكد الواجبات: العمل في الحقول التعليمية والتربوية والإعلامية وما يتعلق بها: على تنمية مشاعر الإنسان المسلم في موالاته لله ولرسوله وللمؤمنين، والارتفاع به إلى أن تكون هذه المشاعر التي لا بد معها من المعرفة، نقطة انطلاق إلى العمل المجدي الذي يتخطى حدود الأنانية إلى الصالح العام طاعة لله ولرسوله، ورغبة في حسن العاقبة يوم يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام، ويكرم اللّه عباده المجاهدين المتقين بجنة عرضها السماوات والأرض، فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

إن قول اللّه تباركت أسماؤه وجلّت حكمته: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً﴾ [المائدة: ٣] أمانة في الأعناق ـ ذكور الأمة وإناثها ـ وبخاصة من أوتوا نصيباً من المعرفة والوعي، ومن هم على سدة المسؤولية فيها ـ على تنوُّع ميادين المسؤولية والثغور التي أقام اللّه عليها الناس في المجتمع ـ أن يضعوا مضمونات هذا الدين موضع الحركة والتنفيذ، موضع الوجود الحي المتحرك الذي لا تعوزه مفاتيح التربية والثقافة، والاقتصاد والسياسة والاجتماع، ولا يعتريه نقص المعرفة الموثقة بالتاريخ، وبالواقع على الصعيدين الإقليمي والعالمي، وبالأسلوب الذي يتيح الانتفاع بالمنجزات العلمية وما يبرز من التطور عند الآخرين دون عدوان على الأصالة والهوية!!

هذا: وإشعار المسلم من طريق التربية المتكاملة، والإعداد المنهجي المتألق، بأن إسهامه في البناء الفاعل المؤثر، وتنمية ذاتية الأمة في طاقاتها وفاعليتها البشرية والاقتصادية، وأن تكون هي صانعة القرار المصيري بنفسها: جزء بالغ العظم والتأثير من واجبه حيال رسالته التي وهبها ولاءه: وهو أمر على غاية الأهمية اليوم، لتجاوز مرحلة التخلف، وتخطي المعوقات من داخل النفوس والمجتمعات، ومما يحاول الغزو

الفكري والإعلامي تثبيته في النفوس من أنَّا أمة ضرب عليها هذا التخلف ونتهى الأمر!!

إن الواقعة التي رأينا عمر فيها، وهو يرفع قواعد البنية الحضارية في ظل الرسالة الخاتمة: جديرة أن تمدنا ـ بعون اللّه ـ بكثيرٍ من الثقة والأمل، وتسهم في تحويل الأجيال المسلمة إلى ما هو الأقوم لاستئناف المسيرة الخيِّرة المنشودة، فيقوموا لله وللحق، بناة أمناء لحضارة مثلى تكون امتداداً للأصالة، حافلة بكل ما هو نافع من الجديد، وهي الحضارة الإنسانية التي طالما تطلَّع إلى وجودها المنصفون الذين يقيمون وزناً للإنسان، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾ [التين: ٤] وقوله جل شأنه: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ۝٧٠﴾ [الإسراء:٧٠].

* * *



ختم النبوة... والبناء

«١»

بين مقومات الأمة فيما تتجه إليه من الإحكام في بناء قوتها الذاتية المستقلة، وتنمية حوافز الانطلاق المنهجيِّ الخيِّر عند أبنائها، وبين طبيعة الرسالة التي تؤمن بها، وتعمل على أن تحملها إلى العالمين: تواؤم لا يخفى على ذي بصيرة يدرك أن الغاية ـ وهي في آخر الطريق ـ تدفع إلى تحقيقها بشكل تلقائي عناصر ترتبط بتلك المقومات والحوافز، وهذا الارتباط مصحوب بالتصور التام لتلك الغاية منذ الخطوة الأولى على الطريق التي يزمع من صدقت منهم العزائم أن تكون سبيلهم إلى ذلك التحقيق المراد.

وكل ما سبقت الإشارة إليه من عطاء المعلم القرآني المتصل بالرسالة الخاتمة، وما تصنع هذه الرسالة النيِّرة المباركة من الحوافز، وما تنمِّي من الإيجابية في التفكير والعمل: يتصل تمام الاتصال بكون رسولنا عليه الصلاة والسلام خاتم الأنبياء؛ ذلك بأن النبوة والرسالة الخاتمة قضيتان متلازمتان؛ فالمسلم يعتقد أن رسالة الإسلام هي خاتمة الرسالات، وأن محمداً بن عبد اللّه صلوات اللّه وسلامه عليه هو خاتم النبيين والمرسلين.

إن قول اللّه جلَّ ذكره: ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ﴿٤٠﴾ ﴾ [الأحزاب: ٤٠] إعلان للناس كافةً أنه ليس بعد محمد ﷺ من رسول، ولا بعد الدين الذي جاء به من عند اللّه دين. والمطلوب من الكل الإيمان به ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [آل عمران: ٨٥] فالمطلوب استمرار العمل بما جاء به هذا الرسول ـ وهو خاتم النبيين والمرسلين.

ولقد أكدت ذلك السنة الصحيحة كما روى أحمد والشيخان وغيرهم بما ثبت من بيانه عليه الصلاة والسلام بالتواتر أنه لا نبي بعده وعلى هذا: فالواجب متابعة طريق البناء القويم في ظل الرسالة الخاتمة وعلى هديها الواضح المستبين.

وإذا كان الأمر كذلك: فإن مسؤولية القول والعمل: بانتظار كل من يصبح أهلاً للتكليف آمن بأن رسالة الإسلام هي الرسالة الخاتمة، وأن الرحمة المهداة سيد العالمين ـ صلى اللّه وسلم وبارك عليه ـ ختمت به النبوة والرسالة، فلا نبي بعده ولا رسول.

وعلى هدي هذه الحقيقة، سجَّل التاريخ للجيل الفريد الذي تحمَّل مسؤولية البناء بعد رسول اللّه ﷺ ـ مع الإيمان الصادق ـ عمق التصور لهذه القضية، فكانت حافزَ عمل يتعاظم، وينمي قدرة النهوض بالعبء، ويدفع إلى استنفاد الطاقات كلها ـ بكامل الطمأنينة والرضا ـ في ظل المتابعة الأمينة لعملية البناء بقواعده الراسخة، وتكامله الفذِّ، تلك العملية الفريدة في التاريخ، والتي وضع أسسها ورفع قواعدها إمام النبيين المؤيد بالوحي عليه الصلاة والسلام.

ولولا اليقين وعمق التصور اللذانِ كان برهانهما الجهاد والصبر على مواجهة المصاعب والمشاقّ، لما رأيت تلك الاستجابة الطبيعية لكل قضايا الحياة في البلاد التي فتحها المسلمون ورفرفت على بطاحها في سهلها وجبلها راية لا إله إلا اللّه؛ لما أن الاستنارة الداخلية، انعكست على الحركة، فكان كلٌّ من عمل القلب وعمل العقل وعمل الجوارح بحسبان؛ الأمر الذي يؤكد أن فتوح البلدان سبقه فتوح القلوب، فانطلقت العقول من إسارها، ووجهت الطاقات ضمن قنوات متسقة معها تمام الاتساق.

وهكذا لم يعجز المد الإسلامي هنا وهناك، عن الاستجابة لأية قضية من قضايا الاقتصاد أو السياسة أو الفكر، أو الاجتماع، علماً بأن النصوص تتناهى والوقائع لا تتناهى؛ بل إن المبادرة التلقائية كانت من جانب أولئك البناة الذين ذرعوا أرض العمل

المضمر، وانساحوا في كل الميادين، يقيمون للأمة صروح التمكين والوجود الذاتي مع الحق والإنسان، وينمّون مع القيم التي تحرك الفرد والجماعة، عناصر القدرة الذاتية التي لا بد منها لمواجهة الحياة على أرض الجزيرة أولاً، ثم على كل أرض استعلنت فيها كلمة التوحيد التي هي أسّ الرسالة الخاتمة، وكان ذلك كله يعني العمل بما وجه إليه خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام في بيان للكتاب العزيز من إبلاغ الدعوة وتطبيق الشرعة على الوجه المطلوب.

ولقد كان من توفيق اللّه وعونه: العمل على أن تنمو الطاقات الفعَّالة القادرة في ظل مبادىء الرسالة الخاتمة وتنمو، كيما يكون ذلك برهاناً عملياً على أن المبادىء التي حفلت بها الرسالة الخاتمة هي الدواء الناجع للإنسانية التي بلغت درجة النضج، وما عليها إلا أن تولي وجهها شطر هذه الرسالة، فتعتصم بكتاب اللّه وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام، فذلك هو المعتصم المنجي، والملاذ الميمون الذي يُثبت الواقع ـ على كل صعيد ـ أنه هو الملاذ بعد كل التجارب المريرة التي عرفها الإنسان.

* * *

ختم النبوة.. والبناء

«٢»

إن الشعور بضرورة العلم التقني والتجربة، والعمل القائم على العقيدة والمنهج، من أجل الإحسان في عمارة الأرض، والإفادة لذلك من كل طاقات البناء البشرية وغيرها من الطاقات: كل أولئك بعض من آثار التصور الصحيح عند المسلم لما توحي به عقيدة ختم النبوة التي أشرق بها قول اللّه تبارك وتعالى في سورة الأحزاب: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾[الأحزاب: ٤٠] ذلك بأن عمارة الأرض والإفادة مما سخَّر اللّه للإنسان في هذا الكون العريض، وما أعطاه من إمكانات، تفتح له أبواب العلم والمعرفة ومنافذ هذه المسخَّرات، كل هذا وما يتعلق به وما ينبني عليه في الحياة الاقتصادية والاجتماعية وغيرهما تمليه العقيدة من أجل أن يوضع في خدمة الرسالة الربانية إيماناً وعملاً وتبليغاً، وهذا الأمر الجلل هو الطريق لتحقيق إنسانية الإنسان الذي هو أثر من آثار تحقيق العبودية الخالصة لله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات:٥٦] لأن في هذه العبودية تحريراً من ربقة أية عبودية أخرى لبشر أو حجر أو ظالم أو أي طاغوت!!

وأنت واجد أن الطاقة الحضارية التي أعطتها وتعطيها هذه العقيدة ـ عقيدة ختم النبوة ـ عجب من العجب؛ لما أنها تحرك الفرد من أعماقه لينهض إلى الواجب طاعةً لله تبارك وتعالى بالعمل بالمنهج الرباني المنبثق من تلك الرسالة الخاتمة التي هي ناسخة لما قبلها، وليس بعدها من رسالة ولا رسول.

وهذا النهوض المومى إليه: لا يقتصر على ميدان واحد من ميادين العمل الصالح والبناء النافع، ولكنه يرمي إلى كل ميدان يرتبط بعرى تلك الرسالة، الرسالة التي شاء اللّه أن تتسم بالتكامل والشمول! والوقائعُ منذ عصر النبي عليه الصلاة والسلام لا تتحسر عن أي ميدان من ميادين البناء والنماء في الحياة الدنيا، وكل ما يسعد في الآخرة التي هي خير وأبقى.

من هنا كان المجتمع الذي ترتفع قواعده من هذا المنطلق، يزاول أبناؤه عملية إحكام بنائه، واستمرار نمائه على السُّنن المتسق مع مبادىء الرسالة.. يزاولون ذلك بعلم ووعي على هدي تلك المبادىء والمنهج الذي رسمه من حُمِّل أمانتها وتبليغها عليه الصلاة والسلام، حيث أدى الأمانة وبلَّغ الرسالة وجاهد في اللّه حق جهاده حتى أتاه اليقين.

والمجتمع الذي تتوافر له سلامة هذا المنطلق: لا يتوقف أو يتلكأ مرتقباً بعثة رسول جديد؛ بل إن الوقوف عن الحركة في نظر صاحب العقيدة السليمة، هو الموت بعينه؛ ولذلك كان من خطل الرأي ما ذهب إليه بعض من يدَّعون الإسلام ـ والإسلام منهم براء ـ أن الرسالة لم تنقطع، وأن النبوة لم تختم بمحمد عليه الصلاة والسلام كيما يكون ذلك مندوحة لتصديق مدَّعٍ كاذب، أو متفلسف يفتري على اللّه.

والنسب إلى مسيلمة الكذاب والأسود العنسيِّ في ذلك، واضح كل الوضوح، عما عن المعلوم مما وراء الأكمة؛ لأنا دائماً نلاحظ أن وراء الأكمة ما وراءها من متنبىء مصنوع على عين مستعمر من أعداء اللّه، أو شيطان من شياطين الإنس ـ بله الجن ـ؛ فالذي يروم ادعاء النبوة تنفيذاً لأغراض شيطانية الهدفُ من ورائها زعزعةُ كيان المسلمين في منطقة من المناطق، وإحداث شرخ في صفوفهم عن طريق الفتنة من داخل الصفوف: لا بد أن يزعم استمرار الرسالة وأن النبوة لم تختم بسيد العالمين خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام.

والحق أني لست في هذه العجالة التي لا يتسع لأكثر منها المقام، بسبيل أن أجدد إقامة الدليل على ختم النبوة؛ لأن ذلك من المعلوم من الدين بالضرورة وهو من اليقين الذي لا يحتاج عند المسلم المستمسك بدينه عن وعي ومعرفة إلى دليل جديد، ولا أن أعمل على تفنيد زعم من يزعمون هذه الفرية على اللّه والحق لأن الوقت

أثعن من أن يضيَّع في مثل هذا بعد وضوح فَنَد هذه الدعوى وأمثالها، ولكنني بسبيل الإشارة إلى أن هذا الافتراء على الحق يسيء إلى إيجابية الجهود المبذولة في إحكام البناء المنشود، بما قد يدخل على بعض النفوس نوعاً من الاضطراب نحن في غنى عنه، وأعني بالاضطراب مهما بلغت درجته أن يتوهم متوهم عدم انقطاع النبوة؛ لأن أقلَّ ما قد يفعله هذا الهراء: أن يُسلم إلى نوع من التواكل المزري، ناهيك عما قد يحمل إليه من معاداة للأمة، ومظاهرة لأعدائها عليها والعياذ بالله.

إن تطلعات الأمة من خلال قيمها والواقع الذي تعيشه هنا وهناك، في حاضر مثقل بالمصاعب، يتلخص اليوم في أن تتجاوز الحاضر الذي لا تُغبط عليه بحال، إلى مستقبل عماده أن يكون وثيق الصلة بماضيها العتيد، وفي الوقت نفسه لا يتنكَّر لنفع حديثٍ مفيد، بكل ما لهذه الكلمات من أبعاد، يعقلها الواعون من أبناء الأمة الذين يدعون إلى المحافظة على الهوية الذاتية الأصيلة، ولا يغمضون العين عن ضرورة الإفادة من عطاء العلم والعقل في العصر الحديث.

وما من ريب في أن هذه التطلعات: جديرة بأن تشدَّنا أكثر وأكثر إلى تحرِّي الصواب في إحكام البناء بدءاً من بناء الإنسان، ومروراً بكل ميدان من ميادين البناء للدنيا والآخرة، وإلى تنمية روح الإقدام ابتغاء مرضاة الله، والشعور بالمسؤولية الذاتية كلٌّ في الثغر الذي أقامه الله عليه، والله لا يضيع عمل عامل من ذكر أو أنثى، وكل شيء عنده بمقدار.

وليس من مكرور القول: أن أشير إلى أن ذلك مرتبط أيَّما ارتباط بعقيدة ختم النبوة؛ فالأمة على إرث من نبوة محمد ﷺ الذي أدى الأمانة وبلَّغ الرسالة ونصح الأمة وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين.

وأجدر بأمة طوَّقها الله هذه الكرامة، وجعلها خير أمة أخرجت للناس، وأخرجها ببعثة محمد ﷺ من الظلمات إلى النور: أن تعود بالإسلام سيرتها الأولى، بناءً سليم الأسس محكم القواعد في الثقافة والاجتماع والحكم، والاقتصاد، والعلاقات الدولية، وإنماءً للوجود الذاتي يرتفع بها من جديد إلى مستوى تلك الخيرية التي أكرمها الله بها وائتمنها على دلالتها وأبعادها بالإسلام الذي ارتضاه لها فأكرمها بالرسالة الخاتمة وخاتم النبيين عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

لوازم عقيدة ختم النبوة والبناء

«٣»

على هدي ما سبق من القول في الإشارة إلى ما تفضَّل اللّه به على أمتنا بل على الإنسانية جمعاء بعقيدة ختم النبوة: يقودنا النظر في معالم الذكر الحكيم إلى قضية ذات أهمية بالغة على هذه الساحة؛ تلك هي الثقة المستقرة في النفس المزكَّاة، والطمأنينةُ القادرة ـ بعون اللّه ـ على دفع المكلَّف إلى المثابرة الواعية التي تنفي التشكك والارتياب، وترتفع به إلى أن يكون الأداة الفاعلة بمنهجية وحصافة في عملية السهر على البناء الذاتي لنفسه ولمجتمعه، كيما يحافظ هذا البناء بإحكام على انتمائه إلى القاعدة الإيمانية التي قام عليها في ظل حقائق الإسلام، وإلى أن يكون أيضاً ظاهرة النماء الطبيعي في واحد من أهم العناصر التي تتكون منها قدرة الأمة على ساحة الحياة بتنوُّع شعبها، وتوافر ميادينها يوماً بعد يوم؛ وكل ذلك ـ كما يلاحظ ـ من آثار ما يفيض به من العطاء قول اللّه جلت حكمته: ﴿... وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ...﴾.

والحق أن القرآن في تقريره لعقيدة ختم النبوة، لم يسلك بنا طريق الانفصام ـ ولو من بعض الوجوه ـ بين هذه العقيدة، وبين التنمية الجذرية لفاعلية الفرد والجماعة، وإشعار الإنسان بأن عليه أن يوظف كل مقومات الإبداع والعطاء على طريق البناء المتجدد الذي رسم معالمه، وهدى الأمة إليه، خيرة اللّه من رسله نبينا محمد عليه الصلاة والسلام؛ بل أحكم الترابط بينها وبين الدعوة إلى العلم، والتفكر، والتجربة، وإعمال العقل: ثم أن يكون ذلك كله في ظل اقتران الإيمان بالعمل الصالح، والتعاون على البر والتقوى، واجتناب التعاون على الإثم والعدوان.

وعلى هذا: فإن واقع المسلمين اليوم، الذي يتطلب اغتنام الفرص، وتجنيد

الكفاءات، ووضع الطاقات البشرية والاقتصادية والعلمية وغيرها على طريق الحفظ على البناء السليم، وإمداده بما يجعله يتسع ليفي بحاجات التطور في ضوء ما يقدم العلم صباحَ مساء من معطيات... إن هذا الواقع يملي بكل إصرار وتأكيد؛ أن تعود الأمة سيرتها الأولى في تربية الفرد على استشعار أنه صاحب رسالة، وأنه قيمة كبيرة تعمل عملها ـ حين تتوافر الحرية وتكريمُ إنسانية الإنسان ـ في تحويل المجتمع إلى ما هو أفضل وأقوم على الصعيدين الإقليمي والدولي، وأن عليه ـ بحكم العقيدة ـ أن يسهم بعلم ودراية في كل ما من شأنه رفع الضيم عن الأمة، والنهوض بها من عثارها الذي يلفُّها ظلامه؛ وفي الوقت نفسه: لن يجديه أمام اللّه ثم التاريخ أن يقول: «لا عليَّ» فإن ذلك ظاهرة الخسران المبين فالكل مسؤول حسب موقعه بلا ريب.

وحين نقرر ذلك ما بدٌّ من أن نضع في حسابنا وصلَ ما بين المسلم ـ ذكراً كان أو أنثى ـ وبين هذا المعلم القرآني في عقيدة ختم النبوة؛ لما أن رسول اللّه ﷺ، سوف يشهد على هذه الأمة ماذا صنعت في متابعة الطريق التي ظلَّ ـ صلوات اللّه وسلامه عليه ـ يعبِّدها، ويمهِّد سبيل الوصول إليها، بعد ارتيادها مع الصفوة من أصحابه بالإيمان والصبر والمصابرة ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣] ماذا قدمت من منجزات تمليها عقيدة الإسلام وشريعته لنفسها وللإنسانية.

هذه واحدة.. أما الثانية: فهي أننا عندما نترسَّم ذلك في شأن الفرد والمجتمع، لا ننطلق من فراغ؛ فمع الرسالة وهدي الرسول: قد وضع اللّه الأمة على ساحة من الإمكانات البشرية والاقتصادية والموقع الجغرافي ـ ناهيك عن كونها تنتمي إلى الرسالة الخاتمة رسالة الحياة ـ.

وما عليها إلا أن تديم الإعداد الصحيح لاستخدام تلك الإمكانات بأمانة وعلم وموضوعية، كيما تستمطر أن يعود لها التمكين بعد أن غيَّرت ما بأنفسها في صلتها الحقيقية بهذا الدين؛ ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣].

على أن أخذ هذه الأمور ـ بناءً على التآخي مع السنة الإلهية في التغيير ـ بشجاعة وقوة أمر بالغ الأهمية في هذه الظروف وفي كل الظروف.

وإذا كان أعداؤنا يؤذيهم ويثير أحقادهم: أن نسلك سبيل البناء المتميز على ساحة استئناف الطريق التي قوامها أنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها: فإن ذلك يضيف عاملاً جديداً من عوامل الحرص على إنجاز ما يقتضيه حمل رسالة الإسلام الخاتمة، وأن أمتنا هي الأمة الوسط المؤهلة للشهادة على الناس يوم المعاد، والاستهداء بهدي خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام في متابعة الطريق المثمرة البانية التي تبدأ بالخطوة الأمينة الجادَّة، وتنتهي إذا صدقت العزائم ـ مع خلوص النيات ـ بحسن العاقبة يوم الدين، بعد أن يكون العاملون قد ظفروا بالقوة والتمكين في هذه الدار تحت راية الإسلام الحنيف الذي هو الرسالة الخاتمة، التي يحرم معها دعوى نبوة أو رسالة جديدة، وإذا وقعت هذه الدعوى: كانت مأثماً سداه ولحمته الضلال والافتراء الكاذب على اللّه، والمعارضةُ الساقطة لنصوص الكتاب والسنة في شأن الرسالة الخاتمة، وأنه لا نبي بعد سيدنا وحبيبنا وشفيعنا محمد بن عبد اللّه عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

هذا: وكلام أهل التحقيق واضح في ذلك كلَّ الوضوح، وقوَّة الإيمان مع سلامة العقل، وطمأنينة القلب بذكر اللّه: تدفع عن الإنسان أن يقع في أحابيل من يدعي النبوة مهما ذُلِّل لهذا المدعي طريق الدَّجل، وزُخرُفُ الباطل!!

وهذه أسطر تمثِّل غيضاً من فيض مما قاله العلماء العاملون المحققون في هذه القضية التي يخشى على الضعفاء من الافتتان بها والعياذ باللّه!!

فعند الكلام على ما جاء في سورة الأحزاب في أعقاب الحديث عن قصة زيد وزينب رضي اللّه عنهما، وعتاب النبي ﷺ على أنه أخفى في نفسه ما اللّه مبديه من أن زيداً يطلِّق زينب وهو ـ سبحانه ـ مزوجه بها، وهو ما حصل بالفعل.. عند الكلام على ما جاء في أعقاب ذلك من قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [الأحزاب: ٣٨-٤٠].

قال الحافظ ابن كثير: (يمدح تبارك وتعالى ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ﴾ أي إلى خلقه ويؤدونها بأماناتها، ﴿ وَيَخْشَوْنَهُ﴾ أي يخافونه ولا يخافون أحداً سواه، فلا تمنعهم سطوة أحد عن إبلاغ رسالات اللّه تعالى ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ أي وكفى باللّه ناصراً ومعيناً؛ وسيِّدُ الناس في هذا المقام، بل وفي كل مقام: محمد رسول اللّه ﷺ. فإنه قام بأداء الرسالة، وإبلاغها إلى أهل المشارق والمغارب، إلى جميع أنواع بني آدم. وأظهر اللّه تعالى كلمته ودينه وشرعه على جميع الأديان والشرائع؛ فإنه قد كان النبي قبله إنما يبعث إلى قومه خاصةً، وأما هو ﷺ: فإنه بعث إلى جميع الخلق عربهم وعجمهم ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: ١٥٨] ثم ورث مقام البلاغ عنه أمتُه من بعده؛ فكان أعلى من قام بها بعده أصحابه رضي اللّه عنه، بلَّغوا عنه كما أمرهم به في جيمع أقواله، وأفعاله، وأحواله، في ليله ونهاره، وحضره وسفره، سرِّه وعلانيته؛ فرضي اللّه عنهم وأرضاهم. ثم ورثه كل خلف عن سلفهم إلى زماننا هذا؛ فبنورهم يقتدي المهتدون، وعلى منهجهم يسلك الموفقون. فنسأل اللّه الكريم المنان أن يجعلنا من خَلَفهم..

وعند قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ قال رحمه اللّه: (كقوله عز وجل: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ فهذه الآية نصٌّ في أنه لا نبيَّ بعده، فلا رسول بعده بالطريق الأول والأحرى؛ لأن مقام الرسالة أخصُّ من مقام النبوة؛ فإن كل رسول نبي ولا عكس. وبذلك وردت الأحاديث المتواترة عن رسول اللّه ﷺ من حديث جماعة من الصحابة رضي اللّه عنهم) ثم أورد عدداً من الأحاديث ومنها ما روى البخاري ومسلم وأبو داود الطيالسي وغيرهم عن جابر بن عبد اللّه رضي اللّه عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «مثلي ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى داراً فأكملها وأحسنها إلا موضع لبنة، فكان من دخلها فنظر إليها قال: ما أحسنَها إلا موضعَ هذه اللبنة، فأنا موضع اللبنة خُتم بي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام...».

إلى أن قال: (والأحاديث في ذلك كثيرة فمن رحمة اللّه تعالى بالعباد: إرسال محمد ﷺ إليهم، ثم من تشريفه له خَتْم الأنبياء والمرسلين به، وإكمال الدين الحنيف له، وقد أخبر اللّه تبارك وتعالى في كتابه، ورسوله ﷺ في السنة المتواترة عنه: أنه

لا نبيَّ بعده، ليعلموا أن كل من ادعى هذا المقام بعده، فهو كذَّاب أفَّاك دجَّال ضال مُضل، ولو تمخرق وشعبذ، وأتى بأنواع السحر والطلاسم والنيرنجيات ؛ فكلها محال وضلال عند أولي الألباب، كما أجرى اللّه سبحانه وتعالى على يد الأسود العنسي باليمن ومسيلمة الكذاب باليمامة من الأحوال الفاسدة، والأقوال الباردة، علم كل ذي لب وفهم وحجى أنهما كاذبان ضالأَّن لعنهما اللّه، وكذلك كل مدَّع لذلك إلى يوم القيامة حتى يختموا بالمسيح الدجال.

فكل واحد من هؤلاء الكذابين: يخلق اللّه تعالى معه من الأمور ما يشهد العلماء والمؤمنون بكذب من جاء بها: وهذا من تمام لطف اللّه تعالى بخلقه، فإنهم بضرورة الواقع، لا يأمرون بمعروف ولا ينهون عن منكر إلا على سبيل الاتفاق، أو لما لهم فيه من المقاصد إلى غيره، ويكونونَ في غاية الإفك والفجور في أقوالهم وأفعالهم كما قال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾﴾ [الشعراء: ٢٢١-٢٢٢] الآية.

وهذا بخلاف حال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ فإنهم في غاية البر والرشد والاستقامة والعدل فيما يقولونه ويفعلونه، ويأمرون به وينهون عنه، مع ما يؤيَّدون به من الخوارق للعادات والأدلة الواضحات، والبراهين الباهرات؛ فصلوات اللّه وسلامه عليهم دائماً مستمراً ما دامت الأرض والسماوات).

* * *

صاحب الرسالة.. يبني الإنسان الحضاري

«١»

حين تظفر بالمسلم الذي يسهم في تحريك عجلة الحياة، وعمارة الأرض، مبتغياً بما أعطاه اللّه الدار الآخرة، لا يفارقه استشعار أنه صاحب رسالة هي من الحق وإليه، ومن الخير وإليه، بل هي الحق كلُّه والخير كله، والذي تتجدد في نفسه الرغبة الصادقة في الإسهام المنهجي الواعي في بناء الفرد والمجتمع على تنوُّع الساحات التي ترفد هذا البناء، وأنه في ذلك على إرث من إرث النبوة.. حين تظفر بهذا المسلم: فقد ظفرت بالإنسان الحضاري ـ بكل ما في هذا المصطلح من معنى ـ ووضعت يدك على نقطة البدء في التغيير إلى ما هو الأجدر بأمة خصها اللّه بالوسطية والشهادة على الناس، وجعلها خير أمة أخرجت للناس بما طوَّقها به من كرمة الرسالة الخاتمة، وبما وضعها على المورد السلسبيل من هدي خير العباد الذي ختم به النبيون عليه وعليهم الصلاة والسلام.

وهذا المسلم الذي نعنيه، يشمل في مدلوله ذكور الأمة وإناثها؛ لما أن خطاب التكليف في شريعة الإسلام ـ كما جرت الإشارة غير مرة ـ لم يفرِّق بين هؤلاء وأولئك ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [النحل: ٩٧].

ففيما وراء ما خص به الرجل، وما خُصَّت به المرأة من أحكام هي عنوان حكمة العليم الحكيم سبحانه: الكل مخاطبون بهذا الخطاب، وإن جاء بصيغة التغليب ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ في كثير من الأحيان ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا

فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾ [آل عمران: ١٩٥].

ولم تعرف أمتنا في تاريخها المجيد المديد حِقبةً كانت أحوجَ فيها لبناء الجيل ـ ذكوره وإناثه ـ على أنه صاحب رسالة لها مقوماتها المرتبطة بوحي السماء، وبتبليغ وبيان عن لا ينطق عن الهوى عليه الصلاة والسلام، وأن عملية البناء ـ بمفهومه الأعم ـ على كل صعيد بما يناسبه ويتفق مع كيانه، للفرد كان ذلك، أو للجماعة: هي من مقتضيات هذه الرسالة.. كما يُرى في هذه الحقبة، وهي حقيقة ما أحسبها تخفى على منصف لا يعجزه التحليل الدقيق للتاريخ، وإدراك الآفاق التي تتسع لربط النتائج بالمقدمات!

وفي إطلالة على الخطوات الأولى من بدء عملية البناء الإسلامي وفق المنهج الرباني، تطالعنا حقيقة أنه حين ختم اللّه بالإسلام رسالات السماء، وختم النبوة بمحمد عليه الصلاة والسلام: ائتمن أمة الإسلام وقد صنعها ـ على عينه ـ بالقرآن وبيانه من سنة إمام الأنبياء وخاتمهم: على حمل العبء في قيادة قافلة الإنسان نحو سعادة الدارين حيث الحضارةُ الإنسانية المثلى في هذه الدار، والعاقبة الحسنة لأهل التقوى المجدِّين في طاعة اللّه، ونبَّهها أوضح تنبيه وأحزمه، على أن لا تكون مع كتاب ربها ـ وهو منبع هدايتها، وقوام وجودها الحقيقي الذي به تكون صاحبة الكلمة عن جدارة في التاريخ ـ... أن لا تكون معه كأولئك المغضوب عليهم الذين حمِّلوا التوراة، ثم لم يحملوها بالعمل بها، والوقوف عند حدودها ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥﴾﴾ [الجمعة:٥].

هذه الحقيقة، وهي نور من عطاء معالم الكتاب العزيز: جديرة ـ على صعيدي الإيمان الصادق والعمل الصالح المجدي ـ أن تسخَّرَ لها النفوس والقلوب والعقول، لتعمل عملها الذي ينبغي، وأن توضع في خدمتها الكفايات البشرية والمادية والعلمية بمختلف ألوانها والطاقات التي تصحبها.. ولن يكون ذلك إلا بتنمية الإحساس العميق

بأن القضية جدٌّ لا هزل فيها، وعزيمة تستعصي على التراخي بل على الاستخذاء، وأن الأمة حين لا تُتبَعُ القولَ العملَ ترتدُّ إلى دعوى عريَّة عن الدليل، وتنأى عما يوجبه الإيمان بخاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام وما يقتضيه أداء الأمانة على هذا الصعيد، وتقع فيما حذَّر منه قول اللّه تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ** ۝ **كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ** ۝ ﴾ [الصف: ٢-٣].

ولعل من الخير أن نذكر في هذه العجالة قول الشاعر:

والدعاوى إن لم يقيموا عليها بيِّناتٍ أصحابُها أدعياءُ

وهذا الذي ندعو إليه على هدي الاستنارة بالمعلم القرآني محورِ الحديث: كفيل بعون اللّه إذاما تحقق، أن يجعل من لبنات المجتمع خلايا تفيض بالحيوية والنفع، تتحرك تحركاً ذاتياً يرتبط بسلامة التصور ووضوح الغاية؛ الأمر الذي يضاعف ـ بتوفيق اللّه ـ القدرة ويزيد في فُرص الإنجاز المتئد المطلوب إن شاء اللّه!

وفي ضوء التهيج الحديث: تبدو الخطوة التالية على هذا الطريق الحضاري المتعَم بالنور: إعداداً صالحاً للجيل، يجعل من الكوارث والمحن والمعوقات، بواعث يقظة وتفجُّر، ويمكِّن من أن تأخذ الطاقات البشرية والمادية ـ والحرية ضرورة لهذا ـ سبيلها إلى التمكُّن الذاتي الأصيل، وفتح الأبواب المغلقة لحل المشكلات المتجددة، وإعادة الأمور إلى نصابها وتوسيدها إلى أهلها إذ توسيد الأمور إلى غير أهلها من أمارات الساعة كما أخبر الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام.

* * *

صاحب الرسالة.. يبني الإنسان الحضاري

«٢»

مما ينشده المصلحون دائماً: أن يرفع المسلم بصره إلى السماء، ولكن لا انتظاراً لنبيّ جديد، بل طلباً لعون الله وتأييده فيما هو فيه من إعمار الأرض، ونفي الأذى عن الأمة، والجهد الدائب الواعي لتكون كلمة الله هي العليا في كل باب من أبواب الحياة وشؤونها على صعيد الفرد، وصعيد الجماعة والأمة!

وحين استلهم الرواد ذلك المعلم القرآني الذي أسعدنا اصطحابه من قريب، وتخذوا من مدلول قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ مرتكزاً إيجابياً سداه ولحمته الإيمان، بغية الإصلاح، وتحرير المصابين بالدعة والخمول من المسلمين: كان ذلك نعم العون لهم على طريق استثارة المشاعر الإيمانية الكامنة. وما أعطى الله المؤمن ـ ذكراً كان أو أنثى ـ من طاقات روحية ومادية لو أُحسن استخدامها على صعيد بناء الذات، وتنمية المواهب والإمكانات: لآتت أكلها ـ بإذن الله ـ على صعيد الفرد والجماعة، ولانعكس ذلك على مسيرة الأمة التي طال منها الرقاد، انعكاساً يزيد ـ بعون الله ـ من فُرص التحوُّل المجدي إلى الأخذ بسنن الله في التمكين الذي كان تغييره نتيجة طبيعية لتغيير ما في الأنفس ولا حول ولا قوة إلا بالله!

ولا عليك أن تقرر ببالغ الطمأنينة والوثوق: أنه حين ينساح أبناء خير أمة أخرجت للناس في الأرض، يبنون الحياة بمنهجية مشرقة بالإيمان والوعي وحسن التصور للواقع، لا يعوزهم أن يخوضوا معركة هذا البناء في أي ميدان من الميادين، ما كان من ذلك في الفكر والثقافة والاجتماع، أو السياسة والاقتصاد... وما إلى

ذلك، ذاكرين قيَمَهم، غير منفكين عن منطلقاتهم، وما تمليه عقولهم الإيمانية... حين يفعلون ذلك متجاوزين مراداتهم إلى مراد اللّه عز وجل: يبدون كأنهم صورة من قدر اللّه في تحقيق الوجود العملي للرسالة الخاتمة في الناس، ومظهراً من مظاهر إرادته جل ثناؤه في أن يتابع أبناء الأمة ما استأنفوا من طريق؛ معالمُهم عليها هدي خاتم النبيين صلوات اللّه وسلامه عليه، حين رسم بأقواله وأفعاله وإقراره وسيرته نهج الحق في كل ميدان، وبنى المجتمع الأمثل في المدينة المنورة ليكون خير نواة لعملية البناء الشاملة التي تصحب استعلاء كلمة الحق في أرض اللّه، وتَرَكَ الأمة حين تركها يوم التحق ـ فداه أبي وأمي ـ بالرفيق الأعلى، على بيضاء نقية ليلُها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك!

وهنا تبدو الرهبانية مثلاً سيئاً غريباً على بنية هذه الأمة التي أخرجتها الرسالة الخاتمة من الظلمات إلى النور، في مسلكها الإيجابي، ومزاولتها لشؤون الحياة هنا وهناك، والعمل الجادُّ على تنمية طاقاتها الذاتية التي تجعلها على مورد الاستقلال في الفكر والمنهج وصنع القرار المناسب لهذا المستوى، وتهب قدرة السبق ـ بمعونة القادر القاهر سبحانه ـ حيث السباق مع الزمن الذي لا يعبأ بكسول ولا متهاون، ومع أولئك الذين يتربصون بها الدوائر؛ فلا رهبانية في الإسلام بل إن رهبانية هذه الأمة الجهاد.. الجهاد بشتى أنواعه وألوانه، وكم هي كثيرة وفيرة تلكم الأنواع والألوان!!

وبعد: فهكذا تدفع المبادىء الخيرة التي تشرق بها معالم الكتاب العزيز، وبيانها من سنة المصطفى عليه الصلاة والسلام.. تدفع بالمؤمن إلى أن يعتمد على نفسه ـ بعد اللّه ـ وأن يفتش وينقب ويبحث ـ متعاوناً مع إخوانه على البر والتقوى ـ لوضع الموجود من الإمكانيات المتوافرة موضعه المنتج المثمر، والحيلولة دون اليأس من الحصول على ما هو غير موجود من أجل استكمال الفاعلية في إنشاء واقع يحمل خصائص النماء والنقاء، بل والقدرة على أن يكون الواقع الأمثل الصالح لأن يحتذِيَهُ الآخرون.

إن أبناء الأمة ـ وهذا على التغليب طبعاً لأن الذكور والإناث مخاطبون بالتكليف ـ مدعوون ـ في ظل الدين الذي ارتضاه اللّه لهم وهو الإسلام ـ إلى التشمير عن سواعد الجد، والإقدام على ساحة الواجب باندفاع ذاتي يقضي على الخور، ويتحدّى العبث والعابثين، وتلكم هي الاستجابة الطبيعية لما تمليه سلامة الارتباط بميراث النبوة في الرسالة الخاتمة؛ وإنه لميراث لايني يقدم للإنسانية ما به إحكام البناء على الخير والهدى في الدين والدنيا، حيث تقام صروح العقيدة الصحيحة والعلم النافع ومكارم الأخلاق؛ كل أولئك وحركة إعمار الأرض تسير في قنواتها الطبيعية في تجويد للبناء وتطلع إلى حسن العاقبة ومرضاة اللّه يوم تجزى كل نفس بما كسبت ولا يظلم ربك أحداً.

ولعل من الخير التذكير بما أشير إليه غير مرة من أن إنسانية الإنسان من ذلك كله بحسبان، ومن أن هذا الإنسان ثروة عظيمة جدُّ عظيمة في نظر الإسلام، ونعم الخليفة الإنسان الذي استنار قلبه بالإيمان وعقيدةِ خَتمِ الرسالة بإمام النبيين وسيد المرسلين عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

* * *

الإنسان.. والوعي الإيماني

إذا ذكر الصادقون الصديقون فحيهلا بأبي بكر، وإذا ذكر أصحاب العقول الراجحة والرأي السديد، فحيهلا بخليفة رسول الله ﷺ، وإذا ذكر الثبات ثبات الجبال الرواسي وقت المحنة فحيهلا بهذا الرجل العظيم.

لقد كانت ظاهرة وعي عميق وإيمان لا يتزعزع، تلك الالتماعة في الذهن، وما كان لتلكم البصيرةِ من النفاذ في فهم قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ الآية.

فأبو بكر رضي الله عنه مدَّ رواق الآية الكريمة التي تنزلت بشأن ما حصل يوم أحد، إلى حياة المسلمين، ليواجه بالمعلم القرآني قضية هي من أخطر ما وقع لهم مع رسول الله عليه الصلاة والسلام، وليقضي على مشكلة كان من الممكن ـ لا قدر الله ـ أن تتحول إلى فتنة تأكل الناس وتدع الديار بلاقع.

فحين أذهلت المسلمين فاجعةُ الوفاة بانتقال رسول الله إلى الرفيق الأعلى، وبات عمر ـ وما أدراك ما عمر ـ لا يصدق من هول ما حدث أن رسول الله ﷺ يمكن أن يموت وهو الذي بَعثَتْ رسالته الحياة في جزيرة العرب وفي الدنيا كلها، ومنى في العرب ومن حولهم قدرة العطاء على طريق الخير بعد أن كانوا يتيهون في عمى الجاهلية.

والحق أنه عندما تميد الأرض بالحدث الكبير يجيء دور الرجال، قال الإمام الزهري: حدثني أبو سلمة عن ابن عباس أن أبا بكر خرج وعمر يكلم الناس، وقال: اجلس يا عمر، قال أبو بكر: أما بعد: من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، قال الله تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن

قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ قال: فوالله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل عليهم هذه الآية حتى تلاها عليهم أبو بكر، فتلاها الناس كلهم، فما أسمع بشراً من الناس إلا يتلوها. قال: وأخبرني سعيد بن المسيب أن عمر قال: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعرقت حتى ما تقلني رجلاي، وحتى هويت إلى الأرض.

إنها ظاهرة الوعي التي نراها في فهم أبي بكر للآية وقدرته على أن يضع فهمه موضع السد المنيع دون القلقلة والضياع، كما نراها في سرعة الاستجابة عند كل أولئك الذين أذهلهم المصاب. فوقفوا عند الذي أملته تلك الآية.

وفي نقلة إلى واقع الأمة اليوم ـ ومن خلال هذه الواقعة ـ لا يصح لعاقل يحمل بين جنبيه هموم أمته أن يرتاب في أن القضاء على الضعف، والقدرة على الإفادة من إمكانات القوة المتوافرة في كل بقاع العالم الإسلامي، كما تدل على ذلك المتغيرات القائمة ـ اليوم لاتكونُ إلا بعودة صادقة موضوعية إلى معالم الكتاب نهتدي بهديها ونستضيء بنورها، إذ لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلَح به أولها والعاقبة للمتقين.

* * *

الشريعة.. والبناء

«١»

من السمات المضيئة البارزة في شريعة الإسلام: أنك ترى العبادات مثلاً، كما أنها في ذاتها قربة إلى الله، وامتثال لما شرع، وإنابة إليه بالعبودية الخالصة.. فهي أيضاً لون من ألوان التربية والإعداد يسهم في بناء الفرد المسلم رجلاً كان أو امرأة، ويضع الأطر الصحيحة للمجتمع المسلم كيما يكون مجتمع القوة مع الأخلاق، والنظام مع العقيدة.

ولقد كان من آثار ذلك ما نجده حتى في ترتيب آي القرآن الكريم حيث كان رسول الله ﷺ يقول: ضعوا الآية الفلانية في موضعها من سورة كذا.

وإذا كان الجهاد ذروة سنام الإسلام، والحراسة الحقيقية للمجتمع الإسلامي فيما وراء الحدود: فلنأخذ صورة من صور هذا الترتيب القرآني لبعض من آيات الحج في سورة البقرة، لندرك من خلالها: أن بين الركن الخامس من أركان الإسلام وبين الجهاد صلة قربى ووشيجة نسب، لما أن كثيراً من أعمال الحج تبدو وكأنها صور من صور الجهاد للنفس والمألوف، ودربة على الجهاد في ميدان القتال أو تمهيدله.

وإنه للبناء القويم للإنسان الذي أريد له أن يضطلع ببناء مجتمع ترعاه أحكام هذا الدين الحنيف، وتنمي قدرته عقول وقلوب وسواعد ترتد إلى عقيدة التوحيد.

ها نحن أولاء نقرأ في الآية التاسعة والثمانين بعد المئة من سورة البقرة قوله تعالى في الحج: ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** (١٨٩) ﴾ [البقرة: ١٨٩].

ثبت أن رسول اللّه ﷺ ـ كما روى الطبري وغيره ـ سئل عن الأهلة ـ وهي جمع هلال ـ لِم تبدو دقيقة ثم تزيد حتى تمتلىء نوراً، ثم تعود كما بدت، ولا تكون على حال واحدة كالشمس؛ فنزل قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ﴾ وأُمر رسول اللّه آن يجيبهم بما لهم فيه فائدة وهو ما يسميه العلماء «جوابَ الحكيم» الذي يرى ما فيه مصلحة للسائل ويذكره، وهو درس في أدب الجواب وما فيه خير الفرد والمجتمع وهكذا كان جواب السؤال: ﴿قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾.

فالأهلَّة مواقيت ـ جمع ميقات ـ للناس في مصالحهم الزراعية والاقتصادية ومعاملاتهم بشكل عام وعباداتهم في صلاتهم وصيامهم وفطرهم وغير ذلك، وأيضاً هي مواقيت للحج يعلم بها وقته ومتى يكون؟ فكلمة الحج معطوفة على كلمة الناس

وإنها لمنافع غزيرة أودعها اللّه بحكمته تحرُّك الأهلة، على القوانين التي شاء بحكمته أن يسير عليها هذا الكون؛ بما فيه ومن فيه وإن ذلك لمن الآيات الدالة على قدرته وحكمته سبحانه.

وإلى أن نلتقي على استجلاء الصورة بكاملها، أود أن أنبِّه على هذا التواؤم العظيم بين الإنسان وما في الكون. فالأهلة في خدمة الإنسان في دينه ودنياه. وما عليه إلا أن يحسنَ البناء في نفسه ومجتمعه كما أراد اللّه مستفيداً من هذا التسخير واللّه ولي التوفيق.

* * *

الشريعة.. والبناء

«٢»

نحن على موعد مع استجلاء الصورة ـ أو واحدة من الصور ـ التي تنبىء عن عظيم شأن العبادة في الإسلام، وكيف أنها ـ مع ما هي عليه في ذاتها من امتثال لأمر الله عز وجل والعبودية الخالصة له ـ طريق من طرق التربية والإعداد التي تعمل على بناء الإنسان المسلم في قلبه وعقله ومشاعره، وتجعل من العبادة قوة دافعة تصل الإنسان بالحياة على أكمل وجه، وتنمي فيه روح الجهاد والبذل عن رضىً وطواعية، لما أن ذلك في طاعة اللّه ومرضاته، وهنا يبدو تكامل البنية الاسلامية، في العقيدة والعبادة والعمل، في غاية الوضوح والإشراق.

وقد ألمحنا من قريب إلى أن ترتيب الآيات في القرآن الكريم ـ كما أعطانا واحد من المعالم في سورة البقرة ـ متسق تمام الاتساق مع هذا الذي نقول.

وكان مثالنا على ذلك ما يجد القارىء لهذه السورة سورة البقرة من أن ست آيات من آيات القتال مبدوءة بالآية التسعين بعد المئة قد تخللت آيات تتعلق بخامس ركن من أركان الإسلام وهو الحج.

وآية الحج التي سبقت آيات القتال هي قوله تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ ﴾ [البقرة: ١٨٩].

لقد كانت علاقة الإنسان بالكون والحياة بحسبان في هذه الآية، حين جاء جواب السؤال عن الأهلة بأنها مواقيت للناس في مصالحهم الاقتصادية في الزراعة وغيرها، وفي عبادتهم وعدد نسائهم، ولأهمية الأهلة في التوقيت لأيام الحج أفردت بالذكر، ولو أن الأهلة ظلت على حال واحدة ـ كما يقول العلماء ـ لما أمكن ضبط مواقيت هذه الفريضة بالعين المجردة.

والعناية ببناء الإنسان على الوجه الذي ترتضيه الشريعة، كيما يكون في عباداته وأعماله ـ بوجه عام ـ على توافق معها، هذه العناية جعلت القضاء على رواسب الجاهلية في العبادات والعادات أمراً لا بد منه، وقد كان الناس قبل الإسلام يأتون البيوت من ظهورها، حيث ينقبون فيها نقباً يدخلون منه ويخرجون، ويتركون الباب، يفعلون ذلك ويحسبونه براً فقال تعالى: ﴿ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا ﴾ ثم دلهم على البديل من ذلك وأن تقوى الله بالتزام ما شرع وترك مخالفته فقال: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾.

الحق أن عملية بناء الإنسان القادر على مواجهة الحياة بكل ما تطلبه الحية عملية بالغة الأهمية على طريق الإنسانية. ولقد علمنا هذا المعلم القرآني، كيف أن الكتاب الكريم، كان يقتلع الجذر الجاهلي الموروث، ويقدم البديل عنه بإيجابية وواقعية، ويبدو لزاماً اليوم أن تقتلع التربيةُ ما جرَّ الغزوُ الفكري من معوقات، وتغرس البديل الصالح كما فعل القرآن الكريم وبذلك تعطي طاقاتُ الإنسان عطاءها، ولا تزيدها الأيام إلا نماءً يثري ويغني بحمد الله.

* * *

وضوح الرؤية.. والبناء

كان مما أشرنا إليه في كلام سبق أن توسط آيات تتعلق بأحكام القتال، آيات من آيات الحج، كما هو في سورة البقرة، معلم من معالم الكتاب العزيز يدل على وشيجة النسب وصلة القربى بين الحج والجهاد، كما يدل ـ بشكل أعم ـ على واحدة من حكم العبادة في الإسلام وفيما تؤديه على صعيد بناء الإنسان المسلم، وإحكام توجيهه الوجهة التي تعود عليه وعلى المجتمع بالخير والنماء.

وها نحن نورد هذه الآيات لنستنير بهديها في هذا الذي نشير إليه، فبعد الآية التي بينت وظيفة الأهلة ودلت المسلمين على البر وأنه التقوى والتزام أمر اللّه وأمرت بالتقوى لأنها مناط الفلاح، بعد هذه الآية الكريمة نقرأ بدءاً من الآية التسعين بعد المئة في سورة البقرة قوله تعالى: ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾ والأمر بالقتال مع هذا القيد كان مرحلة من المراحل، ولكن المرحلة الأخيرة وجوب الجهاد لنشر الدعوة وإزالة الركام من طريقها وحماية المجتمع الإسلامي من الأذى وذلك ما تجده في قوله تعالى كما سيأتي: ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ﴾.

أما قوله تعالى: ﴿وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ فغير متعارض مع قوله جل وعلا: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ فقد سمي رد الاعتداء في هذه الآية اعتداءً للمشاكلة، وإلا فإن دفع الظلم ورد الاعتداء: ليس من الاعتداء بحال من الأحوال.

وهذه قضية ذات أهمية على طريق التكوين الفكري للمسلم، والغاية التي ينبغي أن توجه عمله على صعيد البناء، كيما يكون على بينة من أمره وهو يبذل من نفسه وجهده ووقته، أيّ هذا في سبيل اللّه ومتى يكون هذا الترك جهاداً يدفع الأذى عن الأمة، وينمي قدرتها على أداء رسالتها في بناء المجتمع الصالح الذي لا تعوزه سمة من سمات التكامل والاستقرار، ونشر دعوتها في العالمين.

ثم يقول تعالى: ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١)﴾.

إنه البيان الذي يولد وضوح الرؤية ويبعث الطمأنينة في نفوس العاملين، فالمسلمون لا يعتدون والكفار هم الذين بدأوا بالأذى، والبادىء بالشر أظلم؛ كان الإعلان عن ذلك بقوله سبحانه: ﴿ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ﴾ فتنة الناس عن دينهم بالأذى والقتل والتهجير وتشتيت الأسر وتمزيقها أشد من قتلكم إياهم وإخراجهم من حيث أخرجوكم؛ وعندما نجد هذه الأحكام متصلة بالكلام عن الحج ندرك واجب الأمة في أن توظف هذا الركن من أركان الإسلام في تنمية روح المجاهد الحق الذي لا يعتدي ولا يظلم في النفوس واستعذاب النصب في سبيل الله.

* * *

الانطلاقة البانية

«١»

الانطلاقة البانية في المجتمع، والتي يراد لها أن تحدث التأثير الخيِّر في كل جانب من جوانبه، لا بد أن تسبقها طمأنينة نفسية تنمّي حوافز العمل دونما قلق أو تمزق، وتجعل من هذا الإنسان مخلوقاً يشعر ـ بكل ثقة ـ أنه فيما يعمل ويبني، وفيما يمارس من شؤون الحياة اليومية، إنما يؤدي ـ مع المتطلبات الخاصة ـ رسالة تعود على مجتمعه وأمته بالفائدة والنماء والتمكين.

وذلك ما نجده في معالم القرآن الكريم، حين أخذ هدمُ الوثنية والخرافة والكسل العقلي دورَه البارز المذكور بجانب غرس عقيدة التوحيد، وإقامة الأدلة على صدقها وأحقيتها، وتوجيه الإنسان إلى النظر والتفكر في نفسه وفيما حوله من الآيات الدالة على وجود اللّه وقدرته جل شأنه. وأنت واجد في آي الكتاب العزيز كثيراً من الأمثلة على ذلك، وبخاصة في السور المكية، غير أن النقطة التي تستوقف الناظر المتبصّر، أن معالم الكتاب عملت عملها في أن يكون المسلم على مزيد من الطمأنينة والاستقرار النفسي في مواجهة التحديات، وتعنت الكافرين وإعراضهم عن النظر والتفكر في آيات اللّه، بل وفي إصرارهم على الجحود ولو قام ألف دليل ودليل على ضلال ما هم فيه والعياذ باللّه.

وإذا كان الأمر كذلك: فلا بد أن يكون المسلم على يقين من أن إعراض الكافرين عن الإسلام، ليس لأن لديهم دليلاً على سلامة طريقهم، ولكن لأنهم معاندون يركبون رؤوسهم ويطيعون أبالستهم من الجن والإنس، بل يتخذون من أهوائهم آلهة تعبد وتطاع.

وفي سورة الجاثية ـ وهي سورة مكية ـ أنموذج لهذه القضية التي نلمح إليها والتي لها ما لها من الأهمية في سير الدعوة إلى اللّه وبناء الحياة الإسلامية، فطابع السورة بشكل عام يقدم لنا معلماً يحمل المسلم على الطمأنينة بما هو عليه من الحق، والرسوخ المتمكن في عقيدته التي أكرمه اللّه بها، كيما ينطلق في ساحة البناء إنساناً مجهزاً بسلامة المنطلق والوثوق بغايته وبوسائله إليها. وفي نظرة إلى فواتح هذه السورة المباركة، نجد التنبيه على تنزيل القرآن الكريم من اللّه العزيز الحكيم، وإرشاد الخلق إلى التفكر في آلاء اللّه ونعمه وقدرته العظيمة التي خلق بها السماوات والأرض، وبما بث فيهما من المخلوقات، وفي اختلاف الليل والنهار وتعاقبهما دائبين لا يفتران، وفيما ينزل اللّه من السماء من مطر يحيي به الأرض بعد موتها، وفي تصريف الرياح التي يرسلها ـ جلّت قدرته ـ حيث يشاء، وللحكمة التي يشاء؛ ففي ذلك كله آيات لقوم يُعملون عقولهم، وينأون بها عن الكسل والتراخي والخضوع لسلطان الأهواء، فيحملهم التفكر الصحيح على الاعتقاد بوجود خالق هذا القوى وعظيم قدرته ولطيف حكمته، ولسوف نصحب تلكم الآيات المباركات في صفحات قادمات إن شاء اللّه وهو سبحانه المستعان.

* * *

الانطلاقة البانية

«٢»

الآيات التي ألمحنا إليها في فواتح سورة الجاثية هي قوله تعالى: ﴿ حم (١) تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٣) وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤) وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٥) ﴾ وأنت واجد أنه بعد توجيه القلوب والعقول إلى أن القرآن منزل من عند اللّه العزيز الحكيم، كان الوضوح في إبراز المكانة العظيمة للنظر المتدبر الذي يقود صاحبه إلى أن الحجة قائمة على وجه اليقين بأن اللّه تعالى هو الخالق المدبر الذي بيده ملكوت السماوات والأرض ﴿ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ ﴿آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

ويأخذ المعلم القرآني بأيدينا لنشهد مسلك المشركين في عنادهم فيقول اللّه تعالى خطاباً لنبينا عليه الصلاة والسلام: ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ (٦) ﴾ ثم قال جل شأنه: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٧) يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٨) ﴾ [الجاثية: ٧-٨] .

فسبحان من لا يَعزب عن علمه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض.. ما أشبه الليلة بالبارحة كم يواجه المسلمون ـ على ساحة الواقع ـ حتى من بعض بني جلدتهم أحياناً. من يعرض مستكبراً عن الدليل الواضح وضوح الشمس في رابعة النهار، الدليلِ على أن الإسلام لو أتيح له أن يقود مجتمعات المسلمين، قادر على أن يبنيها فيحسن البناء، وأن ينمي الطاقات البشرية والمادية فيحسن الإنماء، وأن

يتجاوز بالأمة المرحلة الصعبة، ويضع قُدرها حيث يجب أن توضع في مواجهة تحديات لا يفتر أصحابها عن الكيد بها في كل ميدان بلا استثناء، وألوان حروبهم المعلنة والمستخفية لا تنتهي.

نعود لنقول: «ليس هذا ديدنَ هذا الصنف من الناس فحسب، بل هنالك الهزء والسخرية أحياناً مع الاصرار المستكبر والعياذ باللّه، الأمر الذي يجعلنا نقول مرة أخرى: ما أشبه الليلة بالبارحة، ذلكم قوله جلت حكمته: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الجاثية :٩-١٠] فليكن هذا في حسبان العاملين على بناء الإنسان إنسان عقيدة التوحيد وبناء المجتمع المسلم الآخذ بكل أسباب الحياة واللّه من وراء القصد، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

* * *

من لمحات الإعجاز.. في البناء في القرآن: التواؤم بين العقيدة وواقع الإنسان

«١»

من لمحات الإعجاز في منهج القرآن الكريم على صعيد البناء: ما يتبدى من الوضوح في صلة هذا المنهج بواقع الإنسان كما خلقه الله ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [الملك: ١٤]. وما يتبدى من الوضوح أيضاً في صلته بواقع الحياة، ثم ما تعكسه طبيعة العلاقة بين الإنسان والكون، وبين الكون والحياة. كل ذلك لما أن الكلمة الطيبة «لا إله إلا الله محمد رسول الله» منهج حياة؛ فالإنسان ـ يوم يؤمن ـ تسلمه عقيدة التوحيد ـ إن حملها بصدق وتذوق لحلاوة الإيمان ـ إلى حيث يعمر الأرض، ويسير وفق سنن الله، فيما سخر للإنسان من كونه العريض براً وبحراً وجواً، وإلى حيث تمتلىء ساحات البناء لجوانب الحياة اجتماعاً واقتصاداً وثقافة وغيرها: بالعمل النافع المجدي في ظل العبودية الخالصة لله تعالى بما يسعد في الدنيا والآخرة.

فالكون مسخَّر للإنسان، وعلى الإنسان أن يعمل مفيداً مما أعطاه الله من مؤهلات للإفادة من هذا التسخير. ولا انفصام بين دار العمل ودار الجزاء؛ فمجال السعي هنا، بما يترتب عليه من تطبيق منهج «لا إله إلا الله» في كل مجال من المجالات على صعيد الفرد والجماعة، والجزاء العدل الأخروي هناك يوم يعرض الناس لرب العالمين.

ولقد كان إبراز هذه الحقيقة مبكراً في حياة الدعوة حيث تُعَدُّ الجماعة المؤمنة لعملية البناء الكبرى، وخوض معركة التحويل من جاهلية ضاع فيها الفرد، واضطرب حبل المجتمع، وأصبح القوم في كثير من شؤونهم الاقتصادية والسياسية بل والثقافية تبعاً للقافلة التي يقودها غيرهم ـ في مسيرة بعيدة عن الخير والصلاح ـ إلى إسلام يعيد الأمور إلى وضعها الطبيعي.

ففي العهد المكي نقرأ في شأن مسؤولية الفرد عما يعمل، وتنمية حسِّه بهذه المسؤولية، وأن الترابط قائم بين دار العمل هنا، ودار الجزاء يوم القيامة.. نقرأ في سورة النجم قول اللّه تعالى بدءاً من الآية الثالثة والعشرين: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلاً وَأَكْدَىٰ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾.

أجل.. لا تحمل نفس وازرة وزر غيرها.. ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾. على سبيل الحصر ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ سوف يراه اللّه ـ وهو العليم الخبير ـ لإقامة الحجة على الإنسان بما صنع، وذلك في تخط لأبعاد الزمن.. الزمن الذي هو الحاضر كما كان الماضيَ، وهو المستقبل كما كان الماضي والحاضر ﴿ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾ فاللّه لا تخفى عليه خافية، وكل شيء عنده بمقدار. وهو ـ جل شأنه ـ لا يظلم عبداً من عباده مثقال ذرة ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

ونقرأ في سورة طه ـ وهي سورة مكية أيضاً ـ قول العليم الخبير: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾﴾.

لقد تنزلت هذه الآية بهذه الحقيقة على رسول اللّه ﷺ وهو في أول الطريق يبني الإنسان المسلم في انطلاقة منهجية موضوعية على ساحات التحويل الجذري، وكانت ضمن آيات تتحدث عن قصة موسى عليه السلام.

ألا ما أوضح ما نكون واقعيين، منسجمين ـ على صعيدي التصور والسلوك ـ مع عقيدتنا التي نتحرك تحت رايتها ـ إذا أقبلنا على الحياة نبني، وننمّي، ونستنفد طاقات التحرك المُجدي دون أن نغفل لحظة واحدة عن الزاد الحقيقي الذي هو عمدة الأمر كله في معالم الكتاب العزيز، وهدي النبي الكريم.. ذلكم هو الإخلاص

لله عز وجل، وعدم نسيان المسؤولية يوم الحساب.. نفعل ذلك متجاوزين حدود العاطفة العابرة إلى جديَّة الأخذ بالأسباب؛ تخطيطاً وتنفيذاً مع صدق التوكل على الله الذي بيده الخير وهو على كل شيء قدير..

إننا إن فعلنا ذلك، كان لنا ـ بعون اللّه ـ الخير العميم في ظل المنهج القرآني في البناء، وصلى اللّه وسلّم على معلم الناس الخير الذي هو نعم الأسوة في العمل بهذا المنهج وهدي الأمة إليه.

* * *

البناء والتربية على التواؤم بين المسؤولية والجزاء

«٢»

في حديث موصول بما كنا بصدده من قريب من الإشارة إلى الإعجاز في منهج القرآن على صعيد البناء. وكيف أن إبراز حقيقة الترابط بين دار العمل ودار الجزاء، جاء مبكراً حيث تنزلت الآيات إبَّان العهد المكي... في حديث موصول بذلك: تحسن الإشارة إلى أن هذه العلاقة الوطيدة بين دار العمل هنا ودار الجزاء في الآخرة، كما دلت على عدم الانفصام بينهما ـ دلَّت من جهة أخرى على أن الإنسان المكلَّف في الإسلام، لا انفصام بين عقيدته وبين ما يجب عليه من السعي في الدنيا وفق منهج الحياة الذي تطرحه هذه العقيدة، فما رأينا في سورة النجم من قوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾ وما رأينا في سورة طه من قوله جلَّت حكمته:﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾﴾ كل أولئك شهدت تنزله الفئة القليلة المؤمنة في مكة، وهي تصارع الوثنية والخرافة ورواسب التقليد الأعمى، الامر الذي يدل دلالة لا تحتمل اللبس على أن الصراع في ميدان العقيدة لا يعني أن المنهج بمعزلٍ عن التحضير لبناء المجتمع المرتقب، لأن العقيدة هي نفسها منهج الحياة يوفّر للفرد ما يستقيم به بناؤه المتكامل حسب تكوينه المتكامل وخَلْقه في أحسن تقويم، كما يوفر للمجتمع ما تستقيم به الأمور ـ أن لو عمل أبناؤه وفق سنن الله ـ على أسلم صيغة للتكامل في البنية الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية وكل ما هو من القوة والتماسك بسبب.

وعلى هذا السَّنن نقرأ في المكي من كتاب اللّه أيضاً شاهداً آخر في سورة الأنبياء؛ فبعد كلمات نورانية مباركة تتصل بوحدة الأمة ووجوب العبادة لله وحده، وتفرق اليهود والنصارى على ساحة الضلال في أمر الدين، وأن الكل راجع إلى الله فهو سبحانه يوفيه حسابه.. تبرز ـ بصورة أخرى ـ تلك الحقيقة التي نومئ إليها من وثوق العلاقة بين السعي في الدنيا، وبين الجزاء في الآخرة. ذلكم قوله الله تعالى بدءاً من الآية الثانية والتسعين في السورة المباركة المشار إليها: ﴿ **إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ ﴿٩٤﴾** ﴾[الأنبياء: ٩٢-٩٤].

وإذا كان الأمر كذلك في الدلالة على ما ينبغي للأمة أن يكون نبراسها على صعيدي التصور والتطبيق، أخذاً مما يعنيه إبراز حقيقة الترابط بين دار السعي والعمل وبين دار المحاسبة والجزاء، إذا كان الأمر كذلك من أول الطريق ـ فأجدر بالأمة أن تنمي في نفوس أبنائها في مختلف مراحل التكوين والإعداد على صعيد التربية والتعليم والإعلام، أن عملية البناء النافع المجدي التي يجب أن تمتد إلى جميع الميادين: هي قيمة أصيلة في منهج العقيدة ـ كما دلت معالم الذكر الحكيم ـ وأن آثارها العظيمة لا تقتصر على هذه الدار قوةً وذاتيةً وأصالةً، بل إن المؤمن يجد يوم الدين آثار كَدْحِهِ المخلص هنا. وفي مواجهة تتفق مع سنن اللّه تعالى في المعرفة والعمل.. في مواجهة لطغيان المادة الذي تهتز معه القيم: يبدو من الواجب المحتوم العمل بمنهجية والتماس لمرضاة اللّه على ما دلَّ عليه المعلم القرآني من خلال تلك الآيات التي تنزلت في وقت مبكر.. ومنها ـ كما رأينا ـ قوله تعالى: ﴿**وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾**﴾ واللّه الموفق.

* * *

الجانب التطبيقي.. في التربية على التواؤم: المسؤولية.. والشهادة على الناس

«٣»

من الجوانب التطبيقية لمدى الترابط بين العاجلة دار السعي والآجلة دار الجزاء، ولطبيعة التوحُّد بين الدارين، ثم ما كان من انعكاس ذلك انعكاساً يتمثل في عدم الانفصام في المنهج القرآني ـ على صعيد البناء ـ بين العقيدة وتحمُّل المسؤولية في بناء الحياة، لما أن الكلمة الطيبة «لا إله إلا اللّه، محمد رسول اللّه» منهج حياة.. من الجوانب التطبيقية لهذا كله!! ما وقفنا عليه المعلم القرآني في آيات كريمات من سُوَر البقرة والنساء والحج في شأن ما خصَّ اللّه به الأمة الإسلامية وأنعم عليها بالشهادة على الناس يوم القيامة، حيث تشهد الرسل عليهم السلام أنهم بلَّغوا أقوامهم ما أرسلهم اللّه به، وبشَّروهم وأنذروهم وأوضحوا لهم معالم الطريق.. وقوام هذه الشهادة: علمُ الأمة الذي حملته عن كتاب ربها وسنة نبيها عليه الصلاة والسلام حيث الأخبار الصادقة عما كان بين الرسل عليهم السلام وبين أقوامهم من الاستجابة أو الإعراض.

ينضم هذا العلمُ إلى نعمة اللّه في جعل المسلمين الصادقين عدولاً خياراً!! فتتسق النتيجة مع مقدماتها وتكون الشهادة على الناس أمراً يسير وفق العدل الإلهي والسنة الربانية الحكيمة ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

والجانب الذي نلمح إليه يكمن في أن مكرمة الشهادة على الناس ليست مرتبطة بعنصرية متميزة، أو أرض، أو لسان، ولكنها مرتبطة بالعمل الجاد المنبثق عن العقيدة، والذي يضمن أن تكون الأمة على المستوى اللائق بالشهادة على الناس يوم توضع الموازين بالقسط ويلقى كلٌّ جزاء عمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

وذلك واضح فيما اكتنف الحديث من تلك الشهادة من توجيهات قرآنية جعلت منها مسؤولية وحافز بناء يتخذان طابع الاستمرار في كل جيل من أجيال الأمة على تقلب العصور وحتى يرث اللّه الأرض ومن عليها؛ كالذي نقرأ فيما جاء في سورة الحج من قوله تعالى: ﴿ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾ ﴾[الحج: ٧٨].

وهكذا تنأى هذه النعمة التي خُصَّت بها الأمة عن أن تكون عنصر مفاخرة بلهاء مبتورة عن العمل المجدي، والإسهام الحقيقي في أن يكون الفرد والمجتمع على حالة تتسق مع نعمة اللّه ومكرمته.

أعود لأقول: إن عملية التحويل التي تشغل المصلحين وتسخَّر لها العقول والإمكانات البشرية والمادية!! هذه العمليةَ مطلوبٌ لها إنشاء الحوافز الإيمانية الأصيلة. وإذا كان شعور الانتماء إلى أمة الشهادة على الناس حافزاً يعمل عمله على ساحة البناء.. فإن من الضرورة بمكان: تنمية الإحساس بأن المكرمة مسؤولية وسعيٌ له ثمراته في الدنيا وجزاؤه الأوفى في الآخرة... وليست باباً للتفاخر المقطوع عن البرهان العملي، بل صِدقاً في العقيدة وإخلاُصاً في الوجهة وأخذاً بأسباب الحياة في مواجهة التحديات، والفوز بمرضاة اللّه.

* * *

البيان النبوي.. والترابط بين المسؤولية والجزاء

«١»

الجانب التطبيقي الذي جرى الإلماح إليه على صعيد الترابط بين السعي في الدنيا والجزاء في الآخرة، والذي توحي به واحدة من خصائص أمتنا وهي الشهادة على الناس، تلك الخصيصة التي كانت من المكارم التي تفضل اللّه بها على أمة الإسلام.. هذا الجانب التطبيقي قد أسلمنا إلى أن نعمة اللّه في هذه الخصوصية جديرة بأن ترتفع بالأمة في كل مرحلة من مراحل الحياة ـ أن لو صدقت الوجهة ـ إلى مستوى القوة والكرامة والإبداع.. وكل ما يليق بأمة أولاها اللّه أمانة الشهادة على الناس في قضية هي من أخطر قضايا الإنسان منذ بدء الخليقة وحتى يقوم الناس لرب العالمين، ألا وهي قضية الاستجابة لمبلغي رسالات السماء عليهم الصلاة والسلام.

ولعل من الخير أن نشير إلى أن البيان النبوي أعطى هذه القضية الخطيرة مزيداً من الوضوح على الصعيد العملي، الأمر الذي يبصّر الأمة بأن المحتوى لهذه المقولة جدٌّ لا هزل فيه، وأنه ما لم يتساوق العمل والسلوك مع المنهج الذي تمليه العقيدة في صياغة الحياة بشتى ميادينها، فذلك الخسران المبين في الدنيا ويوم الدين.

والبيان النبوي ـ كما أشرنا غير مرة ـ لم يكن يشرق على الدنيا ورسول اللّه صلوات اللّه وسلامه عليه في معزل عن الحياة، وممارسةِ عملية البناء الشاملة المتكاملة، بل العكس هو الصحيح؛ فقد ترجم رسول اللّه ﷺ بأقواله وأفعاله وسيرته العطرة بوجه عام: رسالة الإسلام التي هي رسالة الحياة إلى صورة حيَّة متحركة ناطقة، أعطت الوجود العملي الذاتي لميادين الفكر والتشريع والاجتماع والاقتصاد

والحكم وما إلى ذلك.. وخاض هو نفسه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ كثيراً من معارك التحويل إلى الأفضل والأكمل.. الأمر الذي مكَّن للأمة في الأرض وأقدرها ـ بعون الله ـ على ما قامت به بقيادته عليه الصلاة والسلام من بناء حضاري سليم.
روى الإمام مسلم بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «أتى رسول الله ﷺ المقبرة فقال: السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإنَّا إن شاء الله بكم لاحقون وددت أنا قد رأينا إخواننا، قالوا: أولسنا إخوانك يا رسول الله؟ قال: أنتم أصحابي، وإخواننا الذين لم يأتوا بعد. فقالوا: كيف تعرف من لم يأت بعد من أمتك يا رسول الله؟ فقال: أرأيت لو أن رجلاً له خيْلٌ غُرٌّ محجَّلة بين ظهرَي خَيْلٍ دُهْمٍ بُهْمٍ ألا يعرف خيله؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: فإنهم يأتون غراً محجَّلين من الوضوء، وأنا فَرَطهم على الحوض.. ثم قال عليه الصلاة والسلام: ألا ليُذادَنَّ رجال عن حوضي كما يُذادُ البعير الضالُّ!! أناديهم ألا هَلُمَّ فيقال: إنهم قد بدَّلوا بعدك، فأقول: سُحْقاً سُحْقاً».

يا لله ما أشدّ هول هذه الساعة!! يُذاد الذين غيَّروا وبدَّلوا كما يُذاد البعير الضال، ـ يُمنعون عن حوضه عليه الصلاة والسلام ـ وحين ينادي أن أقبلوا، يقال له: إنهم قد بدَّلوا بعدك.. وعندها يقول: سُحقاً سُحقاً. وهي كلمة تحمل ما تحمل من عدم الرضا، واستنكار ما وقعوا به من المخالفة عن أمره عليه الصلاة والسلام، فسقطوا ـ تحت وطأة الترغيب أو الترهيب ـ في حمأة التغيير والتبديل التي حالت دونهم ودون أن يكونوا من ورَّاد حوضه المورود في يوم يبلغ من شدته وعظيم هوله أن تذهل كل مرضعة عما أرضعت، وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد.

وواضح أن بقاء علامة تميزهم عن غيرهم يعرفون بها أنهم كانوا من أمة محمد ابن عبد الله أمةِ الشهادة على الناس، أبلغُ في النكاية، وأشدُّ في المؤاخذة.

وهكذا يعلن البيان النبوي الكريم أن الانتماء القولي وحده لم ينفع هؤلاء النفر من الناس بعد أن أحدثوا ما أحدثوا من التحول عن طريق الحق، وخالفوا عن سبيل الإسلام.

ألا إنه لا بد ان يفسح لهذه الحقيقة ما هي جديرة به في مناهج التربية والتعليم وابناء الذاتي، كيما يسلم للأمة بناء الجيل القادر على تحقيق الغايات الكبار بعيداً عن الوقوع فيما قصد إليه شاعرنا بقوله:

والدعاوى إن لم يقيموا عليها بيِّناتٍ أصحابُها أدعياءُ

* * *



مثلٌ.. على طريق البناء: التكوين والتقويم

أن تتنزل الأحكام التي تضبط شؤون الفرد والمجتمع وتتناول عناصر البناء والتقويم في العهد المدني، أمر يبدو طبيعياً للغاية، ويبعث الاهتمام في تبيُّن منهج البناء بأكمله، كيف أنه لم يدع شاردة ولا واردة في الاجتماع والاقتصاد والسياسة والتشريع ـ على وجه العموم ـ والسلوك إلا رسم من الخطوط العامة ـ بجانب الجزئيات ـ ما يشتملها ويعين على معرفة حكم اللّه فيها، ويدفع عجلة البناء والإنماء إلى مدارج القوة وقابلية العطاء. ولكن الذي يكشف عن مدى الترابط والتلازم بين البناء على العقيدة وبين إقامة البنية الكاملة للمجتمع: ما يُرى في العهد المكي من نثارات الضياء التي أسهمت في بناء الفرد المسلم ـ ضمن الفئة القليلة المؤمنة ـ بحيث اتجه الكيان الإسلامي لأن يأخذ طريقه إلى الوجود المتميز بعد الهجرة؛ تلك النثارات التي كانت تشعر الفئة المؤمنة من أول يوم أن صراع التوحيد مع الوثنية عنوان عريض على الإصلاح الجذريِّ الشامل في الوجود الإنساني، والعملِ على تحكيم منهج الحياة الذي هو قوام عقيدة التوحيد، كيما يشيع الحياة في كل جانب من جانب المجتمع؛ فالاقتصاد والاجتماع والثقافة، بل وإنشاء الأمة الخيِّرة الماجدة: كل ذلك بحسبان.

ومن الصور الناطقة التي شهدنا من خلالها بعضاً من نثارات الضياء التي نلمح إليها. ما رأينا ـ فيما سبق ـ من آيات مكية من سور يس والروم وإبراهيم، حيث الملامح المضيئة والخطوط العامة التي تشير إلى تكامل منهج البناء، وإلى ما يجب أن يكون عليه المجتمع من وعي دقيق لرسالته وتكافلٍ وتعاون تنعكس آثارهما على البنيتين الاجتماعية والاقتصادية، ويمتد ذلك إلى الأفراد الذين تمتلىء نفوسهم بالثقة والطمأنينة، فيندفعون إلى العمل والإنجاز مؤمنين صادقين يشعرون

بإنسانيتهم التي وجدوها في ظل أحكام الإسلام وهي تجعل من تعاون الأخ مع أخيه على البر والتقوى، وتجاوز الفوارق في ظل العقيدة ركيزةً من أهم ركائز العمل البناء.

ونحن اليوم على موعد مع نموذج آخر من مؤشرات العهد المكي على ساحة البناء الاجتماعي، تهدينا إليه الآية الخامسة والسبعون من سورة النحل، وهي قول الخالق الحكيم سبحانه: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْداً مَّمْلُوكًا لاَّ يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَناً فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِراًّ وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٧٥) ﴾[النحل: ٧٥].

هذا واحد من الأمثال التي يضربها اللّه للناس، إيضاحاً وتقريباً للأذهان؛ فمثل الكافر والمؤمن، مثل العبد المملوك الذي لا يقدر على شيء، ومن رزقه اللّه جل شأنه رزقاً حسناً، فهو ينفق منه سراً وجهراً. هذا ما روي عن ابن عباس رضي اللّه عنهما وقال به قتادة واختاره شيخ المفسرين أبو جعفر الطبري، وروى الطبري عن مجاهد: أنه مثلٌ مضروب للوثن وللحق تعالى.

وعلى كلا القولين: هل يستوي ذلك العاجز الذي لا يملك من أمره شيئاً، ولا يقدر على شيء، هو ومن رزقه اللّه رزقاً حسناً؛ فهو ينفق منه في مختلف الأحوال والظروف ـ سراً وجهراً ـ؟ يقول اللّه تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوُونَ ﴾؟ أي ليس هنالك أي نوع من أنواع التساوي، بل ليس هنالك قدر مشترك يلتقون عنده على قدم المساواة في القدرة على التصرف وعدمها.

ولما كان الفرق بينهما ظاهراً، يبلغ من الوضوح حداً لا يجهله إلا غبيٌّ قال اللّه جلَّ ثناؤه: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾.

والأمر الجدير بالملاحظة هنا: هو هذا التقابل بين الاثنين على الشكل الذي عرضته الآية الكريمة، هنا عجز إرادي وماليٌّ مطلق، وهناك ـ في المقابل ـ رزق حسن من عند اللّه يصحبه الإنفاق منه سراً وجهراً، ومتى كان هذا التنظير؟ في العهد الذي كان المسلمون فيه الفئة القليلة المؤمنة التي لا تملك من تسيير حركة المجتمع شروى نقير!!

أن تكون ركيزة هذا الشق من المثَل: من رزقه اللّه رزقاً حسناً، فهو يعاون الآخرين ويسهم في إيصال الخير لهم، في كل الحالات التي عُبِّر عنها بالسر والجهر، بينما يبرز الشق الآخر من المثل على أنه على العكس تماماً.. أن تكون ركيزة المثل، على هذا النحو في العهد المكي، حيث الصراع على أشده بين عقيدة التوحيد وبين الوثنية وعقابيلها الجاهلية.. قضية كبرى ذات دلالة عظيمة، تعطي أن المجتمع المزمع إنشاؤه على تلك العقيدة، مجتمع لا بد أن يسوده التعاون المثمر والحرص على سلامة البيئة في وجهيها الاقتصادي والاجتماعي، الأمر الذي له ما له من انعكاسات على الوجوه الأخر جميعها.

ولاحقة لا بد منها؛ هي هذا الارتباط الوثيق في المثل بين الإيمان وبين القدرة عى البناء الصالح المحكم الذي يعم نفعه الجميع. والمسألةُ برمتها، تبدو مسألةً للواقع، لأن استئناف المسيرة الراشدة للأمة، لا بد أن تكون وثيقة الارتباط بهذا النبع الأصيل، ولعل تباشير النور تولِّد ما يطرد الظلام، ولكن كثيراً من الناس لا يعلمون.

* * *

إحكام بناء الإنسان.. في ضوء البيان النبوي للقرآن

«١»

ما جاء في سورة الحشر من تعظيم القرآن، وأنه يبلغ من عظمة تأثيره أنه لو أنزل على جبل ـ وهذا الجبل على ما هو عليه في التكوين لو أعطي التمييز ـ لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله.. ما جاء في هذه السورة المباركة وهو قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ لتقرير هذه الحقيقة؛ أمانة في الأعناق تدعو إلى مزيد من العناية بتهذيب النفوس والعمل على تصفية القلوب، كيما يكون بناء شخصية المسلم بناءً متكاملاً يرقى بصاحبه إلى حسن التعامل مع كتاب الله، والتأثر الصادق بجلاله وعظمته، والانتفاع بما يرشد إليه من كل ما هو من الحياة الحقيقية بسبب، يؤكد ذلك ما ختمت به الآية من قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي إن عليهم أن يتفكروا بمدلول هذه الحقيقة؛ فإذا كانت الجبال الصم ـ إن أعطيت التمييز ـ تتصدَّعُ من خشيةِ الله..! فما بالك بالإنسان؟

والحديث عن هذه الحقيقة يصلنا بقوله تعالى في سورة الرعد: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٣١].

والمعنى: لو كان في الكتب الماضية كتاب تسيَّر به الجبال عن أماكنها، أو تقطّع به الأرض وتنشق، أو تُكلم به الموتى في قبورها، لكان هذا القرآن هو المتصف بذلك دون غيره، أو بطريق الأولى أن يكون كذلك ـ كما يقول الحافظ ابن كثير ـ لما فيه من الإعجاز الذي لا يستطيع الإنس والجن من آخرهم إذا اجتمعوا أن يأتوا بمثله ولا بسورة من مثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً. وقد روى ابن أبي حاتم أن المشركين قالوا لمحمد ﷺ لو سيرت لنا جبال مكة حتى تتسع فنحرث فيها، أو قطعت لنا

الأرض كما كان سليمان يقطع لقومه بالريح، أو أحييت لنا الموتى كما كان عيسى يحيي الموتى لقومه».. فأنزل اللّه هذه الآية، وبه قال ابن عباس رضي اللّه عنهما والشعبي وقتادة وغير واحد كما ذهب إليه الطبري في سبب نزول هذه الآية.

ولا بدع أن يتسق الهدي النبوي تمام الاتساق مع ما يراد من تقرير هذه الحقيقة وأمثالها من إحكام الصلة بين المسلمين ذكورهم وإناثهم وبين القرآن الكريم، تحقيقاً لسلامة البناء وقوته في بناء شخصية المسلم، وجعله يتفاعل مع الرسالة. وقد جرت الإشارة فيما سبق إلى نماذج من ذلك الهدي المبارك.

ولعل من الخير أن نتابع الاستنارة بذلك؛ فنخطو خطوة أخرى مع ما ورد من هذه النماذج فيما روى أبو داود والترمذي وغيرهما عن رسول اللّه ﷺ، وهو يوجه ـ فداه أبي وأمي ـ بدقة وتكامل بالغين إلى أن يكون المسلم على المستوى الذي يتحقق معه بناء الحياة، وتنمية الطاقات والفاعليات، بقوة وتقوى لله عز وجل، بدءاً من الاستجابة الصادقة لهداية الكتاب المبين، والانفعال العميق بمعانيه، الأمر الذي يحمل على العمل المثمر في العمل بالرسالة الخاتمة وتبليغها، بمنهجية وإحكام، لما توافر من حوافز الإيمان ووضوح الرؤية واليقين بأن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم، وأنه كتاب اللّه الذي يخرج بالمؤمنين من الظلمات إلى النور.

ويحسن التذكير بما أشرت إليه في صفحات قريبات، من توجيه الرسول ﷺ إلى قول: «وأنا على ذلكم من الشاهدين» عند الانتهاء من سورة «والتين» إلى قوله تعالى في ختامها: ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾ ﴾وما وجه إليه صلوات اللّه وسلامه عليه من قول: «بلى وعزة ربنا» عند الانتهاء إلى قوله تعالى في ختام سورة القيامة: ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ وكيف أن هذا التوجيه أخذ صورته العملية عند المسلمين، وذلك فيما روى أبو داود في سننه عن موسى بن عائشة أن رجلاً كان يصلي فوق بيته؛ فكان إذا قرأ: ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ قال: «سبحانك فبلى» فسألوه عن ذلك فقال: سمعته من رسول اللّه ﷺ.

ولا يخفى أن هذا الجواب المقترن بالقسم في هذه الكلمات النيِّرات «بلى وعزة ربنا» أو المقترن بتنزيه الخالق جل وعلا في «سبحانك فبلى» صورة تعبر عن الانفعال الصادق ـ من قبل المؤمن المصدق ـ بالحقيقة التي يقدمها القرآن الكريم بما عمل من هداية ونور.

والحقيقة التي بدئت بها السورة ـ أعني سورة القيامة ـ وختمت بها، والتي صحبتها الحجَّة الناصعة المشرقة: هي قدرة اللّه تعالى ـ وهو القاهر فوق عباده ـ على أن يبعث الخلائق بعد الموت، ويجمعهم في يوم لا ريب فيه هو يوم المعاد.

ففي فواتح هذه السورة الكريمة نقرأ قول اللّه جل شأنه: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ۝١ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ۝٢ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ۝٣ بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ ۝٤﴾.

كما نقرأ في خاتمتها: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۝٣٦ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ۝٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٣٨ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۝٣٩ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۝٤٠﴾.

وإنه ليسعدنا وينيلنا شرف الامتثال أن نقول صادقين: «بلى وعزة ربنا».

ألا إن المؤمن ـ وهو المرشح دائماً لبناء الحياة على الوجه الذي ينبغي ديناً ودنيا، عمارةً للأرض وبناء لحضارة إنسانية لا يشوبها شيء من نسيان اللّه واليوم الآخر ـ إذا انطلق من هذا الإيمان العميق الذي لا يفارقه الاقتناع العقلي ـ لأن الإسلام هو الدين الحق الذي أنزله الحق سبحانه ـ انطلق بإيجابية وقدرة على متابعة الطريق فيما يتطلب البناء من أخذ بالأسباب، في سلوك يسيِّر الإمكانات والطاقات في قنواتها الطبيعية؛ ويضع إنسانية الإنسان وحريته موضعهما من التكريم والقدرة على التفاعل مع كل ما هو خير وبر؛ وذلك ما بصَّرت به معالم الكتاب العزيز ووجّه إليه من قلّده اللّه أمانة البيان لهذا الكتاب سيدنا محمد رسول اللّه عليه الصلاة والسلام.



هداية القرآن.. والإنسان المرشح لها

«٢»

الإنسان الذي تتوافر له ـ مع الكفايات والإمكانات ـ عقيدة خالصة يشرق بها القلب، وبصيرة نافذة تحسن النظر والتفكر، وعقل متفتح يبتعد بصاحبه عن اتباع الهوى والوقوع في أسر الجهالة... هذا الإنسان هو الذي كان رسول اللّه ﷺ كلفاً ببنائه ـ على صعيد القول والعمل والتأسي ـ في ضوء المنهج الرباني الذي تنزل به القرآن الكريم، ليعيد الإنسانية إلى حظيرة التوحيد الخالص، ويبدّلها بعد جاهليتها الظلماء هداية مشرقة تضيء كل جوانب الحياة.

ولقد خاض رسول اللّه عليه الصلاة والسلام بالجماعة التي كان نواتَها هذا الإنسان، معركة البناء ـ على أنقاض الجاهلية ـ بشتى وجوهها، وكل مستلزماتها في ظروف القلة والكثرة، والعسر واليسر والسلم والحرب، والشدة والرخاء.

وكان يواجه في هذه المعركة مخلفات العصور في العالم، بما تحمل من وثنية وجهالة عمياء هنا، وحضارة مادية هابطة يستعبِد الإنسان من خلالها أخاه الإنسان هناك.

صحيح أن المعركة بدأت في جزيرة العرب، ولكن ميدانها وأبعادها ـ على وجه الحقيقة ـ عالم الإنسان في كل مكان وزمان.

من أجل هذا، وكيما يستمر المسلم قادراً على متابعة الرحلة المتشعبة المسالك، بناءً للحياة، وإنماءً للطاقات البشرية والمادية، كيما تكون ـ على أسس مدروسة ـ في خدمة الحق، وما به يسعد الإنسان في الدنيا وفي الآخرة..

من أجل هذا ـ والله أعلم ـ كان عليه الصلاة والسلام شديد الحرص على الصلة التي ألمحت إليها غير مرة، بين المسلم وبين كلام الله عز وجل.

لقد أرادها ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ صلة تدبر وتبصُّر ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاته وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَاب ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٢٩] صلة استجابة للحقيقة وانفعال بها ﴿ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾﴾ [الأنفال:١٤].

وإذا حصل ذلك، كانت القدرة ـ بعون الله ـ على ترجمة المبادىء والقيم ـ في إطار الضوابط الإيمانية ـ إلى واقع حي في دنيا الناس، كما هو في المشاعر والعقول والقلوب. وعندها يكون التطبيق، صورة عن تذوق حلاوة الإيمان، وتأكيداً لسلامة التصور ونظافة المنطلقات.

أرأيت إلى هذا الاستقرار النفسي الذي أراده سيد الأمناء على بناء الإنسان، للمسلم ثمرةً لصلته بالقرآن على الصفة المومى إليها، والذي طالعنا به النموذج المبارك الذي أسعدتنا صحبته من قريب وذلك من خلال الهدي النبوي الذي أضاء طريق التالي لسورة القيامة، وعلَّم الأمة ما به تستنير بهذا الضياء!

إنه الاستقرار الذي يتحرك معه المسلم بإيجابية وطمأنينة تضمنان ـ بإذن الله ـ استمرارية العمل برضىً وإقدام، ومتابعة مسيرة البناء بروح لا تعرف الانهزام.

ولنعد إلى السورة الكريمة التي تنزلت في العهد المكي، والفئةُ القليلةُ المؤمنةُ تعاني من صراعها مع الوثنية وعقابيلها، ومع الوثنيين وتقليدهم الأعمى وضوابطهم الجاهلية ما تعاني.

لقد افتتحت السورة بقوله تعالى: ﴿لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿١﴾ وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَن لَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴿٤﴾﴾.

القسم بيوم القيامة الذي يدل على أنه واقع لا مرية فيه، وحق لا ريب يمتريه، بدأت الآيات باستثارة العقل كيما ينظر ويتفكَّر. إن الذي قدر على تسوية بنان الإنسان، وفي ذلك ما فيه من الإعجاز الذي يقدره حق قدره أهل التخصص من

العلماء ـ وما أكثر الآيات في خلق الإنسان، وفي آفاق الكون ـ إن الذي قدر على تلك، قادر بالأولى على إعادة الخلق بعد الموت. وبعث الناس ليوم لا ريب فيه.

وكان ختام السورة قوله جل شأنه: ﴿ أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾.

وكما جرى التذكير في الآيات الأول بتسوية البنان، جرى التذكير هنا في الآيات الأخيرة بمراحل الخلق إلى أن يصل إلى الصورة السوية. والسنةُ الإلهية في ذلك، وفي العوامل التي تتسبب في جعل المخلوق ذكراً أو أنثى: سنة لا تخفى على دارس متعمق يجمع إلى العلم خُلُقَ الإنصاف والتجرد لنشدان الحق.

هذا، وبعد الذي جاء في الآيات الأول والآيات الأخر وما بينهما، ختمت السورة بقوله تعالى: ﴿ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴾ وفي ذلك ما فيه من استثارة لعقل كيما يعمل عمله، ولكن أين الجاهلية والعقلاء؟؟

أليس الذي قدر على ذلك كله ـ مما أتت على ذكره الآيات الكريمات ـ وجرت سنته الحكيمة على هذا النظام المعجز في بدء الخلق ومراحله، ومشيئته سبحانه فيما يجعل من المخلوقات ذكراً وما يجعل منه أنثى.. أليس الذي قدر على ذلك كله على سنَن لم يتخلف ولم يتبدل ـ يا معشر العقلاء ـ بقادر على أن يحيي الموتى؟

لقد أراد الرسول ﷺ للمؤمن الذي أكرمه اللّه بالانتماء إلى خير أمة أخرجت لناس: أن ينفعل بهذه الحقيقة انفعالاً يكون صورة صادقة للإيمان العميق في القلب، والاقتناع المتجدد في العقل، لما أن الحجة القاطعة هدت إلى ذلك، فيجيب عند تلاوة تلكم الكلمات المباركات بقوله: «بلى وعزة ربنا» بلى إنه ـ سبحانه ـ قادر بالأولى والأحرى على أن يحيي الخلائق بعد الموت وهو ـ كما قال سبحانه ـ أهون عليه.. يجيب المسلم بذلك عنوان استقرار وطمأنينة يبعثان على العمل البناء في سلوك مستقيم أمثل، مهما كان ثمن ذلك من العطاء والصبر على متاعب الطريق واللّه الهادي إلى سواء السبيل.

بناء الإنسان.. وخواتيم سورة القيامة

«٣»

لم أكن فيما عرضت له ـ بكلمات قريبات ـ من فواتح سورة القيامة وخواتيمها بسبيل تفصيل القول في ذلك؛ ولكنها الإشارة العابرة إلى الأهمية البالغة التي تكمن وراء توجيه النبي ﷺ ـ وهو يعمل على ربط الدعوى بالدليل والعلم بالعمل ـ إلى ما ينبغي للمسلم أن يكون عليه من تفاعل مع الكلمة القرآنية بقلبه وعقله، فيقول حين ينتهي ـ وهو يقرأ هذه السورة المباركة ـ إلى قول اللّه تعالى في آخر آية منها: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾.. يقول مجيباً إجابة تلقائية على هذا التساؤل الرفيع الذي يحمل أقوى ما يوقظ العقل من غفلته عند الجاهليين ـ أن لو كانت هنالك عقول ـ ويثير كوامن الإيمان في نفس المؤمن: «بلى وعزة ربنا» أو «سبحانك فبلى» كما جاء في بعض الروايات.

وما من ريب في أن هذه الإجابة تنبىء أول ما تنبىء عن استنارة القلب والعقل؛ الأمر الذي يدل على الطمأنينة التي وسعت القلب وأراحته، وعلى الاستقرار النفسي الذي لا غنى عنه في عملية البناء الكبرى، ولا تسل عما يبعث على ذلك من الإيمان الصادق والعمل العقلي السليم.

والحق أن هذه النظرة إلى تلكم الحقيقة وأمثالها، من خلال الواقع الذي يحيط اليوم بالمسلمين ويغشاهم بما يحمل من المصاعب والعنت، وهم يتطلعون إلى التغيير الجذري.. توجب أن يكون لها في بناء المسلم بعقله وقلبه وثقافته ـ على وجه العموم ـ بل وكيانه جميعاً، مزيد من العناية والتنهيج السليم؛ لأن الإنسان المؤمن المطمئن الواثق هو المُنيةُ التي يتطلع إليها رواد البناء على طريق التحويل الحضاري بعد

تجارب مريرة خاضتها وما تزال تخوضها البشرية من أجل أن هذا الإنسان القويّ الأمين، يضم إلى علمه وكفايته، تقوى اللّه، وإيجابية تستعلي على العقبات والصوارف، وقدرةً على الاستمرار تضمن ـ بعون اللّه ـ عدم التراجع فضلاً عن السقوط. مهما استشرى البغي، وقست مخالب الظالمين.

ذلك بأن آفاق هذا الإنسان، لا يحدُّها عمره المحدود في هذه الدار الفانية، ولكنها تتجاوز هذا المحدود إلى ما يكون وراء ذلك في دار البقاء يوم يقوم الناس لرب العالمين، ويوفي اللّه العباد دينهم الحق، وكفى به ـ جل شأنه ـ ولياً وكفى به حسيباً.

أثار ذلك في نفسي ما ألمحت إليه الآيات التي ختمت بها سورة القيامة المشار إليها وهي قول اللّه تعالى: ﴿ **أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ (٣٩) أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ (٤٠)** ﴾.

فمع إقامة الدليل القاطع على قدرته تعالى على الإحياء بعد الموت، نجد تنبيهاً واضحاً على الغاية من الخلق في قوله جل وعلا: ﴿ **أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (٣٦)** ﴾.

أيحسب الإنسان ـ بوصفه إنساناً علَّمه اللّه البيان وأعطاه العقل وأرسل إليه الرسل وأنزل الكتب ناهيك عن مؤهلات ومميزات أخر، تفرد بها وكُرّم، فكان أهلاً لحمل الأمانة والتكليف ـ أيحسب هذا الإنسان أن يترك في هذه الدنيا مهملاً، فلا يؤمر، ولا ينهى، ولا يحمَّل تبعة يسأل عنها في الدنيا ويوم الدين؟!

أيحسب كذلك أن يترك في قبره سُدىً لا يُبعث؟! بل هو مكلَّف مأمور منهي في الدار العاجلة ــ وهذا من التكريم ـ محشور إلى اللّه في الدار الآخرة. وإذا كان الأمر كذلك، فعليه أن يعمل جاهداً ليكون في سيره في الحياة وممارساته لشؤونها كفاء تلك الأهلية وذلك التكريم!!

وهذه واحدة من قبسات الضياء في المنهج الرباني التي تضع أيدينا عليها معالم الكتاب العزيز: تذكيرٌ بقدرة اللّه تعالى على الإعادة، إقامةٌ للحجة على الناس كي يؤمنوا بيوم المعاد، وأن اللّه جامع الناس ليوم الجمع لا ريب فيه، توجيهٌ إلى أن الإنسان لم يُخلق عبثاً، بل خُلِق لغاية سامية هي تحقيق العبودية الصادقة لله عزَّ وجل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات:٥٦] وهو لا بد راجع إلى اللّه يوم القيامة ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥].

ولمّا كانت رسالة الإسلام ـ كما تدل عليها معالم الكتاب العزيز وبيانها من السنة النبوية ـ رسالة لا يحدها زمان أو مكان أو قوم من الناس، وهي في الوقت نفسه رسالة بناء شامل متوازن، يغني الحياة بالبر والعطاء والنماء، ويسعد الإنسان ـ أن لو استقام على طريق الهدى ـ في دنياه وآخرته... لما كانت هذه الرسالة الربانية الميمونة كذلك، كان واجباً ـ على صعيد الواقع في كل عصر ـ أن يؤخذ المنهج الرباني وصورته العملية من الهدي النبوي، في بناء المسلم البناء المتكامل ـ ذكراً كان أو أنثى ـ مأخذ الجد والشعور الصادق بالمسؤولية أمام اللّه ثم أمام الأمة والتاريخ؛ ذلك بأنه هذا المنهج يجمع إلى البناء على التوحيد الخالص، إشعار الإنسان بأنه صاحب رسالة لها قيمها وأبعادها، فهو لم يخلق عبثاً، ولن يترك سدى.

وهذا كله لا بد له من العلم والأخذ بأسباب الوجود الذاتي ـ بدءاً من سلامة العقيدة ـ من أجل تحقيق هذه الرسالة.

من أجل ذلك كله ـ ولا مكان للإفاضة في الجزئيات ـ ما بدٌّ من أن ينظر إلى تلك الشخصية على أنه وحدة متكاملة، يصحب الإيمان فيها، قناعة عقلية، وتمثّل لحقيقة الرسالة، واندفاع بحوافز ذاتية صوب ترجمة الإيمان إلى عمل يشيع الحياة في كل ميدان من الميادين؛ حتى ترى العاملين في إعمار الأرض وبناء الحضارة مبتغين مرضاة اللّه والدار الآخرة غير ناسين نصيبهم من الدنيا. والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا اللّه.

بناء الإنسان في نور الكلمة القرآنية.. والتربية على الشعور بالمسؤولية

«٤»

القيام بحق القرآن، استجابة لدعوته إلى الحق، وتفاعلاً صادقاً مع معانيه، مسؤولية لا بد من التربية على الإحساس بها، وإزالة العقبات من طريق تحقيقها، إذ أريد لبناء الإنسان أن يكون بناءً يتسم بالإحكام وصلاحية القدرة على ترجمة الإيمان إلى عمل صالح، يمتدُّ خيره إلى الجماعة والمجتمع، بعد أن يكون قد عمل عمله في قلب الفرد وعقله، وانعكس ذلك على حركة جوارحه.

وبجانب ما كنت أوردته من النصوص التي لا غنى عن تدبر معانيها على ساحة البناء لشخصية المسلم التي هي الركيزة الأولى في بنية المجتمع.. لا يعوز التاليَ للكتاب العزيز أن يجد ما يقرر ويؤكد ما أوجبته الكلمة القرآنية من التنبه إلى مسؤولية القيام بحق هذا الكتاب الذي أنزله اللّه على نبيه محمد ﷺ ليخرج به الناس من الظلمات إلى النور، ومن ذلك التوجيه إلى أن يبنى المسلم بناءً يجد ذاته من خلاله، فيكون على المحجة البيضاء في كل ما يأتي ويذر مبتغياً مرضاة اللّه تعالى والفوز يوم المعاد.

قال اللّه تعالى في سورة «الزخرف» المكية خطاباً للنبي عليه الصلاة والسلام، وتعليماً للأمة من ورائه: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزخرف: ٤٣-٤٤].

يقول ربنا جل شأنه لنبيه عليه الصلاة والسلام: خذ بقوة بالقرآن المنزل على قلبك ودُم على اتباع ما فيه؛ فإنه هو الحق، وما يهدي إليه هو الحق، الذي يخرج من الظلمات إلى النور، ويفضي إلى صراط اللّه المستقيم، الموصل بفضل اللّه ورحمته إلى جنات النعيم.

ثم قال تعالى:﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ أي لشرف لك ولقومك ﴿وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ عن القيام بحقه، وكم يحمل هذا التعبير ﴿وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ من التنبيه الدقيق على أن القيام بحق هذا الكتاب مسؤولية أمام الله عز وجل، فهو سبحانه سائل المسلمين عنها، فليأخذ المؤمن حذره، وليُعدَّ نفسه للسؤال ﴿وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾.

وقيل: معنى ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ وإنه لتذكير لك ولقومك؛ ومهما يكن من أمر: فلا مانع يمنع من الأخذ بالمعنيين جميعاً؛ فهو شرف بلا ريب، وهو تذكير. وتخصيص القوم بالذكر لا ينفي من سواهم كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا .. أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠] وكقوله جل ثناؤه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤].

وهكذا يعلن التعبير القرآني إعلانه في تحميل هذه المسؤولية. وحَظٌّ من بيدهم التربيةُ والإعداد كبير من هذه المسؤولية. ﴿وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ عن القيام بحق هذا الكتاب الذي فيه شرف الأمة وتذكيرها، إلى أي حد كانت على الجادة؛ عملاً به على كل صعيد، واستجابة لما هدى إليه من دعوة الحياة والسعادة في الدارين، وتربية الأجيال على تمثُّل هذه الحقيقة، هذا التمثل الذي يكون جسرَ العملِ والتطبيقِ، بدءاً من بناء الفرد ذكراً كان أو أنثى وهكذا..

وما أحسبني بحاجة إلى التذكير بما هو واضح من ارتباط هذا الذي نحوِّم حوله ونسعد باصطحاب أبجديته بالقضية الكبرى، قضية التدبر للكتاب الكريم؛ فالله تبارك وتعالى أنزل كتابه المبارك على نبيه ﷺ ليضعه العباد موضع التدبُّر فينتفعوا بهديه، ويسعدوا بالخروج من الظلمات ـ على اختلاف أنواعها وأشكالها ـ إلى النور نور الهداية الربانية. ومما جاء في ذلك قول الله تعالى في سورة ص وهي سورة مكية: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩] ونعى الله على مرضى القلوب أنهم محجوزون عن تدبُّر آي الكتاب الكريم بهذا المرض، فالقلوب مقفلة والعياذ بالله لا تبضُّ بقطرة خير.. ذلكم قوله تعالى في سورة محمد: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾﴾ [محمد: ٢٤] أي بل على قلوب أقفالها

وفي عودٍ على بدءٍ؛ لا بد من التذكير بما سبقت الإشارة إليه، مما يحققه المنهج الرباني وبيانه من هدي النبي عليه الصلاة والسلام على صعيد البناء للفرد المسلم وللجماعة المسلمة، من تكامل في البناء، بحيث يقوى هذا البناء على مواجهة الزعازع والتحديات ـ بعون الله ـ أيًّا كان نوعها، ومهما اختلفت بواعثها وميادينها.

ولقد تتضح للمنصف أهمية هذا التكامل؛ إذا كان على ذكرٍ من المعالم الخيِّرة لرسالة البناء الحضاري التي شاء الله أن تضطلع بها أمَّة الإسلام، وفقهٍ لها، وما تستلزم من أخذ بالأسباب، ودخول البيوت من أبوابها وفق سنن الله الحكيمة، وتهيئة لعناصر البناء ومقوماته في كل ميدان من الميادين ـ لا تستثني ـ وإذا كان الحق هو محور التحرك: فالتحديات من قبل الباطل وسدنته ـ بل والمواجهة خفيُّها وظاهرها ـ كائنة لا محالة، كما أن التمحيص كائن لا محالة. ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾ [آل عمران: ١٤٢] ﴿الم ﴿١﴾ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [العنكبوت: ١-٣].

ومن مظاهر التكامل الذي نلمح إليه: ما يرى في مواطن تكاد تعزُّ على الحصر في كتاب الله، من التوجيه إلى أن يقترن الإيمان بالقناعة العقلية، فيتحلَّل العقل من إسار التقليد الأعمى ويعمل عمله على الوجه المطلوب؛ فأنت ترى مع الدعوة إلى الإيمان، إقامة الحجة تلو الحجة، والدليل بعد الدليل على الأمر الذي يدعو القرآن إلى الإيمان به. ومواطن ذلك ـ كما ذكرت آنفاً ـ كثيرة وفيرة؛ رأينا منها ـ فيما سبق ـ ما تضمنت سورة التين التي ختمت بقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾ ﴾بعد قوله: ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴿٧﴾ ﴾ أي بالجزاء بعد المعاد.. رأينا ما تضمنه من أن من عدل الله المطلق أن يبعث الناس ليوم المعاد ويجزي كلاً الجزاء الأوفى، وهو قادر على الإحياء بعد الموت، لما أنه هو الذي بدأ الخلق؛ فالقادر على البدء، قادر على الإعادة بالأولى ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم: ٢٧].

كما رأينا من قريب آيات من سورة القيامة تدعو إلى الإيمان باليوم الآخر، وتقيم الدليل القاطع على قدرة اللّه المطلقة، على إحياء الموتى، وتشير إلى أن الإنسان، لم يخلق ليترك هَملاً؛ بل هو مكلَّف ومسؤول، وقد أعطي مقومات ذلك.

ومما يجدر التنبيه على أهميته ـ على صعيد التطبيق العملي ـ لهذه المقولة الميمونة التي لها ما لها من الأثر الفعَّال في الانتفاع بهدي الكتاب العزيز، ما كان من عناية النبي ﷺ، بأن تأخذ طريقها إلى نفس المؤمن، وتثنيه عن الغفلة التي تحول دونه ودون التأثر المجدي بمعاني القرآن العظيم والاستجابة لما تهدي إليه.

ذلكم ما رأينا ـ فيما سبق من القول ـ من الصورة التي تنبىء عما يجب أن يكون عليه المؤمن من تصديق قلبي جازم، واقتناع عقلي بالبرهان القرآني الذي لا ينفصل عن واقع الإنسان والحياة، يحملانه على الانفعال الصادق بمعاني الكتاب العزيز ودلالة كلماته؛ فلا يمر بها مرور من لا يعنيه ما فيها، ولا يخالطها مخالطة الترف الثقافي دون استشعار ما تحمِّله من مسؤولية وتبعات؛ بل يتدبَّر ويتبصَّر لأنها ـ في الأصل ـ تبصرة وذكرى، ولأن ما تشرق به من الهداية، ينير القلب، ويضع العقل موضعه كما أراد له اللّه أن يكون، ويفيض بالإقناع لمن أراد مقنعاً، ولم يصرفه عن الحق هواه..

والصورة التي أعنيها، ما سبق أن أوردت من توجيه النبي ﷺ لتالي سورة «والتين» أن يقول حين ينتهي إلى قوله تعالى: ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾ ﴾ «وأنا على ذلكم من الشاهدين» وقوله حين ينتهي إلى قوله تعالى في سورة «القيامة»: ﴿ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾ «بلى وعزة ربنا» أو «سبحانك فبلى»... الحديث.

ولكم تحسن الأمة صنعاً لا على صعيد الأفراد فحسب، بل على صعيد المجتمع والجماعة الإسلامية ـ على وجه العموم ـ حين توفر لجيل البناء والإنماء الإسلاميين، الأسباب العلمية والتربوية ـ دون انصراف عن أهمية التأسي والقدوة الحسنة ـ كيما يكون هذا الجيل مع الذي قررته وأكدته آيات الفرقان الحكيم في العديد من المواطن؛ حيث التوجيه إلى صدق الإيمان، والعمل على أن يكون من طريق

صالح العمل بازدياد، وإعمال العقل ليتفكَّر ويتدبَّر، وينظر في النفس الإنسانية وفي الآفاق؛ الأمر الذي نبصر من خلاله ما يجب من تكامل البناء في شخصية المسلم وحسن صلته بالكتاب العزيز، المسلم المعدِّ لعملية التغيير إلى ما هو الأفضل في حياة الامة بعد الذي أصابها نتيجة الإعراض عن ذكر اللّه وترك الجهاد، والمؤتمن على الثروة والطاقات والإمكانات.

وإني مذكِّر بنموذج آخر مؤيد لما ذكرت ـ وما أكثر النماذج والمؤيدات في كتاب اللّه ـ نجده في سورة «الروم» وهي سورة مكية؛ ففي الآية السابعة والعشرين يقول اللّه تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ وقد سبقت الإشارة إلى ذلك، وفي الآية الرابعة والخمسين يقول جل ذكره: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾.

وبعد: فإن أمر هذه الأمة قد صلح بالكتاب وبيانه من السنة ولن يصلح آخر الأمة إلا بما صلح به أولها. وصدقُ الاتجاه إلى ذلك دليل صدق الإيمان، وإلا كانت القضية دعوى بلا دليل.

* * *



البناء وسورة المرسلات.. الهدي النبوي والتربية على الاستجابة لهدي القرآن (٥)

في حديث موصول بما سبقت الإشارة إليه من حرص الرسول ﷺ ـ وهو يعمل عى الإحكام في بناء الفرد والمجتمع ـ أن تكون صلة المسلم بالكتاب الكريم المبين صلة استجابة واعية لهديه وانفعال صادق بمعانيه؛ ننتقل إلى الفقرة الأخيرة في حديث أبي هريرة رضي اللّه عنه وهي ذات علاقة بسورة «المرسلات» إذ يقول ﷺ بعد توقيف التالي لكل من سورتي «التين» و«القيامة»: على كلمات معينة يقوله في موطن معيّن من كل منهما: ومن قرأ: ﴿ وَالْمُرْسَلاتِ﴾ فبلغ ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ فليقل: «آمنا باللّه».

إن الرسول الكريم على دراية تامة ـ على وجه اليقين ـ بطبيعة الرسالة التي يحملها إلى الناس، ويعمل على بناء الحياة وفق مبادئها وقيمها.. وعلى كامل الفقه النيّر، بما يجب أن يكون عليه أولئك الذين يسعدهم اللّه بالاستجابة لها، والإسهام في حمل الأعباء على طريق تثبيتها والعمل بها في ذوات أنفسهم، وفيمن ولاهم اللّه أمرهم، ثم في تبليغها الآخرين على الوجه الذي ينبغي، وذلك لإنشاء الواقع على هديها، بعد إزاحة ما كُوِّن من ركام جاهليّ وعقباتٍ تعترض سبيل أهل الحق والدعاة إلى اللّه، حين يصدقون فيما ندبوا لتحقيقه، وهي عقبات كثيراً ما تتطلب بذل الأموال والأنفس، حيث يبدو الابتلاء للتمحيص جزءاً لا ينفصم عمًّا هو العنوان المشرق لقضية المؤمن وجهاده في تحقيق تلك الرسالة، وصياغة الفرد في تصوُّره وسلوكه ووجهته في الحياة، ليكون ذلك بمثابة مقومات صحيحة لتكوين مجتمع يفيض بالحياة قوَّة ونماءً، وقدرةً على العطاء المنضبط بضوابط يتحرك على هديها في شتى الميادين.

من هنا ـ والله أعلم ـ جاءت العناية بالبناء، كيما يأخذ النهج تكامله في التصور والسلوك، بدءاً من المخالطة الحقيقية لمعاني الكتاب العزيز والانتفاع بها حركة وتعاملاً على صعيد الواقع.

ومن هنا كان ما نرى في سيرة المصطفى صلوات الله وسلامه عليه من حرص على تنمية الطاقات الفاعلة عند الفرد والجماعة، وفي مقدمتها عقيدة التوحيد المنبثقة من الكلمة الطيبة «لا إله إلا الله محمد رسول الله» العقيدة التي إذا أتيح لفاعليتها أن تأخذ الأبعاد الحقيقية في تكوين شخصية المسلم وتوجيه عقله وقلبه ـ لا فرق في ذلك بين رجل وامرأة ـ كان من وراء ذلك خير كثير، وما أكثر الوقائع التي تقرر هذه الحقيقة وتؤكدها عبر العصور!!

إن المسلم الذي يدعوه النبي ﷺ ـ بوصفه مسلماً رضي بالقرآن الكريم كتاباً هادياً ـ ودعاه إلى أن يقول إذا قرأ سورة «والمرسلات» وانتهى إلى قوله تعالى: ﴿بِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾: «آمنت بالله وما أنزل» هو فرد من أفراد أمته يتعبد الله ـ فيما يتعبده به ـ تلاوة القرآن وتدبره؛ فهو ـ على الظاهر ـ مؤمن مصدّق. ولكن الرسول ﷺ ـ يوجه وهو يعمل على إخراج الناس من الظلمات إلى النور بهذا الكتاب ـ إلى ما يجب من الانفعال الحقيقي بالمحور الذي تدور حوله السورة، ودلالة آخر آية فيها ـ ضمن هذا الإحساس الصادق ـ كيما يصبح المؤمن باستنارة عقله، وصفاء قلبه، وصدق استجابته كأنه صورة عملية للهداية التي رد الجانحين عن الحق إليه قوله تعالى: ﴿بِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

فبعد الأشواط المباركة التي قطعتها هذه السورة ـ بدءاً من القسم بالمرسلات عرفاً ـ في الحديث عن مظاهر قدرة الله تعالى. وعن اليوم الآخر ووجوده اليقيني. والمصير الذي يؤول إليه المؤمنون بإيمانهم وعملهم الصالح، وعاقبة السوء التي تنتظر الكافرين بجحودهم وتكذيبهم، حيث تكرر قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾﴾ عشر مرات.. بعد هذا كله: خُتمت بهذه الآية التي أشار إليها نبي الهدى صلوات الله

وسلامه عليه وهي قوله جل وعز: ﴿ بِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ أي لا يمكن إيمانهم بغيره من كتب اللّه بعد تكذيبهم، لاشتماله على الإعجاز الذي لم يشتمل عيه غيره، وكونه المهيمن على ما سبقه مما أنزل؛ وبصورة أوضح: إذا كان هؤلاء المكذبون لم يؤمنوا بهذا القرآن الذي أنزله اللّه بلغتهم، وعجزوا عن الإتيان ولو بسورة من مثله، وكل ما فيه دليل صدقه وأنه من عند اللّه لا من كلام البشر. فبأي كلام بعده يؤمنون!!

أما المؤمن الذي دعاه النبي ﷺ للإعلان عن تأكيد إيمانه الجازم بقوله: «آمنت باللّه» أو «آمنت باللّه وما أنزل» فقد أيقن قلبه، واقتنع بالحجة القائمة عقله، فليقل هذه الكلمات المنيرات ليكون ذلك تقريراً واضحاً لتلك الحقيقة التي خالطت قلبه وعقله.

إنه المرتكز العظيم في بناء المسلم من الداخل بناءً متكاملاً يؤهله ـ بعون اللّه ـ لأن يخوض معركة البناء بشتى ألوانها وصورها، بوعي وثقة. وخلايا المجتمع كلها ـ بدءاً من الخلية الأولى في البيت ـ بحاجة إلى هذا المرتكز الذي ينمي أبداً ـ على ساحة البناء ـ فاعلية الفرد والجماعة، ويديم صلة المنهج الذي يحكم المسيرة، بقيم الكتاب الكريم وبيانه من سنة الرسول الأعظم محمد عليه الصلاة والسلام.

* * *

الإيمان... والموثق.. والبناء

«٦»

في واحدة من قبسات الهدي النبوي التي تتصل بالكتاب العزيز وما أوفر خيرها ـ رأينا ما لتوجيه النبي ﷺ بشأن ما يقوله التالي لسورة المرسلات إذا انتهى إلى قوله تعالى: ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ من أهمية بالغة في بناء شخصية المسلم وتكوينه تكويناً متكاملاً بدءاً من استثارة القلب بالإيمان، وتفتح العقل على ما يقدمه القرآن من الحجج القاطعة والأدلة التي لا تقبل الاحتمال.

وما وجَّه إليه النبي عليه الصلاة والسلام في ذلك هو ما جاء في قوله: ومن قرأ ﴿ وَالْمُرْسَلَاتِ ﴾ فبلغ ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾فليقل: «آمنا بالله» أو «آمنت بالله وبما أنزل» كما في بعض الروايات.

فقد أشرت فيما أمضيت من الكلام، إلى أن السورة ـ مدار الحديث ـ بكاملها ـ فيما بينت من قدرة الله تعالى، وفيما تحدثت عن اليوم الآخر، وعن حسن العاقبة للمؤمنين المصدقين، وسوء العاقبة للكافرين المكذبين: تلقي مزيداً من الضوء على ما دعا إليه الرسول ﷺ من قوله: «آمنت بالله»، أو «آمنت بالله وبما أنزل»، عندما يبلغ التالي آخر آية فيها وهي قول الله تعالى: ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ أي فبأي كلام يؤمنون بعد هذا القرآن الذي حمل الناس على المحجة البيضاء بهذه الألوان من الهداية، ووضح الدليل على أنه من عند الله وضوح الشمس في رابعة النهار؟!!

ولعل مما يزيد الأمر وضوحاً أن المقطع الأخير من السورة المباركة الذي ختم بالآية الكريمة المشار إليها، تضمن صورة واضحة ـ كما سبق ـ لعاقبة كل من البررة المؤمنين المتقين، والضالين المكذبين، الأمر الذي يثير الانتباه ويحرك كوامن العقل السليم للتدبر في أمر الإيمان، كيما تسلم العاقبة خصوصاً وأن منصفاً لا يماري في أن القرآن الذي تضمن ذلك، هو كلام الله عز وجل.

والآيات الكريمات هي قول الله تباركت أسماؤه بدءاً من الآية الأربعين: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

ثم إنا عندما نذكر هدي الرسول ﷺ في أن يقول التالي «آمنت بما أنزل الله» عندما يبلغ في تلاوته السورة ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ يحسن أن نذكر معه حقيقة أن الآية الكريمة ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾﴾ قد ورد ذكرها في السورة عشر مرات كوامل ـ كما أشرت من قبل ـ.

وفي هذا ـ والله أعلم ـ تنبيه متجدد واستثارة للعقول والقلوب، لعل الجانحين ـ أو بعضهم ـ يؤوبون إلى الحق، بجانب ما فيها من وضوح في بيان العقاب الشديد الذي ينتظر المكذبين يوم القيامة ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾﴾ ويل لهم من عذاب الله غداً يوم لا يغني عنهم ما عبدوا من دونه أو أشركوا معه ولا دعاواهم الفارغةُ من شيء.

هكذا: يقف المؤمن على الأرض الصلبة مطمئناً فيعلن في مقابل تكذيب هؤلاء: «آمنت بما أنزل الله» وتبعاتُ الإيمان لا تخفى على ذي بصيرة؛ فالقضية في الإسلام ليست على المعنى الكهنوتي عند غيرنا، بل إن الإيمان يعني الالتزام بمقتضى الكلمة الطيبة «لا إله إلا الله محمد رسول الله».

وإذا كانت «لا إله إلا الله محمد رسول الله» منهج حياة لا يغادر أمراً من الخير إلا دعا إليه ولا شيئاً من الشر إلا نهى عنه، فمعنى ذلك أن الإيمان عهد على العمل وموثق على صياغة الحياة وفق ذلك المنهج، وهذا يقتضي بناءً متكاملاً لشخصية الإنسان الذي يعلن هذا الإعلان ويعطي من نفسه الموثق بالالتزام.

* * *

فإذا فرغت فانصب.. والبناء والوقت في تربية الهدي النبوي.. على الاستجابة ... لهدي القرآن

«٧»

سورة ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ﴾ من قصار السور المكية، عدد آياتها ثمان، وهي سورة مبـركة ـ وكل كتاب اللّه مبارك ميمون ـ يحسُّ المؤمن فيها بندى الخطاب الإلهي الرفيق المؤنس لنبينا محمد عليه الصلاة والسلام من خالقه الرحمن الرحيم.

وهذا الخطاب الرفيق المؤنس في العهد المكي، والدنيا تمورُ بالفتنة من حول الفئة القليلة المؤمنة ورسول اللّه ﷺ يعاني ما يعاني من الأذى الذي بلغ حداً لا يكاد يتصور.. له ما له من دلالة في شد أزر النبي عليه الصلاة والسلام، ومن ورائه أصحابه الذين يحملون العبء ويصطرعون مع الباطل وأهله صباحَ مساءَ.

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴿٨﴾﴾.

والملاحظ أنه بعد تعداد النعم التي استأثرت بست آيات من السورة: خوطب النبي ﷺ بقول اللّه جلت حكمته: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴿٨﴾﴾.

والمعنى ـ كما يرى بعض العلماء ـ فإذا فرغت من أمور الدنيا وأعمالها، وتخلَّصت من علائقها فانصَبْ إلى ربك في العبادة، وقم إليها نشيطاً فارغ البال، وأخلص لربك واجعل نيتك ورغبتك إليه.

وهذا ما يفهم من كلام مجاهد فيما روي عنه. وعن ابن مسعود «إذا فرغت من الفرائض فانصب في قيام الليل»، وفي رواية عن ابن عباس: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾﴾ يعني في الدعاء. وقال زيد بن أسلم والضحاك: فإذا فرغت من الجهاد فانصب في العبادة وقال الثوري في قوله تعالى:﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴿٨﴾﴾ «اجعل نيتك ورغبتك إلى الله عز وجل».

ومهما يكن اختلاف العلماء في المعنى المراد. فلا مانع يمنع من ترك الكلام على إطلاقه، وأنَّ فيه بعد تعداد النعم ـ التي هي شرح الصدر، ووضع الوزر الذي أنقض الظهر، ورفع الذِّكر ـ حثاً للنبي ﷺ على شكر مولاه باستئناف النصب في سبيله عبادة، دعاءً، عملاً، صبراً على الأذى عند تبليغ الدعوة، وأن لا يخلي وقتاً من أوقاته من ذلك، فإذا فرغ من عبادة أتبعها بأخرى.

والعمل المرضيُّ في الإسلام ـ مهما كان نوعه ـ إذا خلصت النية كان عبادة لله عزَّ وجل؛ هذا من المسلم عموماً فكيف إذا كان من النبي عليه الصلاة والسلام.

كان هذا مع مراعاة أن الجهاد لم يكن قد شرع ـ كما هو معلوم ـ ولكن ما أوسع ساحات العمل البناء في سبيل الله.

الحق أن مما يستوقف الناظر في هاتين الآيتين الأخيرتين ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴿٨﴾﴾ وهو على ذكر من طبيعة الحقبة المكية التي تنزلت فيها السورة، حيث الشدة الشادة، والتمالؤ الجاهلي المطبق: جعل استنفاد الوقت بالعبادة والعمل: شكراً للمنعم على تفضله، ومعنى ذلك: أن الفئة القليلة المؤمنة وهي ترتاد طريق البناء بقيادة الرسول عليه الصلاة والسلام، كان مطلوباً منها أن تدرك قيمة الوقت وضرورة ملئه بما يقرّب إلى الله زلفى، وموقع ذلك من عملية البناء الكبرى التي بدأت تباشيرها منذ العهد المكي يومذاك.

أن تتنزَّل على رسول الله في عهد مبكر من سير الدعوة آياتٌ تعطي للوقت ومئه بطاعة الله هذه الحرمة وتحث الرسول ﷺ وهو سيد المعصومين والأسوة الحسنة ـ على أن ينصَب ـ على أن يجدّد التعب ويستأنفه في أمر من أمور الطاعة كلما فرغ

من أمر سبقه... وأن يجعل نيته ورغبته إلى الله عز وجل.. أن يتنزل عليه ذلك وهو ـ فداه أبي وأمي ـ يخطو خطواته الأولى في رحلة التغيير الجذري المثقلة بالمعاناة: قضية كبرى من قضايا المنهج على صعيد التصور والتطبيق جميعاً، وإعلانٌ عن التكامل الذي يوجه إليه المنهج الرباني في حشد الطاقات كلها ـ ومتها الوقت ـ في مواجهته التحديات.

فإذا كان هذا منذ أيام الرسالة الأولى، فأي شيء نقوله اليوم، وقد ضاع ما ضاع من فرص ، واستنسر من أعدائنا البُغاث.

إن الوقت أمانة في الأعناق خصوصاً والمطلوب تدارك ما فات، والمسارعة بعزم وحزم إلى الأخذ بأسباب الوجود الذاتي، وإلا اشتد الخطب وضاقت الحيلة.

والأمة التي لا تقدر الوقت قدره ظالمة لنفسها قبل أن يظلمها الآخرون، وللواقع لغةٌ: من الغباء جهلُها أو تجاهلها!!!

* * *

الوقت.. والبناء والاستجابة للهدي القرآني.. والبيان النبوي

«٨»

في كلمات قريبات ونحن نصحب سورة ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ ﴾ ـ أو بعض آيها ـ وقفنا المعلم القرآن على ما للآيتينِ الآخيرتين من السورة الكريمة وهما قول اللّه تعالى خطاباً للنبي عليه الصلاة والسلام: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴿٨﴾﴾على مالهما من دلالة على حرمة الوقت والأهمية التي يعطيها المنهج الرباني لحفظه، وضرورة أن يكون سفينة النجاة في الآخرة؛ لأن العبرة ليست بالزمن وكفى ولكن بما يملؤه ويكون هو وعاءً له ـ خصوصاً إذا لاحظنا أن المخاطب في السورة هو الرسول عليه الصلاة والسلام المؤتمن على تبليغ الرسالة وبيان الكتاب العزيز، ناهيك عن كونه الأسوة الحسنة للأمة في دينها ودنياها، والمنوط به صياغة الفرد والجماعة وفق مبادىء الدين الموحى به وأخلاقه.

وإذا لاحظنا أيضاً أن ذلك يأتي في وقت مبكر من عمر الدعوة، والناس يتمرغون في وحال الضياع، وكهوف الوثنية والجاهلية، دونما حرمةٍ للوقت أو الإنسان، والفئةُ القليلة المؤمنة التي ترتاد للإنسانية طريقها الحضاري الأمثل، يخاطب نبيُها ـ وهو يقود مسيرتها في ذلك المجتمع الجاهلي ـ بقول اللّه تعالى: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴿٨﴾﴾ وفي ذلك ما فيه من تعليم الأمة وتنبيهها على الموقع الذي يحتله موضوع الخطاب.

ولقد تتضح أهمية ذلك في منهج البناء، أكثر وأكثر، إذا نظرنا إلى السورة نظرة متكاملة ذاكرين ما للنعم الربانية الكريمة التي عدَّدتها الآيات الأُوَل من مكانة فُضلى في حياة الرسول عليه الصلاة والسلام ودعوته ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا

عنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾﴾.

ولا يخفى أن الرسول عليه الصلاة والسلام ـ بأدبه الجمِّ مع مولاه وخُلقه التي هو القرآن ـ أجدر مَن يحقق بسلوكه معنى الشكر، فيواجه بذلك تلك النعم العظام. وكان من إكرام اللّه وفضله أن دلَّه على ما به يكون الشكران الحقيقي لها، وحثّه على ذلك بالأمر الصريح؛ ولذلك ما له من الحكم البالغات في حياته ﷺ، وفي حياة الأمة من ورائه؛ خصوصاً إذا لاحظنا الشرط وجوابه: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴿٨﴾﴾.

وإذا كان الأمر كذلك: فحثُّ المصطفى عليه الصلاة والسلام على القيام بما يتحقق معه شكر ذلك العطاء الرباني ـ بدءاً من شرح الصدر ـ بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾﴾ الآيتان؛ يوحي بالمكانة العظيمة لمقابلة النعم بالشكر الحقيقي، وعدم الوقوع في أن تستغرق النعم العبد استغراقاً ينسيه مُسبّبَها الكريمَ المتفضل جل شأنه، كما يوحي بالحجم الكبير الذي يأخذه الوقت في ميزان القيم، ووجوب أن يعمل المسلم وفق ذلك، وأن يصحب تحركه ما يقتضيه ذلك من أن تقدر الأمة عظيم المكانة التي يجب أن يحظى بها الوقت على سلم الاهتمامات في مناهج البناء تصوُّراً وتطبيقاً.

ومما هو جدير بالذكر: أن قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾﴾ كما دلَّ على ما أشرت إليه، دلَّ على المادَّة التي يجب أن يملأ بها الوقت ـ وله من القيمة ما له ـ.

فالساعات هي الساعات، والليل هو الليل، والنهار هو النهار؛ ولكن العبرة بما يتقضَّى به الليل والنهار، وتتقضَّى معه الدقائق والساعات في عمر الإنسان الذي خلقه اللّه في أحسن تقويم لتحقيق العبودية الخالصة لله في الأرض ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ١-٦].

فالذي طلب من النبي ﷺ، وهو يقود معركة التوحيد مع الوثنية، والحق مع الباطل، بتلك الفئة القليلة المؤمنة الصابرة على أذى المشركين.. أن يشغل الوقت بالانتقال من خير فرغ منه إلى خير يستقبله بالتعب ـ النصَب ـ والجهاد؛ والصبر والمصابرة؛ ذلك لأن قضاء الأوقات ـ وهو ما يجب أن يتمثّله أولئك الذين يُعدُّهم للمجتمع المرتقب ـ بالضارِّ السيئ، أسوأ من إهمالها والزراية بها في عطالة وبطالة، بل الواجب أن يعملوا الخير ويصحب عملهم صدق النية والإخلاص ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴿٨﴾﴾.

والحق أنه ليس من حياد في هذه القضية ذات الموقع البالغ الأهمية في حياة الفرد والأمة؛ فالوقت إن لم يشغله المرء بالنافع من القول أو العمل أو التفكير السليم، كان ضرراً وخسارة لصاحبه وللجماعة؛ فما بالك إذا أساء فيه وظلم؟! وقديماً قالوا: «الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك».

ولقد نعى الله على أولئك الجاحدين الصادِّين عن سبيل الله، رغبتهم في أن يخرجهم الله من النار ليعملوا صالحاً غير الذي كانوا يعملونه.. نعى عليهم هذه الرغبة الفارغة بعد فوات الأوان، وقد قطعوا أعمارهم ـ على طولها ـ في الدنيا بكل ما هو ضلال، ومظاهرة للباطل على الحق؛ فلا إيمان ولا طاعة، ولا ذكر ليوم الحساب. قال تعالى في سورة فاطر: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾[فاطر: ٣٦-٣٧].

هكذا يدعون ربهم أن يخرجهم الله من جهنم ليصلحوا ما فسد ـ على زعمهم ـ فيقال لهم: ﴿أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا﴾ ـ يعني وقت ـ ﴿ يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ﴾ أي الرسول ﷺ فما أجبتم وأفنيتم أعماركم فيما كان سبباً فيما آلت إليه عاقبتكم من الخسران المبين.

هذا: والنظرة المستقبلية التي تلحظ ما يجب من اختصار المسافة بين الواقع وبين ما يجب أن يكون، تقتضي، في ظل ما دل عليه المعلم القرآني استتارةً بقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴿٨﴾ ﴾ تقتضي تذكُّر حقيقة بالغة العظة والتنبه، طرحها رسول الله ﷺ على طريق أمته أمة الشهادة على الناس، تلك الحقيقة هي مسؤولية الإنسان أمام الله يوم المعاد، عن عمره ـ بعامة ـ وعن شبابه ـ بخاصة ـ كيف أمضى الزمن، وبأي شيء شغله في حياته، وهل قدَّر قيمة ذلك حق قدرها، أم تهاون وخاض مع الخائضين، وسها ولها مع الساهين اللاهين؟! ذلكم ما روى الترمذي في سننه ـ الجامع الصحيح ـ عن أبي برزة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة من عند ربه حتى يسأل عن خمس: عن عمره فيمَ أفناه، وعن شبابه فيمَ أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه، وفيمَ أنفقه، وماذا عمل فيما علم».

إن تنمية الإحساس بأهمية الوقت في حياة المسلم وشكر الله بملئه بالطيب النافع، والإدراك العميق للمسؤولية عنه ـ عموماً ـ أمام الله عز وجل، ضرورة توجبها تطلعات الأمة إلى تجديد مسيرة الخير في التاريخ ـ وهي على عتبة يقظة كفايتها مقومات ذات أهمية وعمق حضاري، ليس أقلها ـ بعد طاعة الله تعالى ـ الحفاظ على الوقت، وشغله بما يرضي الله ورسوله، ويعود بالنفع على الفرد والجماعة.

ولعل من المهم حقاً أن نذكر أن أعداءنا الظاهرين والمستبطنين، حريصون على الوقت، يملؤونه بما يعتقدون أنه الخير لهم ولأممهم، ومن ذلك رسم الخطط لإفناء المسلمين لو أمكنهم، ناهيك عن المواجهة والتحديات في شتى الميادين.

إن الخطاب الرباني لرسولنا الأسوة الحسنة صلى الله وسلم وبارك عليه في حقبة مباركة من عمر الدعوة بقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴿٨﴾ ﴾ أمانة لها من الثقل والخطورة ما لا يتجاهله إلا من سفه نفسه وحادَ عن الطريق السوي.

من ثمرات بناء الإنسان.. على صعيد الواقع

«١»

عندما يكون الحديث عن بناء الإنسان على العقيدة وتكوينه التكوين الصحيح المتكامل.. وما يترتب على ذلك من قدرة هذا الإنسان على الإسهام في بناء المجتمع، وإغناء ميادينه المختلفة بالخير والعطاء.. عندما يكون الحديث عن ذلك دونما غفلة: تبرز أهمية الوقائع العملية التي تبدو ـ في حقيقتها ـ وهي صورة ناطقة بالأثر الإيجابي الذي خلفه البناء وأثمره التكوين الصحيح... ولا نريد أن نبعد النجعة فنستنطق الحوادث التي حكمت مسار التاريخ بفعل أولئك البررة الذين كان بناؤهم على العقيدة ووضعت الإمكانات والمواهب في خدمتها... ولكن نعود بخطوة قريبة إلى كلمات سبقت لنرى أيَّ شيء كان من معقل بن يسار رضي الله عنه بعد نزول الآية الكريمة التي نهت عن أن يعضُل المسلم من ولاه الله أمرَها فيمنعها من الرجوع إلى زوجها وهي قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾﴾ [البقرة: ٢٣٢].

فقبل نزول الآية الكريمة كان من قول معقل لأبي البدَّاح بن عاصم الذي طلق أخته وعاد يخطبها منه بعد أن انقضت عدتها.. كان من قوله له: يا لكع بنَ لكع أكرمتك بها، وزوجتكها فطلقتها، والله لا ترجع إليك أبداً، آخرُ ما عليك.. ونزلت هذه الآية الثانية والثلاثون بعد المئتين من سورة البقرة تنهى المؤمنين عن صنيع معقل، وتذكرهم بإيمانهم، وأن اتباع ما أمر الله في عدم عضل الرجل من ولاه الله أمرها هو من مقتضيات الإيمان بالله واليوم الآخر ﴿ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ فما كان من معقل ـ

وهو الذي بنتّه يد محمد الصنّاع ﷺ على الكلمة الطيبة «لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه» ـ إلا أن راجع نفسه وقال: سمعٌ لربي وطاعة ثم دعاه فقال: أزوجك وأكرمك، زاد ابن مردويه: وكفرت عن يميني. وفي رواية أنه قال رضي اللّه عنه: سمعاً لربي وطاعة ودعا زوجها ـ أي الذي كان طلقها ـ فزوجها إياه. ويستدل من بعض الروايات الأخرى أن الرسول أبلغه ـ كما يبدو ـ الآية الكريمة فقال: الآن أقبل أمر رسول اللّه ﷺ.

هكذا فعلت الكلمة القرآنية فعلها في نفس معقل، لما أنها صادفت قلباً خالطته بشاشة الإيمان، فكان من وراء ذلك النماء للمسؤولية والطهر للقلوب (ذلكم أزكى لكم وأطهر...) وأعيد بناء جديد لأسرة جديدة علمتها التجارب. وعم تكون روافد المجتمع قوية منتجة إذا أحكم بناء الأفراد على العقيدة، ونما في نفوسهم شعور صادق بالمسؤولية، الأمر الذي يجعلهم يندفعون إلى الواجب وهم يحسّون أن وجودهم الذاتي مرتبط بتحمل المسؤولية والقيام بالواجب، ومبتغاهم أولاً وآخراً مرضاة اللّه عز وجل.

* * *

البناء.. في هداية القرآن ودور الإنسان ذكراً كان أو أنثى

«٢»

الذين تسعفهم النظرات الشاملة الدقيقة حين يمارسون عملية البناء في المجتمع، ويرتادون له طرائق التنمية والتحول الدائم إلى ما هو أفضل.. هؤلاء العاملون الجادّون لا بد أن يضعوا في حسبانهم ـ وهم يفعلون ذلك على صعيد المجتمع المسلم ـ: ما هدت إليه معالم الكتاب العزيز من جعل المسؤولية قدراً مشتركاً بين ذكور الأمة وإناثها كلٌّ حسب مؤهلاته وطاقاته التي فطره الله عليها.. وذلك ما أشرنا إليه غير مرة فيما سبق من القول في هذه الأحاديث. إلا أن الذي أريده في حديث مرصول بما كنا بصدده في مناسبة قريبة: أن أشير إلى أن ما هدت إليه معالم الكتاب الكريم وبيانها من سنة النبي عليه الصلاة والسلام بشأن المرأة وإطلاقها من أسار الجاهلية التي كانت تظلمها وتصادر إرادتها في نفسها وفي مالها.. ما هدت إليه هذه المعالم الخيرة وبيانها من السُنَّة كما رأينا في عدد من الآيات كان آخرها الآية الثانية والثلاثون بعد المئتين من سورة البقرة، مرتبط ـ والله أعلم ـ أيما ارتباط بما نلمح إليه من أن المسؤولية في بناء المجتمع وإغناء ميادينه بالعطاء والنماء قدر مشترك بين ذكور الأمة وإناثها كل حسب تكوينه وما فطر عليه؛ فالنساء اللواتي يخاطب الله المؤمنين في شأنهن بقوله سبحانه في سورة النساء: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا (١٩) وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ

شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ [النساء: ١٩-٢٠] واللواتي نزل فيهن قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾ [البقرة: ٢٣٢].

هؤلاء النسوة المؤمنات اللاتي نزلت فيهن هذه الآيات ـ وأمثالها كثير في كتاب اللّه عز وجل، ـ هن اللواتي نزل فيهن أحكام تتعلَّق بالبيعة، والهجرة، والتكاليف وعاقبة الإيمان والعمل الصالح في الدنيا والآخرة، وما إلى ذلك من أمور تتجاوز البيت إلى المجتمع في كيانه العام وبنيانه الذي يقوم على العقيدة وأن يكون أبناؤه على شعور بالمسؤولية أمام اللّه عز وجل، وأن صدق الانتماء إلى خير أمة أخرجت للناس يعني أن يبرهن المرء ـ رجلاً كان أو امرأة ـ على صحة إيمانه وصدق يقينه بالعمل الصالح والجهاد المستمر، وبذل كل ما من شأنه توفير القوة الذاتية للمجتمع والدفع بعجلة التقدم المبصر الواعي إلى الأمام في ضوء ما شرع اللّه وأيده الواقع العملي التطبيقي في تاريخ هذه الأمة.

ولسوف نرى فيما سيأتي إن شاء اللّه بعضاً من تلك الآيات التي نشير إليها والأمل معقود ـ بعد اللّه جل شأنه ـ على أولئك الصفوة من نساء الأمة اللاتي يَعِينَ الأمور من منابعها، ويدركن إدراكاً عميقاً أن الخير للمرأة وللرجل جميعاً يبدأ من هنا، من معين الهداية الربانية التي أعطاها صفتها العملية رسول اللّه محمد ﷺ وهو يبني الإنسان، والمجتمع اللائق بالإنسان.

* * *

الإنسان المؤهَّل الحر وبناء الشخصية.. واستخدام المصطلح

«١»

عندما تعزم الأمة المسلمة عزمها على الرحلة المضنية لتحقيق الذات، وبناء الشخصية التي تعتز بالانتماء إلى خير أمة أخرجت للناس وتبرهن على صدق هذا الانتماء.. فما بدَّ من أن توطّد دعائم التميز والاستقلالية في التفكير، وأن يكون للمصطلحات المتسقة مع ذلك التفكير سلطانها على السلوك في الأقوال والأفعال وكل ما هو من بناء الحياة بسبيل.

ولنا من المنهج الرباني في معالم الكتاب العزيز ما يشفي الغليل ويقنع من أراد مقنعاً. ذلكم ما نجده في سورة البقرة من قول الله تعالى خطاباً للمؤمنين وهم يتحررون من ربقة الجاهلية ويبنون الوجود الذاتي للأمة وذلك في الآيتين الرابعة والخامسة بعد المئة من سورة البقرة: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾[البقرة: ١٠٤-١٠٥] نهي المسلمون في هذه الآية عن أن يقولوا ﴿رَاعِنَا﴾وأمروا أن يقولوا بدلاً عنها ﴿انظُرْنَا﴾ وقصة هذه القضية فيما يلي:

إن صياغة الفرد وصياغة المجتمع من وراء ذلك، تابعتان للعقيدة وما تمليه من منهج فكريّ. والتميز وتنمية الحسّ به ضرورة لا تخفى لتحقيق هذه المقولة. لقد كان اليهود وهم يتحرقون كيداً وحقداً على المجتمع الإسلامي الوليد في المدينة، يأتون من الكلام ما فيه تورية لما يقصدونه من التنقيص والأذى عليهم لعائن الله وشديد

غـضـبـه، فـإذا أرادوا أن يقـولوا لـرسـول اللّه ﷺ اسـمع لنا قـالوا: راعنا، ويورُّون بالرعونة، وربما أرادوا الشتيمة بالعبرية لغتهم عندما ينطقون بهذه الكلمة كما قال تعالى في الآية السادسة والأربعين من سورة النساء: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً (٤٦)﴾ [النساء: ٤٦].

وأياً كان ما أراده اليهود من التورية في قولهم: راعنا، أهو الرعونة أو ما كان أشد منها: فالمهم أنهم اتخذوا هذا المصطلح لغرض أرادوه، وجعلوا منه عنواناً لما كانوا يهدفون إليه من تنقص النبي ﷺ وإيذائه. إنهم يحرفون الكلم عن مواضعه، فيتأولونه على غير تأويله ويفسرونه بغير مراد اللّه عز وجل، قصداً منهم وتعمد افتراء. ويقولون: سمعنا ما قلته يا محمد ولا نطيعك فيه. واسمع غير مسمعٍ أي اسمع لا سمعت ولا عجب فهم المغضوب عليهم. ويقولون راعنا .في الدين. إنهم يوهمون السامع أنهم يقولون لرسول اللّه ﷺ: راعنا سمعك وإنما يريدون الرعونة وسب النبي عليـه صلوات اللّه وسـلامـه. ولو أن هؤلاء اليـهـود سلكوا السـبـيل المستقيمة الواضحة فقالوا: سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيراً لهم وأقوم. ولكن لعنهم اللّه بسبب كفرهم وتعنتهم فلا يؤمنون إلا قليلاً: ولسوف نرى في الكلمات القادمات إن شاء اللّه ما دُعي إليه المسلمون من التميز في استخدام المصطلح وبناء الشخصية المسلمة على عدم التقليد الأعمى والانسياق وراء البريق الخادع. والحمد لله رب العالمين.

* * *

مع بناء الفرد والجماعة..
والحرص على الذاتية

«٢»

كانت لنا في كلمات الماضي القريب إشارة إلى بعض من دلالة قول الله تبارك في الآية الرابعة بعد المائة من سورة البقرة: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ ﴾[البقرة: ١٠٤] وقوله جل شأنه في الآية السادسة والأربعين من سورة النساء: ﴿ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿٤٦﴾ ﴾[النساء: ٤٦].

﴿ لا تَقُولُوا رَاعِنَا ﴾ نهي صريح للمؤمنين عن أن يقولوا لرسول الله ﷺ ﴿ رَاعِنَا ﴾ رغم أن الكلمة عربية من صميم لغتهم؛ لكن اليهود استخدموها استخداماً سيئاً فدعي المسلمون إلى التميز في شخصية الفرد والجماعة وعدم تقليد اليهود فيما يقولون. وكان من حكمة الله في بناء الفرد المسلم والجماعة المسلمة على الذاتية والارتباط بقيم الرسالة أن قدَّم لهم البديل وهو كلمة انظرنا فأمروا أن يقولوا لرسول الله ﷺ إذا أرادوا مزيداً من الفهم لما يقول ويرمي إليه ﴿ انظُرْنَا﴾، فاجتمع في الآية النهي والأمر بآن واحد ﴿لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا﴾ثم أمرهم بأن يسمعوا سمع وعي وطاعة وتطبيق فقال سبحانه: ﴿وَاسْمَعُوا﴾.

وفي إشارة إلى أن الكافرين ـ وفي مقدمتهم اليهود هنا ـ يأتون بتحريف الكلم عن مواضعه والتلاعب بألفاظه ليخرجوه عن معناه: أمراً إدّاً؛ فلهم العقاب الشديد عند الله ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

ولعل من الخير ـ ونحن ننشد اليوم لأمتنا استئناف حياة جديدة يتحقق من خلالها الوجود الذاتي المتميز.. لعل من الخير ونحن ننشد ذلك والأجواء ملبدة بغيوم العدوان والمكر ـ أن نشير إلى أن الآية الكريمة التي نحن بصددها جاء بعدها قول الله جلت حكمته ﴿ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (١٠٥) ﴾.

إنها حقيقة يشير إليها الواقع في كل عصر وضمن الظروف كلها ﴿ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ و«من» هنا بيانية وليست للتبعيض، فكلهم على شاكلة واحدة، تختلف نسبة القبح والشناعة فيها حسب الاعتبارات والمصالح المنوطة بهم، ولكنهم جميعاً في تصرفاتهم اليوم كما تصرف أجدادهم بالأمس يشعرون المسلم بصدق ما دلت عليه الآية الكريمة من أن أي خير مهما دق أو جل لا يودون أن يصل إلى المسلمين. أليس في أحداث العصر ألف دليل ودليل على ذلك؟. إن تنمية الحس بهذه الحقيقة عند المسلم ضرورة من ضرورات استمرار الشخصية المسلمة قوية البنيان متماسكة الأركان قادرة على العطاء ومواجهات التحديات. وإذن فما بد من البناء على الذاتية والاستقلالية والتميُّز وتنمية الحس بذلك: وعلى هذه الساحة ما بدٌّ من أن تكون للأمة مصطلحاتها الفكرية المتميزة دونما غفلة أو تقليد يتنافى مع الذاتية والأصالة والله ولي التوفيق وهو المستعان.

* * *

بناء الشخصية.. وصورة من هدي النبوة

«٣»

ليس من مكرور القول: أن نعود إلى التذكير بأن الصورة التطبيقية العملية لهداية الكتاب العزيز في معالمه الخيِّرة نجدها على ساحة الممارسة في سيرة المصطفى عليه الصلاة والسلام، حيث كان يأخذ بيد الفرد إلى أن يكون لبنة صالحة في بناء الجماعة، وينمي في أعماق حسّه مشاعر الذاتية وضرورة التميز، كيما يكون في منهجه السلوكي وطريقته في التفكير ذلك الوجود الحي لما جاءت به الرسالة الخاتمة وحياً إلى نبينا محمد عليه الصلاة والسلام.

وقضية العدول عن كلمة استخدمها اليهود مصطلحاً ذا دلالة سيئة في خطاب النبي ﷺ إلى كلمة أخرى ﴿ لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا﴾ هذه القضية كانت لها أبعاد تجاوزت حدود المصطلحات، إلى وعي كل كلمة ينطق بها أولئك الماكرون في تعاملهم مع المسلمين وخصوصاً معه عليه الصلاة والسلام. فقد جاءت الأحاديث الصحيحة ـ كما روى الشيخان وغيرهما ـ بالإخبار عن اليهود أنهم كانوا إذا سلَّموا إنما يقولون: السام عليكم والسام هو الموت، ولذلك جاء الأمر بأن يرد المسلم عليهم إذا قالوا ذلك بقوله: وعليكم، وإنما يستجاب لنا فيهم ولا يستجاب لهم فينا.

والحق أن هذا من الرسول عليه الصلاة والسلام، يدل أبين دلالة على تلكم الدقة والإحاطة في بناء الفرد المسلم، وإعداد الجماعة المسلمة، واقتحام ما أدخل فيه اليهود على النفوس قبل الإسلام، ودك المعاقل التي بنوها خداعاً ومكراً، واستغلالهم لما يتصفون به من كونهم أصحاب ديانة سماوية أعطتهم المعرفة وسعة الفكر. فلقد

أخرج رسول اللّه الإنسان من هذه العماية وجرَّده عن التقليد الأعمى ونمّى فيه حسّ الانتماء إلى أمة التوحيد والشهادة على الناس. حتى وصل الأمر إلى مراعاة الكلمة ينطق بها اليهودي لياً بلسانه ودعاءً على المسلم بالموت حين يقول: السام عليكم، فيكون الجواب «وعليكم» فقط دون ذكر السلام.

إن قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا ﴾ وامتثال الأمر في ذلك، وما كان من هديه عليه الصلاة والسلام بشأن السلام من اليهود؛ كل أولئك حريٌّ بأن يفتح أعيننا على الواقع في العلاقة بيننا وبين أعداء اللّه، وأن يعمل من ولاهم اللّه أمر البناء على تحري الدقة وسلامة الارتباط بتلك الحقائق عند البناء، وأن يكون لإشعار الفرد بأهمية التميز والبعد عن تقليد الكفرة في منهج التفكير والسلوك: مكانة ملحوظة في ذلك البناء. وذلك ميدان يأتي في طليعة الميادين التي يجري فيها الصراع. وإحسانُ البناء فيه: مدعاة للقدرة ـ بإذن اللّه – على حشد الطاقات والتبصر في الأولويات والتمكن من المواجهة النافعة لما يتجدد من التحديات.

* * *

التناسق بين الرسالة.. وبين بناء الشخصية

«٤»

إن ما تحمله رسالة الإسلام وهي الرسالة الخاتمة، من سمات في العمق والشمول وكونها للإنسان من حيث هو إنسان بصرف النظر عن الزمان والمكان والجنس واللون والأرض وما إلى ذلك.. كل أولئك جعل العناية ببناء من يكرمهم اللّه بالاستجابة لما دعا اللّه ورسوله في شأنها: قضية طبيعية هي امتداد الدعوة إلى الإيمان والالتزام بمقتضيات الكلمة الطيبة: «لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه».

ومن هنا كان هؤلاء الذين تمتد إليهم يد البناء، في قلوبهم وعقولهم ومشاعرهم وكل ما هو من مقومات الوجود الحقيقي بسبيل.. كان هؤلاء أقدر ـ بعون اللّه ـ على صياغة الواقع الذي يتلاءم مع دعوة اللّه وينمو في ظل رسالته.

وما رأيناه فيما سبق من القول: من عطاء المعلم القرآني في سورتي البقرة والنساء شاهد صدق على ما نقول.

فالمجتمع الإسلامي الوليد الذي بدا ـ يومذاك ـ صورة فريدة في دنيا الإنسان والمجتمعات.. هذا المجتمع كان عليه أن يتخطى رواسب الجاهلية ويتحرر من عقابيلها وأن يواجه كيد يهود حتى في المجالات الثقافية والسلوكية واستخدام المصطلحات، ناهيك عن المجالات العسكرية وما كان من مظاهرتهم للشرك والمشركين ضد الإسلام والمسلمين.

من أجل هذا كان طبيعياً أن يراعى في المنهج الرباني الذي شاءت إرادة اللّه أن يصاغ عليه الفرد المسلم ـ رجلاً كان أو امرأة ـ ويبنى وفق مرتكزاته ومنطلقاته المجتمع المسلم.. أقول: كان طبيعياً أن تراعى في هذا المنهج حماية المؤمنين من

الوقوع في تقليد الأعداء ـ بعامة ـ واليهود منهم ـ بخاصة ـ فيما جنحوا إليه من مصطلحات هي صورة عن الدَخل الذي يعتمل في النفوس، وعمدية التحريف والتبديل وتأويل كلام اللّه على غير تأويله، وتفسيره بما هو على العكس من مراد اللّه تعالى.

وعلى هذا السنن المبارك المضيء جاءت الآية الرابعة بعد المئة في سورة البقرة تنهى المؤمنين عن أن يقولوا ﴿رَاعِنَا﴾ وتأمرهم بالبديل وهو أن يقولوا ﴿انظُرْنَا﴾ لما أن اليهود كانت تستخدم الكلمة على الوجه المشوّه الذي ألمحنا إليه فقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ ﴾[البقرة: ١٠٤] إنه يريد لهم التميز والاستقلال في منهج التفكير واستخدام المصطلحات التي تنتسب إلى ذلك المنهج.. إنه يريد لهم أن لا يذوب المسلم في مصطلح العدو وقيمه ومنهجه في التفكير، الأمر الذي يؤدي إلى ذوبان المجتمع وفقده لأهم مقوماته. وذلك ما يريده أعداء اللّه الذين يتربصون دائماً بالفرد المسلم والمجتمع المسلم الدوائر ويسوؤهم أن يتنزل على المسلمين أي لون من ألوان الخير، ولكن اللّه يختص برحمته من يشاء. كشف عن هذه الحقيقة بوضوح قول اللّه تعالى في الآية التالية: ﴿ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [البقرة:١٠٥].

* * *

إحكام البناء.. وتقرير المصير

الاستقلالية والذاتية

«٥»

كانت آفاقاً مشرقة مضيئة في هدي النبوة تلك التي تبدو على تواؤم عميق مع قول اللّه تعالى في سورة البقرة ناهياً المؤمنين عن التشبه باليهود في سوء استخدامهم لبعض الكلمات وما اصطلحوا عليه فيها: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾[البقرة: ١٠٤-١٠٥].

وقوله جل شأنه في سورة النساء تفصيلاً لموقف اليهود المشار إليه: ﴿ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿٤٦﴾﴾ [النساء: ٤٦].

وكان لتلك الآيات آثار برزت في الحياة العملية والمواقف التي يمكن أن تتكرر كل يوم في علاقة المسلم ـ الذي يحمل عبء البناء على أسس جديدة ترتبط بعقيدة التوحيد ـ مع اليهود الذين حُمِّلوا التوراة ثم لم يحملوها، وتراهم وأقوالُهم وأفعالهم تنضح بسوء الطوية والحقد على الإسلام والمسلمين.

اليهودي يُحَيِّي المسلمين بقوله: «السام عليكم» والسام هو الموت، فيوجه النبي ﷺ المسلمين أن يردوا هذه التحية بقولهم: وعليكم فقط دون أن يضيفوا إليها شيئاً، واللّه تبارك وتعالى يستجيب لنا فيهم، ولا يستجيب لهم فينا.

وهذا ـ في الواقع ـ لا يتنافى مع قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ [النساء: ٨٦]. لأن الرسول عليه الصلاة والسلام يعلم علم اليقين أن اليهود لم يريدوها تحية بمعناها المرتبط بالود والسلام وإنما أرادوها دعاء بالموت على من يخاطبونه من المسلمين وإلا فما معنى أن يقولوا: السام عليكم ومعناها الموت عليكم.

إن رسول اللّه بهذا التصرف يضع حداً فاصلاً بين فهم الدين كما ينبغي ـ وتطويع السلوك لهذا الفهم ـ وبين الغفلة باسم التدين، وهو ﷺ معصوم من هذه الغفلة.

ألا ليت لأبناء أمتنا اليوم وبناتها قلوباً موصولة باللّه تعي هذه الحقيقة كما ينبغي، كيما يوظف الوعي على تلك الدروب الشائكة في معالجة الواقع، واقع أمتنا مع أعدائها.. لأنه ما لم تتحرر النفوس أولاً من أدران التقليد الأعمى لأولئك الأعداء ومن الانصياع لما يملونه على صعيد الفكر وتحديد القيم وتفسير الوقائع: فلا فائدة تذكر في ميادين المواجهة ورد التحدي باللغة المناسبة.

إن ظاهرة الوعي العميق لتحركات اليهود التي تصل في عصر النبوة إلى وزن الكلمة يخاطبون بها رسول اللّه، أو التحية المزعومة يلقونها على طريق المسلمين.. إن هذا الوعي العميق الذي نما وتعاظم في ظل معالم الكتاب: جدير أن يوقظ الأمة على مطارق البغي وأن يفتح الأبصار وينير البصائر في شتى ميادين البناء كيما تكون الأمة على السنن الذي يردُّ العاديات في الدنيا وتحسن معه العاقبة يوم الدين.

* * *

بناء الإنسان المسلم الذاتي..
وأهمية النظر في المصطلحات

«٦»

ما جئنا على ذكره في كلمات خلت وما سبقها من قضية الرد لتحية اليهود الفاجرة للمسلمين وهي (السام عليكم) بالقول (وعليكم) فقط لم تكن القضية الوحيدة في هدي النبي ﷺ في ظل قول الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (١٠٥)﴾[البقرة: ١٠٤-١٠٥].

أجل: لم تكن القضيةَ الوحيدة في هديه عليه الصلاة والسلام وهو يسير في بناء الفرد المسلم على الجادة التي تجعل من هذا المسلم ـ بعون الله ـ قوة قادرة على بناء المجتمع الأنموذج الذي يصوغ المبادىء والقيم وجوداً متحركاً على ساحة العمل وتسيير دفة الحياة في كل الأصعدة والميادين.

بل إنه ﷺ، تجاوز تبصير المسلمين بمخاطر التقليد الأعمى لليهود، والنظر بحذر إلى ما كان يصدر عنهم من مصطلحات كما في قولهم لرسول الله: راعنا، وقولهم للمسلمين: السام عليكم.. تجاوز ذلك وهو يؤدي أمانة البيان لكتاب الله العزيز ويسهر على بناء الإنسان لبنة بعد لبنة إلى مصطلحات درج الناس عليها في الجاهلية فأمر بتركها، كما استبدل ببعضِ المصطلحات أخرى تكون على اتساق مع مفهومات الرسالة الخاتمة التي أؤتمن النبي الكريم ﷺ على إبلاغها وتربية المسلمين عليها.

كل أولئك، كيما تكون للمؤمن شخصيته المتميزة التي يستطيع من خلالها أن يسهم في بناء مجتمعه بل وأمته باستقلالية وأصالة وتميز على خط وثيق الصلة دائم الارتباط بعقيدة التوحيد ومنهج الحياة الذي كانت ـ كما شاء اللّه ـ عنواناً عليه.

فقد روى البخاري ومسلم واللفظ هنا لمسلم عن أبي هريرة رضي اللّه عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «لا تسموا العنب الكرم، فإن الكرم المسلم» وفي رواية «فإنما الكرم قلب المؤمن» وفي رواية أخرى للبخاري ومسلم «يقولون الكرم، إنما الكرم قلب المؤمن». وقصة ذلك أن العرب كانوا يسمون العنب كرماً لما يدَّعون من أن ما يعتصر منها من الخمر تحدث في قلوب شاربيها الكرم، فنهى ﷺ عن هذه التسمية التي تشعر بمدح الخمر ـ كما يقول الإمام ابن الجوزي ـ لتأكيد ذم الخمر وتحريمها، وعلم أن قلب المؤمن لما فيه من نور الإيمان أولى بذلك الاسم. وعلى الطريقة الإيجابية في التربية والإبلاغ وتنمية الحس الصادق بالانتماء أمرهم ﷺ بالبديل عن كلمة الكرم. فقد روى مسلم عن وائل بن حجر رضي اللّه عنه عن النبي ﷺ قال: «لا تقولوا الكرم ولكن قولوا العنب والحَبلة».

وتقديم البديل عن المصطلح المطلوب تركه هو ما رأيناه من قبل في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا ﴾ ، فقد نهاهم اللّه ـ كما أسلفنا ـ عن الكلمة الأولى وهي راعنا؛ لأنها أصبحت مصطلحاً ماكراً لليهود في خطابهم للنبي ﷺ وأمرهم بالبديل منها وهو كلمة ﴿انظُرْنَا﴾وهكذا يتساوق البيان في الهدي النبوي مع المبيِّن في معالم الكتاب الكريم على طريق ممتدة عبر تاريخ الإنسانية الطويل هي طريق البناء السليم الذي يهدف إلى إسعاد الإنسان في الدنيا والآخرة. وهو ما يطمح إليه الموفقون.

* * *

بين الواقع.. ودلالة المنهج الرباني في البناء

«٧»

كلما تبصر المؤمن بواقع الأمة اليوم وما يقع من ضحايا المصطلحات والتقليد الأعمى من أبنائها ازداد يقيناً بإعجاز الكتاب الكريم، وما لمعالمه الخيرة من أبعاد عميقة ومتسعة في تاريخ المسلمين بخاصة وفي تاريخ الإنسان بعامة.

هذه الكلمات الجامعة في قول اللّه جل شأنه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [البقرة:١٠٤]. تبدو في وجه من وجوه دلالتها مفصلاً في قضية تتعلق بطريقة اليهود في خطاب النبي ﷺ وليِّ ألسنتهم بكلمة ﴿رَاعِنَا﴾ العربية وهم يقصدون بها معنى سيئاً يتفق مع ما ينطوون عليه من حقد ومكر بالغين، وإن على المسلمين أن يعدلوا عن استعمال هذه الكلمة إلى كلمة أخرى هي ﴿انظُرْنَا﴾.

ولكن الوجه الآخر من وجوه الدلالة يبدو ـ واللّه أعلم ـ أشمل من سبب النزول، إذ إنه عنوان عريض تتجمع تحته كل المقولات التي تعني إحكام البناء لشخصية المسلم ولكيان المجتمع والأمة وأن لا تتجارى بأبنائها الأهواء فيكون كل قبيل تبعاً لزمرة من زمر الكافرين، وأن يحال دون الفرد والجماعة ودون الذوبان في مصطلحات الآخرين حيث يتم ذلك عن منهج متكامل في الفكر والقيم والسلوك.

ولقد كان من دلائل نبوته عليه الصلاة والسلام أنه كان يترسَّم في القضية المشار إليها وفي غيرها منهج اللّه في كتابه الكريم، يترسمه بأمانة لا نظير لها، وهو يبلّغ ويبيّن، ويبني حملة الرسالة على العقيدة والعلم والعمل والجهاد، يبنيهم على سلامة الانتماء وصدقه، كيما يكونوا قادرين على صياغة الحياة وقد مكَّن اللّه لهم في الأرض وفق ما جاء بالمنهج الرباني في كتاب اللّه وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام.

وقد رأينا في صفحات سلفت بعضاً من الهدي النبوي المتسق مع الدلالة العميقة الشاملة على طريق البناء وإنماء ذاتية الإنسان المسلم في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ ﴾[البقرة: ١٠٤] .وكان من ذلك نهيه ﷺ عن تسمية العنب كرماً، حيث كانت العرب تسميه هذه التسمية صورة عن امتداحها للخمر التي تعتصر منه، والمسلم بما في قلبه من نور الإيمان أحق أن يسمى بذلك «لا تسموا العنب الكرم، فإن الكرم المسلم، «يقولون الكرم إنما الكرم قلب المؤمن». إن رسول اللّه ﷺ يريد للمسلم أن يكون على يقظة تامة ووعي كامل في أقواله وأفعاله وتصرفاته جميعاً، وأن يكون ذلك كله متسقاً مع العقيدة التي يحملها والأحكام المنبثقة عن تلك العقيدة. وذلكم هو الإنسان صاحب الرسالة، الذي يجب إحكام بنائه عليها اليوم؛ فالواقع والأحداث المتجددة كلها تملي ذلك وتوجبه، وذلكم هو النواة الحقيقية لجيل التغيير الذي تتطلع إليه الأمة كيما تشرق شمس الحضارة الإسلامية من جديد، ويعود للإسلام وجوده العملي في دنيا الناس ويسعد الإنسان فيجد ذاته في ظل عقيدة هي كلمة اللّه لإسعاد البشرية.﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾[ق: ٣٧].

* * *

التمييز في البناء.. ووحدة المنهج في البيان والمبيّن وسلامة الكيان

«٨»

لقد كان عطاءُ الآيتين الرابعة بعد المئة والخامسة بعد المئة من سورة البقرة وفيراً وقفنا المعلم القرآني على بعض منه في تلكم الكلمات السابقات من قريب والآيتان هما قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا ﴾الآيتان.

وقد وقفتنا السُنَّة المطهرة أيضاً في بعض من أحاديث النبي ﷺ على وحدة المنهج بين المبيَّن وهو الكتاب العزيز والبيان وهو حديث رسول اللّه عليه الصلاة والسلام. وكان لنا شرف النظر في قبسات من الهدي النبوي بشأن سلام اليهود، عليهم وعلى من يكون على شاكلتهم لعنات اللّه، وبشأن تسمية العنب كرماً ونهيه ﷺ عن ذلك وتقديم البديل. وعلاقة هذا جميعه بسلامة الكيان عند الفرد وضمان التماسك والتميز في المجتمع: واضحة لا يماري فيها إنسان ذو بصيرة.

ونحن اليوم على موعد مع أنموذج آخر من نماذج الهدي النبوي الذي نرى من خلاله مرة أخرى وحدة المنهج من البيان والمبيَّن، كما تتبدى لنا ما تميز به منهج رسول اللّه في البناء ـ وهو يبين عن اللّه ما أراد ـ ما تميز به عن الشمول والعمق وتنمية الأواصر بين شخصية المسلم وبين الرسالة التي آمن بها.. حتى إذا قدَّمَهُ رسول اللّه إلى أداء الأمانة في عمارة الأرض والتمكين لدين اللّه عقيدة وشريعة وإنشاءاً للواقع المبتغى.. قدَّمه راسخ القدم معتزاً بدينه وقيمه مقبلاً على العطاء بعقل متفتح وقلب مشرق بنور الإيمان، يبني بلا كلل ويعمل من أجل مجتمعه وأمته، ويجاهد في سبيل اللّه آخذاً بالأسباب متوكلاً على اللّه معتمداً عليه.

فعن زيد بن خالد رضي اللّه عنه قال: صلى بنا رسول اللّه ﷺ صلاة الصبح بالحديبية في إثر سماء كانت من الليل، فلما انصرف أقبل على الناس، فقال «هل تدرون ماذا قال ربكم؟» قالوا: اللّه ورسوله أعلم. قال: قال: أصبح من عبادي مؤمن بي، وكافر، فأما من قال: مُطِرنا بفضل اللّه ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مُطِرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب» متفق عليه. والسماء هنا: المطر.

إن الأمر هنا متصل بالعقيدة أيما اتصال، ولا يستقيم في ميزان التوحيد الخالص: أن يؤمن المرء باللّه تعالى ثم يُسند إنزال المطر إلى كوكب من الكواكب مثلاً أو إلى أية قدرة أخرى غير قدرة اللّه تعالى فذلكم هو الشرك بعينه ـ والعياذ باللّه ـ وبناء شخصية المؤمن على اعتقاد أن تصريف الكون بما في ذلك نزول المطر هو من اللّه عز وجل ـ وفق قوانين وضعها بحكمته: هو حجر الزاوية في المنهج السليم التي يجعل من المؤمن إنساناً لا تمزقه الشكوك ولا يقع في حمأة التناقض بين إيمانه باللّه، وإسناد الأفعال إلى غيره.

وإلى أن نلتقي على مزيد من التجلية النافعة لهذه المقولة العظيمة الحكيمة التي تطرح السنة المطهرة نماذج منها على طريق الإنسان حيث كان الرسول ﷺ يقدم للإنسانية في كل زمان ومكان الإنسان القادر على بناء المجتمع الأمثل وصياغة شؤون الحياة على الشكل الذي يتفق مع سنن اللّه في الكون وطبيعة الإنسان كما خلقه اللّه.

إلى أن نلتقي على هذا إن شاء اللّه أود أن أشير إلى أن نسبة الأمر إلى اللّه هو ما يتفق مع الحقائق العلمية الثابتة لأن اللّه هو الذي خلق الأسباب ـ كما أسلفت ـ وسيَّر الكون على سنن، وجعل من هذه السنن: ارتباط المسبَّبات بالأسباب؛ فحينما تتوافر الشروط المؤهلة لنزول المطر ينزل بقدرة اللّه تعالى لأن ذلك (سننه وسنته) ولو أراد أن يتخلف المسبَّب عن السبب لحصل ذلك التخلف.

لذا كانت عناية الإسلام بالعلم قضية أساسية لا يماري فيها منصف، والعلم التجريبي ـ مع الإنصاف ـ يزيد من يقين المؤمن بقدرة اللّه وما أقام عليه الكون من سنن ﴿...كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ [فاطر:٢٨].

* * *

الإنسان والعهد المكي..
وخطوات البناء مع أنقاض الجاهلية

فواتح سورة القلم

لا يعوز الناظر في آي الكتاب العزيز، ومعالمه الناطقة بالهدى، الدالة على طرائقه: أن يقع على كثير كثيرٍ مما يبعث في النفس اليقين بأن خطوات البناء، وإعداد المسلم القادر على المشاركة الفعَّالة في عمليته المتعددة الأبعاد المتنوعة الميادين ـ ذكراً كان هذا المسلم أو أنثى ـ بدأت منذ أشرقت على العباد شمس العهد المكي من تاريخ الدعوة المباركة التي هي دعوة الحياة: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) ﴾ [الأنفال: ٢٤].

أقول هذا، والحديث موصول بما أسعدنا به المعلم القرآني ـ فيما سلف ـ من عطاءٍ في بعضٍ من فواتح سورة «القلم» التي صحبنا منها، بدءاً من الآية العاشرة قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ (١٠) هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (١١) مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ (١٣) أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (١٤) إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٥)﴾ وقوله بعد ذلك: ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ (١٦)﴾[القلم: ١-١٦].

ولقد سُبق هذا النهي الذي نشهده في هذه الآيات هنا: بنهي عن الركون إلى المكذبين، أولئك الذين لا يقفون عند التكذيب الذي هو صفة ملازمة لهم، والإنكار الذي يصحبه، بل يتجاوزون ذلك إلى ما هو أدهى من ذلك وأمرُّ، وهو تمني أن يترك

أهل الحق حقهم إلى ما هم عليه من الباطل والضلال، فيودُّون ـ بكل صفاقة ـ لو يركن رسول الله ﷺ إلى آلهتهم ويدع ما هو عليه من الحق الواضح الأبلج والدعوة إليه.

ولا تعجب إذا قوبل ذلك بالنهي الشديد عن طاعتهم بالدعوة إلى هذا الهراء في خطاب للنبي ﷺ بقوله تعالى ـ كما أسلفنا ـ: ﴿ فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾﴾.

إن هذا النهي الجازم عن التزحزح عن الحق في العهد المكي ـ حيث الخطوت الأولى على طريق الدعوة، الطريق المملوء بالمصاعب والأشواك الجاهلية ـ بعد الشهادة الربانية للرسول عليه الصلاة والسلام بأنه على خلق عظيم وذلك بقوله جل شأنه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾....

إن هذا النهي ـ والله أعلم ـ محضنٍ لبناء النفوس ـ يا له من محضنٍ، وحافز للوقفة الثابتة القادرة على الاستمرار ـ مهما كانت الفتن والصعوبات ـ يا له ـ بإذن الله ـ من حافز.

ولا نكران بأنه إذا لم تواجه معاقل الهدم والهدامين الذين يديمون رفع معاول الهدم والضلال، ويحسبون أنهم مهتدون: بمثل هذا الموقف؛ صبراً وثباتاً من داخل النفس، وتحملاً للأعباء ـ ابتغاء مرضاة الله ـ مهما ثقلت تلكم الأعباء: فلا فائدة ترتجى على ساحة البناء الذي هو الترجمان العملي لحقائق الدعوة، وتحقيق ما يرمي إليه المصلحون الصادقون من تغيير في كيان الفرد والجماعة إلى ما هو أفضل وأقوم، كما أمر ربنا تبارك وتعالى، وبيَّن الرسول المصطفى عليه الصلاة والسلام.

والواقع أن رسول الله ﷺ لم يكنْ في ارتياده لمحاضن البناء، يُعدُّ فيها لمجتمع معافىً من إسار الجاهلية، مرفوع القواعد على هدي الشرعة المباركة، ولم يكن فيما يصر عليه من تنمية كل طاقة من طاقات الفرد المسلم، بدءاً من أول يوم يسعد فيه بالإيمان، وتخالط البشاشة قلبه..

لم يكن في ذلك كله على سلام حقيقي مع العدو القريب من حوله، أو البعيد المتربص، بل ما كاد يضع قدمه على الطريق التي أوحت بها الرسالة الخاتمة، في البناء المطلوب على أنقاض الجاهلية، ولمّ شعث الأمة، وتجميع طاقاتها المبعثرة الضائعة هنا وهناك! حتى شمرت الفتنة عن الدين عن ساقها، وناصبه العداء جهرةً على الملأ أناس هم من أقرب الناس على عمود النسب إليه.

من أجل ذلك ـ والله أعلم ـ كان لا بد من التبيُّن على الوجه الذي ينبغي، وإحكام اللبنات الأولى، في ترقب للمستقبل البعيد، والمهامه التي ما بدٌّ من أن يقطعها أولئك النخبة الذين وطَّنوا أنفسهم على المشاركة في رحلة البناء.

وإذا كان الأمر كذلك: فحريٌّ بالناظر المتبصِّر أن يدرك الأهمية البالغة لما نقع عليه في آي الكتاب الكريم ـ فواتح سورة القلم ونظائرها كثير ـ من كشف النقاب عن أنموذج للمسلك الأخلاقي المنحرف، والتفكير المستعبَد للهوى، اللذين كانا يحكمان تصرفات واحد من سدنة الضلال الصادّين عن سبيل الله؛ وذلك ما أشرنا إليه فيما سبق من القول، وهو ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾﴾.

أرأيت إلى ما يحمل هذا النقد المبكِّر للانحراف الأخلاقي والمنحرفين في أوائل العهد المكي: من توجيه مبكر أيضاً للإنسان المسلم الذي دان بدين الحق ـ ذكراً كان أو أنثى ـ أن يكون على الجادة تأسياً بنبيه ﷺ الذي أثنى عليه المولى عز وجل في خطاب صريح لا يحتمل شيئاً من التأويل أو اللبس ـ بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾.

ذلك بأن المنهج الذي تشير إليه الآيات في أخلاق ذلك العتُلّ الجاهلي: منهج قاتل لصاحبه من الناحية المعنوية التي يتمثل فيها الوجود الحقيقي للإنسان، مدعاة لتحلخل المجتمع وتقويضه على رؤوس بنيه.

والكلمة أولاً وآخراً لتلكم الأخلاق التي هي بمنأى عن ذلك المنهج المنحرف، الأخلاق الكريمة التي تحمل أصحابها على أن يحسنوا التعامل مع الآخرين، ويكونوا قدوة طيبة في سلوكهم، وأن يضعوا الأمور مواضعها، ويتحملوا تبعات البناء التي من مقتضياتها تنميةُ القدرة الذاتية للأمة بصبر وثبات.

وفي خاتمة المطاف: لشدَّ ما تستوقف الناظر ببصيرة إلى تلكم الآيات المتدبِّر لها تدبراً ملحوظاً معه السياقُ والسباق: تلكم العقوبة التي توعد اللّه بها ذلك الرجل الذي ذكرت الآيات من صفاته المنكرة ما ذكرت: ﴿ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ ﴾.

هكذا يأتي يوم القيامة وقد وُسِم على الخرطوم كناية عن مزيد من الذلة والصَّغار، مع التنبيه المروِّع لكل من تسوِّل له نفسه سلوك هذه السبيل التي كلها تجاوز وانحراف!

وفي ذلك ـ على وجه التقابل ـ ما فيه من الارتفاع بالفرد المسلم من الجماعة المسلمة إلى المستوى الذي يتحقق معه ـ ولو في المستقبل القريب غير المنظور على سلَّم الأسباب والمسبَّبات الأرضية ـ الحفاظ على سلامة القواعد المراد رفعها في بناء تنشده الدعوة الجديدة؛ سلامةَ فكر، واستقامة سلوك، وتبديداً لظلمات الجاهلية التي كانت مرخية سدولها على القلب والعقل والسلوك قبل الإسلام ـ ومن لم يجعل اللّه له نوراً يهتدي به في حالك الظلمات القلبية والنفسية: فماله من نور.

* * *

البناء.. واستخدام وسائل المعرفة
أبو سفيان وهرقل.. والتوجيه القرآني

«١»

كان فيما وقفنا عليه المعلم القرآني في موضوع العقل واستخدام وسائل المعرفة على الوجه الذي ينبغي: أن وجهة الكتاب العزيز ـ وهي الوجهة القرآنية الربانية في بناء الإنسان وتوجيه حركة الحياة ـ وجهةٌ واضحة في ضرورة أن يستخدم الإنسان عقله، ووسائل المعرفة التي وهبها اللّه سبحانه له، ولا يغيبها تحت وطأة الأهواء، والتقليد الأعمى، والنزعات الجاهلية التي لا تسمن ولا تغني من جوع!

ليس ذلك فحسب؛ بل أن يتأمل ويتدبَّر، ويُعمِل عقله ووسائل المعرفة المومى إليها في نفسه وفي الآفاق، ليظفر بما يثمر ذلك من الخير الكثير، وأن يكون على تجرد وإنصاف عند نشدان الحقيقة ـ بعد أن يكون مبتغاه الوصول إليها ـ وعند الحكم على الأشخاص رضىً وطمأنينة، أو نكراناً ورداً. وعلى الدعاوى والوقائع والأعمال دون رواسب تؤثر في أيٍّ من تلك الأحكام.

ومن أجل ذلكم، جعل الكتاب العزيز من لا يفعلون ذلك، ويقعون فريسة للشهوة والهوى: في عداد من حرموا من ذلك الضياء، فليس لديهم أية أداة من أدوات الحكم والوصول إلى الحقيقة؛ فلا قلوب تفقه، ولا آذ ن تسمع، ولا أعين تبصر؛ فهم عن الحق غافلون، وفي عماية الغيِّ سادرون.

ومن النصوص الناطقة بذلك ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ: قول اللّه تبارك وتعالى في الآية التاسعة والسبعين بعد المئة من سورة «الأعراف»: ﴿**وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾**﴾.

والدرس العظيم من هذه الآية ونظائرها على طريق البناء؛ واضح في توجيه من يسعدهم نور الإيمان، ويولون وجوههم شطر الحق الذي نزل به الكتاب ـ بدءاً من أول الطريق في العهد المكي ـ إلى استخدام ما أعطى اللّه الإنسان من وسائل المعرفة بحصافة وإحسان، وأن مهمة البناء الكبرى التي رشح المؤمنون لها لا مكان فيها لأولئك الغافلين الذين يستبدلون ظلم الحقيقة، والانصياع للهوى بما له من مطالب هابطة، والإذعان للتقليد الأعمى: بالنظرات العاقلة المتدبرة، والوقوف بجانب الحجة والدليل!!

وفي حديث موصول بكلمات قريبات في هذه البابة: نحن على موعد مع الحوار الذي حصل بين هرقل عظيم الروم في الحقبة الزمنية التي تلت صلح الحديبية، وبين أبي سفيان رضي اللّه عنه ـ ولم يكن أسلم بعد ـ ومن كان معه؛ وهو حوار تخذ فيه هرقل بنظرة عاقلة متجردة، تنمُّ عن حصافة وسلامة انتفاع بالتجارب.. تخذ من بعض أخلاق النبي ﷺ وما كان يأمر به منها، ومن نهجه الذي يسلكه في الدعوة إلى اللّه، وشيء من تاريخه في بني قومه ـ كما أقرَّ بذلك أبو سفيان ولم يخالفه أحدٌ ممن كانوا معه في ذلك الحوار ـ دليلاً نيِّراً في غاية القوة على صدقه صلوات اللّه وسلامه عليه، وأن المستقبل لدعوته، وأن النجاح قادم وسيكون حليفاً لمسعاه وأعماله... إلى آخر ما قال.

ففيما روى الإمام البخاري في «الجامع الصحيح» عن ابن عباس رضي اللّه عنهما أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش ـ وكانوا تجاراً بالشام في المدة التي كان رسول اللّه ﷺ مادَّ فيها أبا سفيان وكفار قريش ـ، فأتوه هم بإيلياء، فدعاهم في مجلسه، وحوله عظماء الروم، ثم دعاهم ودعا ترجمانه...

يقول أبو سفيان: ثم كان أول ما سألني عنه أن قال: كيف نسبه فيكم؟ قلت: هو فينا ذو نسب.

قال: فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟ قلت: لا... إلى أن قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا.

قال: فهل يغدر؟ قلت: لا، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها، قال: ولم تمكني كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة.

قال: كيف كان قتالكم إياه؟ قلت: الحرب بيننا وبينه سجال، ينال منا وننال منه.

قال: بماذا يأمركم؟ قلت: يقول: اعبدوا اللّه وحده ولا تشركوا به شيئاً، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والصوم والعفاف والصلة.

وموعدنا لقاء قادم على الخير إن شاء اللّه، نتابع فيه عطاء المعلم القرآني، وما تخذه واحد ممن كان ذا موقع قيادي رفيع في الخط المقابل للإسلام:.. ما تَخِذ من أخلاق الرسول ﷺ وسلامة نهجه في الدعوة، وما يشرق به تاريخه في قريش والعرب من حكمة وأمانة وتعقل، دليلاً ناصعاً على صدقه في دعوته وأنه مرسل حقاً وصدقاً من عند اللّه.

* * *

الرسول ﷺ وإحكام البناء..
وواقع الصراع بين الحق والباطل
أبو سفيان وهرقل... وسورة الفرقان
«٢»

كانت لنا من قريب، إشارة إلى واحدة من صور التحدي الذي كان يواجه به الرسول عليه الصلاة والسلام وهو يمهّد للإنسانية دروب الخير والعطاء، وهي صورة تحدثت عنها سورة الفرقان بدءاً من الآية الحادية والأربعين؛ ذلكم قول اللّه تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴿٤٢﴾﴾.

هكذا صحب الجحود والاستهزاء بصاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام هذا التزولُ إلى الحضيض، كما تحدث عن ذلك القرآنُ الكريم.

ومن ثَمَّ فالإنكار لا يقوم على دليل ولكن يقوم على عبودية الهوى والنزول إلى ما هو أدنى من مستوى المخلوقات التي لم تكرَّم بما كرّم اللّه به بني آدم في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴿٧٠﴾﴾ [الإسراء: ٧٠].

يؤكد هذه الحقيقة ما أشرنا إليه في مناسبة خلت من موقف هرقل ـ وهو على الخط المقابل ـ وقد تحرر من ربقة الهوى، ونظر إلى الرسالة والرسول بتجرد، واحتكام إلى العقل السليم، وتسلسل الأسباب دون وكس ولا شطط، وما تولد من نتائج.

ولعل من الخير أن نورد النص بكامله بعد أن أشرنا إلى فقرات منه من قبل ليستبين ما نشير إليه من أن النظرات المتجردة عن الهوى توصل إلى اليقين بأحقية رسالة الإسلام وسلامة منهجها في بناء الإنسان والحياة.

ففيما أخرج البخاري وغيره ـ واللفظ للبخاري ـ يقول هرقل لأبي سفيان في جملة من الأسئلة عن الرسول عليه الصلاة والسلام: (كيف نسبه فيكم؟ يقول أبو سفيان: قلت: هو فينا ذو نسب.

قال: فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟ قلت: لا.

قال: فهل كان من آبائه من ملك؟ قلت: لا.

قال: فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ قلت: بل ضعفاؤهم.

قال: أيزيدون أم ينقصون؟ قلت: بل يزيدون.

قال: فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت: لا.

قال: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا.

قال: فهل يغدر؟ قلت: لا، ونحن معه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها. قال ـ أي أبو سفيان ـ: ولم تمكني كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة.

قال: فهل قاتلتموه؟ قلت: نعم.

قال: فكيف كان قتالكم إياه؟ قلت: الحرب بيننا وبينه سجال، ينال منا وننال منه

قال: بماذا يأمركم؟ قلت: يقول: اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والصدقة والعفاف والصلة.

قال للترجمان: قل له: سألتك عن نسبه، فذكرتَ أنه فيكم ذو نسب، وكذلك الرسل تبعث في نسب قومها.

وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول؟ فذكرت أن لا؛ فقلتُ لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت: رجل يأتي بقول قيل قبله.

وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فذكرت أن لا؛ فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على اللّه.

وسألتك هل كان من آبائه من ملك؟ فذكرت أن لا؛ قلت: فلو كان من آبائه من ملك، قلت: رجل يطلب ملك أبيه.

وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه، وهم أتباع الرسل.

وسألتك أيزيدون أم ينقصون؟ فذكرت أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم.

وسألتك أيرتدٌّ أحد سخطةً لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فذكرت أن لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب.

وسألتك هل يغدر؟ فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر.

وسألتك بما يأمركم؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا اللّه ولا تشركوا به شيئاً، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة والصدقة والعفاف.

فإن كان ما تقول حقاً؟! فسيملك موضع قدميَّ هاتين. وقد كنت أعلم أنه خارج، لم أكن أظن أنه منكم؛ فلو أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه).

إنها مسؤولية الانطلاق البنَّاء على هدي الوقائع التي لا تدع النور للظلام، ولا ترضى لأصحابها أن يستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير. ولله عاقبة الأمور.

* * *

بناء الإنسان والحياة التوجيه القرآني... واستخدام وسائل المعرفة

«٣»

دعوة القرآن ـ وهو يوجه لبناء الإنسان والحياة ـ إلى استخدام العقل ووسائل المعرفة في البحث عن الحقيقة، والانقياد إلى ما تمليه الحجة ويظاهره الدليل. ثم نعيُه على أولئك الجانحين إعراضهم عن الحق وإهمالهم السبل الموصلة إلى الإيمان..

كل أولئك يجعل المسلم ـ وهو يعيش واقعه ويتطلع إلى مستقبل أفضل ـ لا يغمض عينيه عما اكتنف رحلة البناء التي وجه إليها المنهج الإلهي من مصاعب؛ لعل من أقساها ما كان في العهد المكي من تحديات مكَّن لها الكسل الفكري الذي تسبب به ما نشير إليه من إهمال العقل ومحاصرة وسائل المعرفة.. حتى بات أولئك النفر الذين يواجهون رسول اللّه بتلك التحديات كأن بينهم وبين الحق الذي نزل به الكتاب: حجباً وأغلفة لا تطاق. أو كأنهم فاقدون لأية وسيلة من وسائل الوصول إلى الحقيقة والاهتداء إلى الإيمان؛ فلا تفكير ولا تدبر ولا نظر في أنفسهم أو فيما حولهم من الآيات، حتى جحدوا الرسالة وأنكروا أن يكون القرآن وهو الذي أعجزهم أن يأتوا بسورة من مثله.. انكروا أن يكون من عند اللّه.

وفي خطوة مع هذه القضية رأينا من قريب بعضاً من صور التحدِّي التي نلمح إليها، وارتفاع صوت الحق بالمقابل وانتصار القرآن للعقل وما وراءه من وسائل للمعرفة والنظر؛ وحكمه في أولئك الأناسي.

من ذلك ما جاء في سورة يونس ـ وهي سورة مكية ـ: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

وها هي ذي صورة أخرى من صور التحدي تقوم على الاستهزاء بدلاً من البحث والنظر وعلى اتخاذ الهوى إلهاً بدلاً من الانصياع إلى ما يمليه العقل السليم والبعدُ عن التناقض الذميم.

وقد حكم القرآن فيهم حكماً يذكرنا بما رأينا من نظير ذلك من قريب.

ذلكم ما جاء في سورة الفرقان بدءاً من الآية الحادية والأربعين من قول اللّه جلت حكمته: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴿٤٢﴾﴾.

هكذا يصحب الجحود والتكذيب مستوىً هابطٌ في النظر إلى الأمور وكسل فكري عاق أصحابه عن التبصر والتدبر.. الأمر الذي يزيد من يقين المؤمن وهو يرمي ببصره إلى مستقبل تنعم الأمة فيه بالقدرة الذاتية والكلمة المسموعة في العالمين.

يزيد من يقينه بسلامة المنهج الذي سلكه في ضوء معالم الكتاب العزيز نبينا محمد عليه الصلاة والسلام وحشد له ما شاء اللّه من طاقات الخير حتى آتى أكله بناءً ونماءً في كل ميدان من ميادين الحياة على صعيد الفرد والجماعة والأمة.

وإن هذا المزيد من اليقين كفيل ـ بإذن اللّه ـ أن ينمي حوافز العمل ـ ويباعد بين العاملين وبين اليأس ويرقى بهم دائماً إلى مستوى العطاء المثمر واللّه سبحانه لا يضيع أجر من أحسن العمل وأخلص الوجهة، وكان هم مرضاة مولاه.

* * *

من خصائص البناء التشريعي اليسر وعدم الحرج

«١»

من خصائص التشريع الإسلامي اليسر وعدم الحرج، نجد بيان ذلك في واحد من المعالم القرآنية الذي تهدينا إليه آيات في سورة البقرة والمائدة والحج عدا عن عبارات مباركة، تتعلق بذلك، نجدها هنا وهناك.

ففي سورة البقرة بعد ذكر رخصة الإفطار للمريض والمسافر جاء الإعلان الواضح عن فضل اللّه تعالى في التيسير وعدم التعسير، فقال سبحانه: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥].

ويلاحظ هنا أن في الكلام نوعاً من تأكيد إرادة اليسر وتأكيد عدم إرادة العسر؛ فقد يكفي أن يقال ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ ﴾ ويفهم منه أنه لا يريد ما هو عكس ذلك، لأن من يريد اليسر لا يريد العسر، ولكن جاء التأكيد بإثبات الأولى ونفي الثانية باللفظ الصريح ﴿وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾.

وفي سورة الطلاق جعل التيسير من الأمور لوناً من ألوان العطاء الإلهي للمتقين ذلكم قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ۝٤﴾ [الطلاق:٤].

وفي سورة الانشراح تجد إيحاء كلمة اليسر راحة للنفس وطمأنينة للقلب ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾.

وفي سورة المائدة بعد أن رخص اللّه تعالى للمسلمين أن يتيمموا صعيداً طيباً إن لم يجدوا الماء للغُسل أو للوضوء جاء قوله جل وعلا في ختام الآية السادسة من السورة: ﴿ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٦﴾.

وهكذا ينفي اللّه تعالى عن نفسه أنه يريد أن يجعل على المسلمين أيَّ لون من ألوان الحرج مهما قلَّ شأنه، وإنما قلنا ذلك لأن كلمة «حرج» هنا نكرة والنكرة في سياق النفي تعم، ولكن الذي يريده أن يطهركم ويتم نعمته عليكم ولعلكم تشكرون.

إن هذه الخاصية من خصائص التشريع الإسلامي في اليسر وعدم الحرج من العوامل التي أقدرت البناء التشريعي في الإسلام على الاستجابة لكل الحاجات الاقتصادية والاجتماعية على اختلاف الأقاليم والظروف. وهي تدل أول ما تدل على أن شريعة الإسلام من عند اللّه، واللّه تعالى أعلم بما يصلح عباده.

ثم إن ذلك عون للإنسان المسلم على أن تكون العبادة وأحكام الشريعة بشكل عام حافز حركة وقدرة على خوض ميادين البناء في المجتمع، دون أن يكون هناك ما يثقل كاهله أو يعوقه. وجدير بالجيل الذي يُناط به أن يضطلع بمهمات البناء على كل صعيد أن تظل طمأنينته بشريعة اللّه في نماء.

* * *

مع واحدة من خصائص البناء التشريعي اليسر وعدم الحرج

«٢»

في ضوء المعلم القرآني الذي شهدنا من عطائه واحدة من خصائص البناء التشريعي في الإسلام وهي اليسر وعدم الحرج، نقرأ في الآية الثامنة والسبعين من سورة الحج وهي آخر آيها ما يكشف عن بعض أبعاد تلك الخاصية وسلطانها لا في البنية التشريعية فحسب، ولكن في بنية الوجود الذاتي للأمة بشكل عام.

ذلكم قول اللّه جل ذكره: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾.

وأنت واجد أن الآية تأمر بالجهاد حق الجهاد لإقامة دين اللّه باستفراغ الطاقة واستنفاد الوسائل، كما تبين للمسلمين أن اللّه اختارهم لدينه وائتمنهم على بناء المجتمع المرضي عنده، وما جعل عليهم في الدين من حرج، فلا ضيق ولا عسر.

وذلك كلمة أبيهم إبراهيم الذي سماهم المسلمين من قبل هذا الكتاب، وفي هذا القرآن، ليكون الرسول شهيداً عليهم يوم القيامة أنه بلغهم ما أرسل به، وليكونوا شهداء على الناس أن رسلهم بلَّغوهم.

ثم أمرت الآية بالاستدامة على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والثقة باللّه والاستمساك بحبله المتين ﴿هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾.

وهكذا يقع نفي الحرج في الدين ضمن مجموعة من الأحكام والقضايا الكبرى، الأمر الذي يدل على أن هذه الخاصية العظيمة هي عاتق الميزان في عملية البناء التي دعت إليها الآية بدءاً من قوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾.

فليس في الجهاد ولا في أي واحد من التكاليف أي نوع من الحرج. وقد سبق أن قلنا بأن النكرة في سياق النفي تعم.

وإذا كان الأمر كذلك: فحين تملي حاجة الأمة إملاءها، بإعداد شباب يكونون عماد نهضتها، وساعدها القوي في دفع عجلة المجتمع إلى ميدان القوة والاستقرار.. حين تملي حاجة الأمة ذلك، يكون لزاماً أن لا يبخل هؤلاء على أمتهم بالعطاء في كل ميدان مفتقر إلى البناء، بعيداً عن أي مراودة شعورية بالضيق أو الحرج في فعل ما هم مندوبون إليه.

إنها اليد الحازمة الرحيمة التي تقود إنسان هذه الأمة إلى حيث يأخذ بيدها من عثارها الذي هي فيه، ويطرق بعقيدته وعلمه وأمانته باب التغيير إلى ما هو الأفضل، وحين ينمو الإحساس بالواجب، حيث الواجب الذي يمليه الدين الذي لا حرج فيه فتلكم هي الخطوة الثابتة الأولى على طريقٍ تجد الأمة في نهايته ذاتها وتظفر بخيري الدنيا والآخرة. والحمد لله أكرمنا بهذا الدين القويم.

* * *

العطاء في البناء التشريعي
في القرآن اليسر وعدم الحرج
«٣»

عندما يكون الحديث عن معالم الكتاب العزيز في عطائها على ساحة البناء، وما أغنت طريق الإنسانية في الفكر والتشريع والاقتصاد والاجتماع، ناهيك عن نظام الحكم والأخلاق والسلوك، وما عملت على تنمية إمكانات الإنسان ـ كما خلقه الله وفطره ـ بتناسق وتسيير لخصائص التكوين في قنواتها الطبيعية، مما يجعلها تنتج بعيداً عن العبث والانحراف أقول: عندما يكون الحديث عن ذلك لا بد أن يوضع في الحسبان ـ وبشكل جوهري ـ ما أعطت سنة النبي ﷺ على هذه الساحة في البناء بكل ميادينه، وما عملت على إنماء القدرة الذاتية في المجتمع المسلم ليكون بحق ذلك المجتمع القرآني الذي يقدم الأنموذج الصالح للحضارة التي ينشرها الإسلام، لما أن السنة بيان القرآن.

على هدي هذه الحقيقة نذكر ما هدانا إليه واحد من المعالم القرآنية من إحدى خصائص البناء التشريعي في الإسلام ـ كما سلف من قبل ـ وهي اليسر وعدم الحرج.

ونجد لزاماً أن نذكر أن السنة لم تكن في معزل عن هذه القضية الكبرى، ذلك لأن رسول الله ﷺ ـ كان يمارس بنفسه عملية البناء الفريدة في التاريخ على صعيد الإنسان والمجتمع، في المسجد والسوق والبيت وميدان القتال، ويخاطب النفس الإنسانية من أعماقها، وينمي في المسلم حوافز التطلع والانطلاق الأمثل، ويأخذ بيد الجماعة إلى أن تكون في العلم والعمل والتصور مع القرآن فيما أراد أن يبني، وفيما أراد أن ينقلها من التبعية والفوضى، إلى الذاتية والنظام.

وإذا كان الأمر كذلك فلا بدع أن نقع على العديد من النماذج القولية والعملية - في قيادة النبي ﷺ لركب البناة - تؤكد اليسر في شريعة الإسلام وعدم الحرج. ولنجتزىء هنا بكلمات نورانية كشفت فيها أم المؤمنين عائشة رضي اللّه عنها عن صورة من صور سلوكه ﷺ - وهو الأسوة الحسنة - في هذا المجال. فقد روى البخاري ومسلم عن السيدة عائشة رضي اللّه عنها قالت: «إن كان رسول اللّه ﷺ ليدع العمل وهو يحب أن يعمل به خشية أن يعمل به الناس فيفرض عليهم».

وواضح أنه لو عمل ﷺ لزادت التكاليف، وزيادة التكاليف قد توقع في الحرج ولذا كان يترك ذاك العمل. ولنذكر هنا ما روى مسلم وغيره عن أبي هريرة رضي اللّه عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة».

ولنا إن شاء اللّه عودة إلى هذه القاعدة وأمثالها من القواعد النورانية التي أرست قواعد البناء الحكيم في نفس الفرد على مستوى الجماعة، ونمّت رغبة الإسهام في البناء بطمأنينة واستقرار نفسي وسبحان من أنزل الكتاب ولم يجعل له عوجاً.

* * *

اليسر في الدين.. وعملية البناء

«٤»

على سلم البيان النبوي لأبعاد المعلم القرآني في قوله تعالى: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾وقوله جلت حكمته: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾... على سلَّم هذا البيان الكريم ـ وهو بيان عملي يضيء بحسن الأسوة والتربية العملية ـ رأينا ما جاء في الصحيح من قول السيدة عائشة رضي اللّه عنها «إن كان رسول اللّه ﷺ ليدع العمل وهو يحب أن يعمل به خشية أن يعمل به الناس، فيفرض عليهم».

طبعاً الناس هنا هم المسلمون والمسلمات، ورسول اللّه ﷺ صاحب الشريعة المبلغ عن ربه، ومن هنا تأتي خشية أن يكون عمله طريق الفرضية عليهم، ذلك أنه إذا فرض عليهم هذا العمل مع ما هم مكلفون به من عبادات وأعمال، كان ذلك تكليفاً جديداً مضافاً إلى ما سبق، وكثرة التكاليف ربما أدت إلى العسر والحرج، وذلك متتف عن طبيعة التشريع في الإسلام. ولكم كان رسول اللّه أميناً على ذلك البيان العملي لمعالم الكتاب الكريم في هذا التصرف الحكيم.

إن دلالة صنيع النبي ﷺ على هذه الساحة، وهو الأسوة الحسنة للمسلمين، حين تقع موقع البيان العملي في إيضاح سمة من سمات الأحكام القرآنية في التيسير، ودفع الحرج دونما تجاوز للحدود... إنها حين تقع هذا الموقع تهدينا إلى قضية أحرى بالغة الأهمية وهي واقعية هذا الدين بتكاليفه وأحكامه.

ونعني بالواقعية ـ هنا ـ اتساقه مع واقع الإنسان ـ كما هو ـ بما فطر عليه وبما أحطاه اللّه من كفاءات وقُدر تمكنه ـ إن سيرها في مسالكها الطبيعية ـ في أداء رسالته في الحياة على الوجه الأكمل.

إن رسول اللّه صلوات اللّه وسلامه عليه، كان يتوجه بصنيعه هذا بياناً لمعالم القرآن، وجهة الواقعية في قدرة الإنسان على البناء ضمن كل الظروف، وهو ـ صلوات اللّه وسلامه عليه ـ إذ كان يحمل أمانة البناء بكلتا يديه في مواجهة الوثنية واليهود وموروثات حضارات الفرس والرومان والهند بما لها وما عليها، ويسقيها بقوله وعمله، وإعداده العملي للإنسان القادر على المواجهة ـ كان حريصاً على أن ينمي قدرة هذا الإنسان على التفاعل مع الحياة بكل ميادينها، كيما يمتد ذلك إلى المجتمع بكل ما فيه من إمكانات بشرية، ولكيلا تكون العبادة الخاصة عائقاً عن العبادة العامة التي هي حركة تبعث الحياة في كل زاوية من زوايا المجتمع، ضمن إطار من الخير والغايات النبيلة التي تضع كلاً من الجهد والوقت والمال موضعه الطبيعي المنتج.

والحمد لله الذي أراد بالأمة اليسر ولم يرد بها العسر وما جعل عليها في الدين من حرج.

* * *

مع اليسر.. والبناء

«٥»

ما زلنا في ظل واحد من المعالم القرآنية التي تربط بين حركة البناء والنماء وبين التكليف بالعبادة، فلا عسر ولا حرج، ولكن يسر وقلة تكاليف وهذا منظور فيه إلى الإنسان السوي، الأمر يأخذ بيد المسلم والمسلمة إلى أن يكون كل منهما ـ في ميدانه ـ عنوان حركة ترضي الله تبارك وتعالى لما تنمي من عناصر الخير للفرد والمجتمع، دونما عائق من التشدد والتكلف، ولا يحول حائل دونها ودون الإنجاز على ساحة العطاء المثمر بدءاً من الفرد والخلية الأولى في البيت.

بل وجدنا أن التكاليف الشرعية ـ وهي على هذه الحال ـ بعداً عن العسر والحرج ـ كما هما في نظر الإسلام ـ هي خير عون للمسلم، إذا تدبر أمره، وفقه حكمة ربه ـ على أن يكون طاقة فاعلة في مجتمع ناهض قوي جدير بالانتماء إلى خير أمة أخرجت للناس، تلك الطاقة التي لا تدع باباً من أبواب البناء في سلامة منطلقاته إلا طرقته ولا سبيلاً من سبل النماء في أي عنصر من عناصر القوة البشرية أو الاقتصادية أو خاصية من خصائص الوجود الذاتي إلا سلكته.

ولا بدع: فدعوة الحياة بعمومها وشمولها: إنما يقوم بأعبائها، ويستجيب لها بالبرهان العملي والشعور بالمسؤولية، أولئك الذين ذاقوا حلاوة الإيمان وأنه قول وعمل، وأدركوا واقعية هذا الدين، وأن أحكامه وتكاليفه ـ وهي من عند رب العالمين ـ هي على أتم التساوق والتناسب مع قدرة الإنسان كما خلقه الله.

فالذي خلق الإنسان، هو الذي شرع له وكلَّفه، وحاشا أن يكون في ذلك ما يخرج عن الحكمة، بل هو عين الحكمة منه سبحانه.

وهنا ندرك أن اللّه تعالى عندما باعد بين الدين وبين الحرج والعسر: قطع الطريق على كل أولئك المتبطلين الذين يختلقون التعللات والمعاذير، ويحمّلون الدين أوزار استرخائهم وإعراضهم عن كلمة اللّه.

أما أولئك البناة الأبرار، المسارعون إلى مرضاة اللّه، الذين يتقربون إليه بالعمل والإخلاص والمتابعة: فهم دائماً في سعي دائب وتنمية لا تفتر لمواهبهم وقدرهم وكل ما أعطاهم اللّه على الصعيد المادي والمعنوي.

وتراهم في صنيعهم هذا صورة حقيقية لأمانة الاستخلاف في الأرض وما ينبغي من إعمارها على الوجه الذي تضمن فيه سلامة الوسيلة والغاية. واللّه الموفق.

* * *

مع البناء.. في ضوء اليسر وعدم الحرج

«٦»

﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ هذا العطاء القرآني الذي رأينا من بيانه في عمل رسول الله ﷺ وتربية أصحابه ما رأينا لا ينازع منازع، في أن ذلك لا يصح أن يكون مدعاة إلى التهاون في العبادة، أو التفلت من ربقة التكاليف؛ لأن الشريعة هي صاحبة الكلمة فيما هو عسر وما هو حرج.

بل على العكس من ذلك يفترض، أن تكون رحمة الله بعباده باليسر وعدم الحرج في الدين، حافزاً من حوافز الخير والنشاط، يدفع بالمؤمن إلى أن يكدَّ في الحياة على مختلف الثوابت والمتغيرات. وفي حالات المنشط والمكره، ويحسُّ أن ذلك من طاعة الله، ولا تزيده تكاليف العبادات والطاعات إلا صدق عزيمة، وصبراً على متاعب الطريق.

وفي خطوة أخرى على ساحة الواقع: إن عملية التحويل إلى ما هو الأفضل، واستنفاد الطاقات بمنهجية وإخلاص.. هذه العملية منظور في تحقيقها إلى المسلم الصادق الذي يغني عطاءه وينميه ويضع جهوده على الطريق النافعة لنفسه ولمجتمعه.

ذلك أن هذا الإنسان وهو يتحرك في طاعة الله تعالى، ليس بعيداً عن الواقع ولا دخيلاً على المجتمع، وإنما هو صورة عن حقيقة التكامل في عملية البناء.

والذين رباهم رسول الله ﷺ ليرتادوا للإنسانية طريقها تخففوا ـ من الناحية النفسية ـ من كل عبء يعوق الانطلاقة الكبرى، لأنهم لم ينوؤا بعبء التكاليف، بل كانت التكاليف باعث حيوية وتصعيد لإمكانات العمل في سبيل الله، وهكذا امتدت

أيديهم إلى ساحات البناء، تخطيطاً وتنفيذاً على كل صعيد، وكانوا مثالاً يحتذى في القدرة على تغيير الموروث الجاهلي، ومواجهة التحديات التي خلفتها وثبات وحضارات.

وبذلك كانوا ـ بحق ـ رسل رسول اللّه ﷺ على امتداد الزمن، في تثبيت قواعد البنية الحضارية على صعيد الفرد والمجتمع والأمة كما أراد الإسلام.

مرة أخرى: دعونا ننصح لأولئك الجانحين أن يتدبروا قرآنهم، ويفتحوا بصائرهم لهدايته كيما يدركوا أن القيم التي تطرحها معالم القرآن فيها بناء الحياة الأقوم والفوز يوم الدين.

* * *

سلامة فهم الدين.. والبناء واليسر

«٧»

في متابعة لرحلتنا مع اليسر وعدم الحرج، عبر الصفحات القريبة الماضية تأخذ بيدنا معالم الكتاب العزيز إلى إحدى السور المكية، وهي سورة طه، لنقرأ في فواتحها قول الله تباركت أسماؤه: ﴿طه ﴿١﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴿٢﴾ إِلاَّ تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ﴿٤﴾﴾.

إن لذة العبادة وحلاوة المناجاة، وطمأنينة القلب في الصلاة، كانت تدفع رسول الله ﷺ إلى مزيد من التعب والضنى وهو يطيل القيام بين يدي الله عز وجل، فنزل قوله تعالى خطاباً له عليه الصلاة والسلام: ﴿طه ﴿١﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴿٢﴾ إِلاَّ تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾﴾...الآيات.

لذا كان رسول الله حريصاً كل الحرص على تعميق ما جاء به المعلم القرآني من أن الله يريد بالمؤمنين اليسر ولا يريد بهم العسر، وأنه ما جعل على عباده في الدين من حرج، كان حريصاً على ذلك وهو على ساحة المعاناة، معاناة إنشاء المجتمع الجديد، وبناء كل مقوماته وخصائصه الفكرية والاجتماعية والاقتصادية، كيلا ينمو في جنده المؤتمنين على البناء جانب على حساب جانب آخر لأن البنية المتكاملة لا بد لإنجازها من إعداد الإنسان إعداداً متكاملاً يباعد بينه وبين التضخم على حساب الاعتدال.

وكيلا يكون أصحابه نسخاً مكررة عن أولئك الذين قنعوا من رسالة الإنسان بالانطواء على أنفسهم باسم العبادة، والمجاهدة على الطريقة التي يختارون، في تنطع يأباه دين الله وفطرة الإنسان. ذلكم قوله عليه الصلاة والسلام فيما روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه: «إن الدين يسر ولن يشادَّ الدينَ أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا، وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدُّلجة».

إن الواجبات التي تنتظر جند الله على ساحات البناء والنماء، في كل ما هو من مقومات المجتمع بسبيل، تتأبى على الانحراف في فهم الدين فهماً يوقع فيما يجعل الإنسان سلبي السلوك، لا ينهض بعبء رسالته، ولا يسهم في تنمية عناصر الخير في مجتمعه، والمشاركة في التغيير إلى ما هو الأفضل.

ولقد آن لشبابنا أن تنتهي به التجربة والمعاناة إلى الاستمساك بعرى الإسلام على بصيرة، والنهوض برسالة البناء والتنمية على الوجه الذي يضمن التناسق والتكامل وينهي رحلة التيه عند أولئك الجاهلين أو المتجاهلين.

* * *

البناء في ظل البيان النبوي للقرآن واليسر

«٨»

كنا مع واحد من وجوه البيان النبوي لذلك المعلم القرآني المشرق بأن الدين يسر ـ والحمد لله ـ لا يجد فيه المسلم وهو يبتغي مرضاة ربه أيّ لون من ألوان الحرج الذي يعوق عن القيام بواجب، أو يحول دون القيام بتكليف.

ذلك البيان النبوي هو قوله ﷺ: «إن الدين يسر ولن يشادَّ الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا، وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدُّلجة».

الرسول عليه الصلاة والسلام ـ وهو المؤتمن على إيضاح الطريق للأمة وبيان معالم القرآن بقوله وفعله وتربيته يبين فيما لا يدع ريبة لمستريب بواقعية هذا الإسلام وصلاحيته للإنسان كما خلقه الله تعالى وكوَّنه، أن الدين بأحكامه وتكاليفه وآدابه وأخلاقه يسر، يعين المنتمين إليه على القيام بما يكلفون به، ويقدمهم للمجتمع أعضاء نافعين هداة مهديين، يبنون لأمتهم في كل ميدان، وينمُّون كل ما من شأنه دفع عجلة المجتمع في طريق الطمأنينة والاستقرار.

هذا هو اليسر في بعض آثاره في سلوك الفرد وبنية المجتمع؛ وذلك ما يريده الله لعباده المؤمنين: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾.

أما المشادَّة بالتنطع والتزيُّد فتزلق صاحبها إلى العسر والحرج، وللدين الغلبة في خاتمة المطاف، على هذا المتنطع المتشدد الذي سلك بنفسه أو بالناس نهجاً يتخالف مع ما دل عليه المعلم القرآني من اليسر وعدم الحرج.

ولذلك جاء التوجيه النبوي ـ متسقاً مع قدرة الإنسان السوي ـ فسددوا وقاربوا، ثم جاء على الاستعانة بالغدوة ـ وهي السير أول النهار ـ والروحة ـ وهي السير آخر النهار، وشيء من الدُّلجة ـ وهي السير في الليل.

صلى اللّه وسلم على رسول الله إنه في بيانه لمعالم الكتاب يريد من المسلمين الذين هم جند اللّه في بناء المجتمع الأفضل، وتنمية طاقاته البشرية وثرواته، وخيراته، أن يكون انطلاقهم على أسس لا تهمل ولا تفرط، يريد منهم أن يستعينوا على طاعة اللّه عز وجل، بالعمل في وقت النشاط والاستعداد القلبي والنفسي، بحيث يستلذ المؤمن العبادة، كيما تكون هذه العبادة وقود حركته في مختلف ميادين البناء والنماء، فلا يسأم ولا يفرط. ويبلغ قصده الذي يريد. وهي حقيقة أوضحها تشبيه المسلم ـ في هذه الصورة ـ بالمسافر الحاذق، يسير في هذه الأوقات غدوة وروحة وشيئاً من الدُّلجة، وبراحة وطمأنينة يصل المقصود على راحلته وافر النشاط متطلعاً إلى أفق جديد واللّه الموفق.

* * *

مع البيان النبوي..
لمعالم القرآن في التنمية والبناء اليسر وعدم الحرج
«٩»

تنظر في البيان النبوي لواحد من معالم القرآن الكريم، فترى ببصيرتك وكأن الإنسانية كلها متجمّعة بين يدي أبي القاسم محمد صلوات اللّه وسلامه عليه، لا يحص بهديه وبيانه جيلاً دون جيل، ولا زماناً دون زمان.

ولقد رأينا من قريب كيف أن ما قرره رسول اللّه بشأن يسر الدين وأن مغالبته في التزيد والتنطع عبث من العبث، رأينا أن فيض النبوة بهذا البيان هو للأجيال كلها وللبشرية كلها يتخطى حدود الزمان والمكان لما أن رسول اللّه يقول حين يقول ويفعل حين يفعل ويقرر حين يقرر مبيناً عن اللّه عز وجل ما أراد ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

والحق أننا نكون أدق تصوراً لهذه السمة من سمات التشريع القرآني وبيانه من السنة، عندما ندرك مدى الارتباط بين عبادة المسلم وبين رسالته في الحياة.

فالذين خاطبهم رسول اللّه ببيان القرآن بشأن العبادة والتكاليف، وغرس فيهم ـ كما أعلنت معالم الكتاب العزيز ـ الاقتناع بيسر الإسلام وتذوق أنه الدين الذي ارتضاه اللّه لعباده وما جعل عليهم فيه من حرج.

الذين خاطبهم رسول اللّه بهذا: هم أنفسهم حملة لواء البناء والنماء، علماً وعملاً وجهاداً واقتصاداً، وتنمية كل طاقات المجتمع المسلم، كيما يكون قادراً على تحقيق البنية الصحيحة للعاملين المطلوب منهم أن يقفوا عند الذي أراد لهم ربهم تبارك وتعالى، من تقديم الإسلام للبشرية كلها، فرداً صالحاً، ومجتمعاً قوياً متماسكاً، تزينه كلمة «لا إله إلا اللّه» وتغني طرائقه أحكام الإسلام وأخلاق أهل الإيمان.

وإذن فسلامة التصور ليسر هذا الدين وبعده عن الحرج، لا تنفصم عن الانطلاقة الفاعلة البنَّاءة على صعيد الفرد والجماعة بل والأمة.

وما دام الذين خوطبوا بهذه الحقيقة هم أولئك المسارعون إلى الخيرات، الذين انساحوا في الأرض فكانوا أكفاء الجهاد، والعلم، والتدبير، واستطاعوا أن يغذوا طريق الأمة في دينها ودنياها.. أقول: ما دام الأمر كذلك فإن بناء الجيل في شبابه وفتياته لا بد أن يكون ملحوظاً فيه هذه الركيزة: ركيزة ارتباط العبادة والتكاليف بالأخذ بأسباب الحياة في كل ميادينها، بتكامل لا يخفى، والعمل على إنماء الشعور بهذا التكامل، كيما ترتفع قواعد البناء سليمة غزيرة العطاء، وتتعاظم قدرة الأيدي الأمينة على الانتاج المثمر في كل ميدان والحمد لله رب العالمين.

* * *

اليسر وأغراض الدين.. والبناء

«١٠»

الناظر في القرآن الكريم نظرة تدبر، وفي بيانه من السنة نظرة وعي وفقه يجد أن طابع اليسر وعدم الحرج في الدين، يبدو بتوطيد العلاقة بالحياة ورسالة المسلم فيها، وأن نوعاً من التكامل لا يخفى يبدو سمة من سمات هذه العلاقة بين طمأنينة قلوب المؤمنين بالقيام بما كلفوا به من عبادات وأعمال، وبين إعمار الأرض بكل شعب البناء والنماء فيها على الوجه الذي يرتضيه الإسلام.

فالجيل الذي تذوق أبعاد حكمة اللّه في يسر أحكام الدين وتكاليفه وبعده عن الحرج وكل ما لا يتسق مع فطرة الإنسان.. هذا الجيل القرآني هو الذي تترقبه الأمة ليمسح عن جبينها ـ باسم الدين ـ ظلمة التخلف، وينهض بها في ضوء عقيدة التوحيد وشرعة الإسلام من عثار الغفلة، وفوضى المفاهيم وفهم الدين ـ في بعض الأحيان ـ على غير ما فهمه الأولون الذين ضربوا في كل ميدان وأسهموا بقلوبهم وعقولهم وسواعدهم وبذلوا النفس والمال حتى استقام ذلك البناء الحضاري الأمثل في الفكر والاجتماع والسياسة والاقتصاد.

نقول ذلك ونريد أن يسمعه فتيان هذه الأمة وفتياتها، لأن الدين لا يستنفد أغراضه في تطويع الإنسان لطاعة مخصوصة وانتهى الأمر، ولكنه يتجاوز ذلك لأن يكون موجّه الحياة كلها وجهة الخير، مستنفداً كل الطاقات والإمكانات واضعاً إياها على طريق النماء الذي يغني المجتمع ويسعد الإنسان في الدنيا والآخرة.

وذلكم هو منهج أولئك الذين بلغهم رسول اللّه ما أوحى إليه من ربه فآمنوا به، وبصَّرهم بحقائق الإسلام فأحسنوا تصورها وطوعوا سلوكهم لها، فكانوا مع الحياة يقودون مسيرتها إلى مرابع القوة وكل ما به وجود الأمة الذاتي بين أمم الأرض.

ألا ما أكرم أن يتجاوز المسلم الأوهام ويتخطى رواسب الانهزام فيقود عمية البناء بكل ثقة وطمأنينة واضعاً نصب عينيه مرضاة اللّه وإعلاء كلمته التي بها شقاء الإنسانية من فوضاها وشقائها واللّه الهادي سواء السبيل.

*   *   *

حب الله ورسوله..
ومعايير البناء السليم للمسلم والمسلمة
وسورة التوبة

«١»

مما أذكرناه موقف الصحابي الكريم عبد الله بن عبد الله بن أُبي الذي كان بما نوّر الله قلبه من الإيمان أقوى من أي عقبة نفسية أو عاطفية: فيما كان من غضبه ـ رضي الله عنه ـ لله رداً على الموقف النفاقي المخزي الذي تسربل به أبوه في أعقاب غزوة بني المصطلق.. مما أذكرناه هذا الموقف المتألق: ما يبدو واضحاً من تواؤم الاتجاه الخالص لله عز وجل من ذلك الجندي المتبتِّل إلى الله بما يقول ويفعل، ولا يحيد عن توجيه القائد الحكيم رسول الله عليه الصلاة والسلام. مع ما جاء به الكتاب الكريم، وبينته السنة المطهرة من المعايير التي يجب أن تقوم عليها الموالاة والمعاداة عند المؤمنين، والضوابط التي من اللازم أن تحكم علاقة المؤمن ـ وهو يكدح إلى ربه ـ بالآخرين.

ولا يخفى أن ما تنطق به الوقائع عبر التاريخ يدل أوضح دلالة على ما للالتزام بتلك المعايير من آثار على بنية المجتمع المسلم بشتى شعبها وفروعها وعلى بنية الأمة جمعاء إيجاباً أو سلباً!!

من هنا كان لزاماً أن تتقلنا المنجزات العظيمة التي حققها أولئك الرجال الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وكانت موالاتهم ـ بحق ـ لله ولرسوله وللمؤمنين، وأحبوا الله ورسوله أكثر من حبهم لآبائهم وأبنائهم بل وأنفسهم.. كان لزاماً أن تتقلنا هده المنجزات في شتى ميادين الحضارة وكل ما فيه تحقيق سعادة الإنسان في دنياه

وأخراه بعد تحقيق وجوده الإنساني حرية وكرامة، ومع الذي أوردنا من الآيات فيما سبق من القول: إلى لون من الوعيد نقع عليه في سورة «المائدة» يوحي بجزم وحسم أن الموالاة القائمة على حب اللّه ورسوله ما بدٌّ من أن تأخذ طريقها العملي على صعيد الواقع الذي تنشئه الأمة بالإسلام، في حالات السلم والحرب، وفقه العلاقة بين المؤمنين بعضهم ببعض، وبينهم وبين الآخرين كيف تكون؟

وليس ذلك فحسب، بل أن يكون السلوك في تسيير دفة الحياة، وتوجيه حركتها الوجهة النافعة المثمرة وفق تلك الحقيقة دون أي لبس أو تأويل!!

ذلكم قول اللّه تعالى في السورة المشار إليها وهي من أواخر السور نزولاً في المدينة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾.

أرأيت إلى هذا الوعيد: إنه وعيد للمؤمنين يشعر بكريم منزلتهم عند اللّه إذ المؤاخذة على قدر المكانة هنا ﴿مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾.

وحب اللّه لهذا البديل وحبهم له ـ سبحانه ـ ينعكس على الحركة جميعها؛ فهم أذلة على المؤمنين، أعزةٌ على الكافرين.

وتراهم ـ في الوقت نفسه ـ لا يقبضون أيديهم وأنفسهم في ساحة البذل لله؛ فهم يجاهدون في سبيل اللّه نشراً للدعوة، وحماية للحوزة، ودفعاً للعاديات.

وهذه المنقبة في مواجهة العدو الخارجي: يصحبها الحرص على حراسة الحق داخل المجتمع الإسلامي في كل جانب من جوانبه، الأمر الذي يحفظ عليه كيانه الإيماني، ويضمن له السلامة في بُناه كافة؛ فهم يصدعون بالحق آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر طاعة لله عز وجل.

وما أجمل ما ختمت به الآية الكريمة من قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ۝٥٤﴾ [المائدة ٥٤].

فمن أكرمه الله، فكان ممن يحبهم ويحبونه، ويضبط سلوكه المنهج المشار إليه، فذلكم من فضل الله العظيم الذي تفضل به عليه.

وإنما يكون شكر هذه النعماء المتفضل بها: بالثبات على ما كان هذا الفضل جزاءه، والأخذ بمزيد من العلم والعمل والجهاد، والصدع بالحق، وضبط التعامل مع المؤمنين وغيرهم بالضوابط الإيمانية المرضية لله الحكيم الخبير ورسوله عليه الصلاة والسلام.

تلكم واحدة من الحقائق التي تكمن وراء ما أنجز الرعيل الأول تحت راية التوحيد، ومن سار على سننه في تاريخنا العظيم!

ومن ذا الذي يماري في أن الأمة إذا أرادت ـ بجدية ـ أن يصلح من أمرها ما فسد، وأن يعود إليها وجودها الذاتي كاملاً غير منقوص: فما عليها إلا أن تربط ـ من جديد ـ أسباب الأجيال بأسباب أولئك الذين قال الله فيهم: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾.

أجل إن الخطوة المتقدمة نحو الهدف الكبير تبدأ من هنا.. ولله عاقبة الأمور.

* * *

البناء وما هو كفاء الغايات الكبار الموالاة وسورة التوبة

«٢»

كانت غايات كباراً جدّ كبار تلك التي ندب المسلمون إلى تحقيقها بدءاً من الصدر الأول بقيادة محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه، وذلك في التحول العظيم من جاهلية جهلاء أنهكت الفرد والجماعة إلى صياغة مشرقة للإنسان والمجتمع، والتحرك في ممارسة شؤون الحياة بمنهجية تضع كل أمر موضعه، طاعة لله تعالى، وتسير بالإنسان ـ وهو لم يخلق في هذه الدار عبثاً ـ إلى حيث الكرامة والطمأنينة في الدنيا، والنعيم المقيم في الآخرة، جزاء ما وفى بعهده لله مولاه، كما قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥].

وهذه الغايات الكبار: شاء الله أن يكون كفءها صدق الوجهة التي تجعل من المؤمن إنساناً يقدم حب الله ورسوله والجهاد في سبيله ـ وعن رضىً وانشراح صدر على كل مبتغىً في هذه الحياة. معتقداً أن العزة دائماً لله ولرسوله وللمؤمنين!

وعلى هذا تراه ـ وهو يسهم في إحكام البناء الذي تمليه الغايات الكبار ـ وولاؤه لن يكون إلا لله ولرسوله وللمؤمنين.

ولا تسل عن الآثار العملية التي تترتب على ذلك كله فيما يصنعه المسلم من توجيه حركة الحياة وجهة بنَّاءة تثمر الخير والنماء، وتزيح من طريق الإنسانية ركام التشتت والضياع وتعطي وفق منهج إنساني دقيق: كل ذي حق حقه دون تجاوز أو ظلم!!

ولقد مر بنا فيما أسلفنا من القول في هذا: أنموذج للإنسان المسلم الذي تناولت تربيته وتزكيته يد محمد ﷺ وأُحكم بناؤه بعناية على هذه الحقائق التي استنار بها عقله، وصفا قلبه، فكان منه الموقف الحاسم القدوة. موالاةٌ لله ولرسوله وللمؤمنين ومعاداة لأبيه رأس المنافقين تعلن أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين..

أجل إنه موقف الصحابي عبد اللّه بن عبد اللّه بن أُبي من أبيه عبد اللّه بن أُبي يوم كان منه ما كشف عنه قول اللّه تعالى في سورة المنافقون: ﴿**هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾**﴾.

والحق أن الكتاب العزيز، لم يدع هذا الأمر نافلة يفعلها المؤمن إن شاء، ويختار غيرها إن حلا له أن يختار، ولكن جعلها حجر الزاوية في البناء ثقافةً وسلوكاً، والبرهان الذي ليس وراءه برهان ـ في هذه الساحة ـ على صدق الوجهة ـ بقناعة عقلية وذوق قلبي إيماني ـ في التحرك تحت راية الكلمة الطيبة «لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه»، حيث ينعكس ذلك على العمل والسلوك والأخذ والعطاء في حقل التكامل مع الآخرين على اختلاف مواقعهم، ناهيك عن دلالته على مدى الحرص على سلامة المجتمع من الداخل، بما يدفع إليه من الصدع بالحق، أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر دون الخوف من لومة لائم، وسلامته من الخارج بالجهاد الصادق في سبيل اللّه.

ولقد كانت الكلمة الهادية واضحة في ذلك الوضوح كلّه؛ كالذي رأينا من قبل في سورة «المائدة» من قول اللّه جلَّ ذكره: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾**﴾.

وهذا الذي نادت به الآية الكريمة: ضمان تحقيقه: أن تكون الموالاة والمعاداة وفق المعيار الذي حدَّده المنهج الرباني؛ ولنقرأ في ذلك ما تلا هذه الآية من قوله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

جميل حقاً، ومؤذن بأفضل النتائج: أن يكون البناة العاملون في ساحة الحركة والبناء الحضاري، على تصور واضح من أول الطريق للغايات الكبار، في توجيه الطاقات المتوافرة وجهة العطاء والنماء، ولكن الذي يجب أن يصحب ذلك، إعداد صحيح وبناء متكامل متوازن للإنسان، يخرجان بتلكم الغايات عن دائرة الأماني والآمال فحسب، إلى حيث يحملها الإنسان المؤهل بأمانة وصدق عزيمة إلى ساحة التخطيط الموضوعي والتنفيذ الأمين.

والخير كل الخير في استئناف الطريق التي تصل الفرد والجماعة بما هدت إليه معالم الكتاب العزيز في بناء الإنسان المسلم ـ ذكراً كان أو أنثى ـ على الحقيقة التي رأينا في تلكم الآيات من سورة المائدة ـ وكم لها من نظائر ـ.

علماً بأن خطاب المؤمنين في القرآن ـ وهو على التغليب ـ لا ينحصر بزمن أو جماعة من الناس.

والواقع الذي تعيشه الأمة اليوم: إعلان صارخ عن ضرورة استئناف الطريق، والعودة بوعي إيماني ومنهجية واقعية إلى ما به كانت هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس.

* * *

بناء المسلم والمسلمة.. وتحرير القاعدة والمنطلق الموالاة... وسورة التوبة

«٣»

ما هدانا إليه المعلم القرآني في خطوة على ساحات الحديث عما هو كفاء الغايات الكبار عند البناء: ينقلنا ـ والأمر يتعلق بسلامة المنطلق عند المسلم كيما يكون قادراً على العطاء وهو يرتاد الطريق لبناء سليم متكامل على صعيد الفرد والمجتمع ـ ينقلنا إلى ما جاء في سورة «التوبة» من وضوح في قضية الموالاة والمعاداة، ونهي قاطع للمؤمنين عن أن يأخذهم عن ساحة الإيمان والجهاد الصادق، أيُّ نوع من أنواع الميول والرغبات؛ ذلكم قول الله جل ثناؤه:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ تلا ذلك شديد الوعيد الذي يهول المؤمن أن يكون ممن يطولهم لوقوعه فيما جاء النهي عنه والعياذ بالله، فقال جلت حكمته وتباركت أسماؤه مخاطباً نبيّه عليه الصلاة والسلام: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

إن الغايات الكبار التي يطمح المخلصون إلى البذل في تحقيقها من خلال عملية البناء الكبرى كفاؤها كما أسلفنا: صدق الوجهة، والاستعلاء على المعوقات مهما كان شأنها رغباً ورهباً، والارتفاع عن المستوى الهابط مهما كانت الأسباب والدوافع!!

وذلك ما صنع عبد الله بن عبد الله بن أُبي رضي الله عنه ساعة برهن لأبيه بالسلوك العملي أن العزَّة لله ولرسوله وللمؤمنين، لا كما زعم هو بكلمته الخرقاء: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ﴾.

وصنيع عبد اللّه: بينه وبين ما صنع أبو عبيدة وأبو بكر رضي اللّه عنهما في بعض الغزوات: تشابه، والنماذج عديدة في هذا الباب.

والذي أقدرهم وأعانهم رضي اللّه عنهم وأرضاهم على اتخاذ هذه المواقف ـ بعون اللّه وتوفيقه ـ صدق الوجهة في موالاتهم لله ولرسوله وللمؤمنين؛ والحق أحق أن يتبع، ورضى اللّه مبتغى المؤمن قبل كل شيء، وهو مطلب تهون معه المطالب الأخرى كافة.

وأنت واجد أن هذا البيان الذي نراه في الآيتين الكريمتين هنا في سورة التوبة: نوع من التفصيل لا نجده ـ لحكمة ربانية ـ فيما رأينا من قبل في سورة آل عمران المدنية، حيث النهي هنالك عن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين، ولفظ «الكافرين» عام يشمل القريب والبعيد، ولكن شاء اللّه أن يجيء التنصيص على الأقربين والإشارةُ إلى بعض الرغبات في سورة التوبة.

ففي سورة آل عمران نقرأ قول اللّه تعالى: ﴿ لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ ﴾.

وتحذيراً من تسويلات النفس والشيطان في تزيين موالاة الكافرين تحت ألوان من الزخارف والتأويلات كيما يكون بناء الإنسان المسلم على هذه الحقيقة في غاية القوة والوضوح: تلا ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ ﴾.

كان هذا الوضوح في تحرير الموالاة والمعاداة على وجه العموم، وكانت النتائج التي حررت الإنسان من قيود الوثنية والمهانة والخضوع لما يقعد به عن تحقيق إنسانيته والغاية التي من أجلها خلق.

وكل أولئك أمانة في أعناق القادرين اليوم أن يعودوا بالأمة سيرتها الأولى فيعدُّوا أجيالها على الهداية الربانية جيلاً بعد جيل وبذلك تنحل العقدة الكبرى ويعود للأمة ما ضاع منها بإعراضها عن الإسلام.

* * *

الموالاة.. وبناء المسلم والمسلمة وسورة التوبة

«٤»

قادنا الحديث في كلمات سبقت عن نهي الكتاب العزيز عن موالاة الكافرين، وذلك باتخاذهم أولياء وبطانة تؤتمن على ساحة الرأي والمشورة وما إلى ذلك من حب ومخالطة قلبية، وما كان من الوضوح في بناء الإنسان المسلم على ذلك... قادنا ذلك إلى ما جاء في سورة «التوبة» المدنية من تفصيل لإجمال وقعنا عليه في آيات أخر في سور أخر من أمثال سورتي «آل عمران» و«المائدة».

وما جاء في سورة «التوبة» هو قول اللّه تبارك وتعالى بدءاً من الآية الثالثة والعشرين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

وهذا التفصيل الذي لا يتنافى مع الإفادة مما عندهم من العلم التقني، والتجربة، وكل ما هو من الأسباب الأرضية في إعداد القوة دون الوصول إلى مرتبة الموالاة القلبية. والذي لا بد من العودة إليه للاستنارة بعطاء المعلم القرآني فيه: جاء إجماله في سورة «آل عمران» حيث النهي عن اتخاذ الكافرين أولياء ـ على وجه العموم ـ من دون المؤمنين.

وقد سبقت الإشارة إلى أن كلمة «الكافرين» هنا يدخل فيها القريب والبعيد من هؤلاء الكافرين. ذلكم قوله تعالى: ﴿لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية.

وقد توعدت الآية من يقعون في هذه الحمأة شديد الوعيد؛ فهم ليسوا من الله في شيء وعاقبتهم غضب الله وعقابه، أجل: من يرتكب نهي الله في هذا: فقد برىء من الله.

هكذا تشير بكلماتها الهاديات إلى أن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين، تجعل من يقعون فيه على خط مغاير تمام المغايرة للدين وما يقتضيه في هذا الأمر الجلل؛ فهم بجانب والدين الذي ينتمون إليه بجانب «فليس من الله في شيء» أي فليس من دين الله في شيء؛ فمن يرتكب نهي الله في هذا فقد برىء من الله!!

وكان التحذير من غضب الله شديداً في قوله جل وعلا: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ أي يحذركم نقمته في مخالفته، وسطوته وعذابه لمن والى أعداءه وعادى أولياءه ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ أي إليه المرجع والمنقلب، ليجازي كل عامل بعمله، كما روى ابن أبي حاتم عن ميمون بن مهران قال: قام فينا معاذ فقال: «يا بني أود: إني رسول رسول الله إليكم، تعلمون أن المعاد إلى الله إلى الجنة أو إلى النار».

أجل ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾؛ فإليه ـ سبحانه ـ المرجع والمآب، فيجازي كلاً بما كسبت يداه إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

وارتباط هذا الختام للآية بالأمر المنوَّه عنه واضح كل الوضوح؛ فأي فائدة ترتجى إن وقع المنتمون إلى الإسلام فيما يغضب الله تعالى ويوقع في مؤاخذته وعقابه؟!

هذا: ومن أجل أن تؤخذ الحقيقة من أطرافها جميعاً: ما بدٌّ من العودة إلى التذكير بما جاء في سورة «المائدة» من التنصيص على أن الموالاة في معيار الإسلام إنما تكون لله ولرسوله وللمؤمنين؛ وذلك ما يعقب انتصار المسلمين وغلبتهم على أعدائهم، لأن ذلك من الأسباب الجوهرية التي أمروا بها على ساحة الإعداد وبناء القوة الذاتية.

وما نشير إليه في هذه السورة المباركة هو قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

ويهدينا ذلك إلى قوله جل ثناؤه في السورة نفسها: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾.

أرأيت إلى هذا الوعيد بجفوة الموالاة لله ولرسوله وللمؤمنين، واستبدال موالاة اليهود والنصارى بهذه الموالاة؟! ثم التنديد بما يفعله الذين في قلوبهم مرض، وبشارة المؤمنين بالفتح أو أمر من عنده، وما يثمر ذلك من الندامة عند مرضى القلوب الذين يسرون في أنفسهم حب اليهود والنصارى وموالاتهم، متذرعين لذلك بتعلُّلات مفتعلة لا قيمة لها في ميزان الله ولا وزن؟!

وإلى أن نلتقي على نظرات يتسع لها وقت الرحلة العجلى مع آيتي سورة التوبة المشار إليهما في صدر هذا الحديث: أود التنويه بأن القراءة الواعية المتدبرة لتلكم الآيات في سور آل عمران، والمائدة، والتوبة، وأمثالها من الآيات المنثورة في الكتاب المعجز، تلك التي عملت على تحرير المسلم والمسلمة من كل ما يعوق عن الحركة والجهاد: كفيلة ـ مع الحركة بتساوق مع سنن الله والأخذ بالأسباب ـ بأن تمدَّ التطلعات المستقبلية بما يحوِّلها إلى وجود عملي تقطف الأمة ثماره إن شاء الله، بناءً متكاملاً يشمل ميادين الحياة كافة، ويعيد ـ بعون الله ـ تلك الأمة إلى موقعها الطبيعي في العالمين، تحمل رسالة الخير إلى الناس كافة، وتوجه حركة الحياة بذاتية وأصالة وفق منهج الله العليم بما يصلح عباده ويسعدهم في أولاهم وآخرتهم.

* * *

مرة أخرى.. معيار الموالاة والبناء وسورة التوبة

«٥»

اختلاف مناهج الإعداد والتربية والتثقيف قليلاً أو كثيراً، عما تمليه الرسالة الخاتمة وما كنا عليه يوم كان الإسلام بعقيدته وأحكامه وآدابه هو الموجه الأول على هذه الساحة: كل أولئك من الأمور المهمة التي تستدعي مزيداً من العناية بغرس ضوابط الولاء والبراء في النفوس وإعطائها ما تستحق من فقه النص وأبعاده على الساحتين الثقافية والعملية، وما يستلزم ذلك ـ مع الحزم ـ من الحكمة وحسن التأتي والحصافة في إيراد القضايا مواردها المناسبة!

وهذا يدعو إلى متابعة اصطحاب المعلم القرآني فيما نزمع من ذلك، واستجلاء ما تحمل الآيتان الثالثة والعشرون والرابعة والعشرون من سورة التوبة، وما تشرق به من عطاء في شأن ما تجري الإشارة إليه من الموالاة والمعاداة في معايير الإسلام، وما يتضمن ذلك من حرص على تحرير المنطلق بعد وضوح الغاية عند أولئك الذين تفضل الله عليهم، فكانوا رعيل البناء الأول الذي أزال ركام الجاهلية إلى غير رجعة، ومهّد السبيل للبديل الصالح، ورفع قواعد البناء الذي طالما انتظرته الإنسانية عبر القرون، في ظل عقيدة التوحيد التي ينبثق عنها نظام كامل يسع الحياة بمجالاتها وميادينها جميعاً.

والآيتان الكريمتان ـ كما أسلفنا ـ هما قول الله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

وأنت ترى أن الوعيد الذي حملته الآيتان وعيد بالغ الشدة، وتتضح هذه الشدة أكثر وأكثر فيما أنذرت به الكلمات الهاديات في ختام الآية الثانية ﴿ فَتَرَبَّصُوا ﴾ فانتظروا ماذا يحل بكم من عقابه ونكاله إن أنتم وقعتم في شرك هذه المفاضلة التي يحملها قوله تعالى: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ وتأكد هذا الإنذار المرعب الذي لا يدع مجالاً للتردد بقوله سبحانه: ﴿ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾.

ترى أي أمر هذا من النكال والعقاب والانقلاب على الأعقاب، وكيف يكون الفاسقون الخارجون على ضوابط الموالاة والمعاداة، الذين يختارون حب الدنيا وما فيها من المتاع الزائل على حب اللّه ورسوله والجهاد في سبيله.. كيف يكونون ممن يكتبون عند اللّه من المهتدين؟!

والحق أن الجيل الفريد الذي أسلم القلوب والعقول للهداية الربانية، وانقاد عن رضىً ومحبة وتسليم للمصطفى عليه الصلاة والسلام: كان وقافاً عند الوعد والوعيد، والصدق فيما عاهد اللّه عليه بشهادته أن لا إله إلا اللّه وأن محمداً رسول اللّه.

من هنا يمكن القول: بأنا لسنا بحاجة إلى شيء من العناء في البحث لنخلص إلى أن العبء الذي حُمِّله أبناء ذلك الجيل الذين استجابوا لدعوة الحياة: لا بد للقيام به من تحكيم هذا المعيار الذي تنطق به الآيتان الكريمتان ـ وكم لهما من نظائر ـ وهو المعيار الذي يضمن إيجابية التحرك، وعدم القعود عن المثابرة الجادة والتحرك نحو الهدف الكبير ببذل وعطاء.. استجابة لشيء من العاطفة الخاصة، أو الميول لمبتغيات الحياة، أياً كان ذلك المبتغى.

وهذا لا يعني استهانة بما يميل إليه الإنسان بطبعه وفطرته كما خلقه اللّه؛ فالشرط واضح في النهي ﴿ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

ولكن يعني تصنيف الأولويات، وأن يكون حب اللّه ورسوله والجهاد في سبيله، هو المقدَّم أبداً، وهو المحور الذي يحدد المنطلق في رحلة البناء والإنماء المطلوبين في نور الهدي الرباني، ويزيل الغبَش عن الأعين كيما تكون الغاية في نقائها وسموها وضحة كل الوضوح، الأمر الذي يقدُر المكلَّف على إقامة البيِّنة الصحيحة على ما يقتضيه الإيمان.

لأن عدم إقامة هذه البيِّنة له دلالته على أن صاحب الدعوى مدع وليس بمؤمن حقاً.

والدعاوى إن لم يقيموا عليها بيناتٍ أصحابُها أدعياءُ

وغني عن البيان أن تشعُّب الأمور على ساحات البناء المرتقب اليوم، وتنوُّع السبل الموصلة إلى تنمية القدرة على العطاء في بنى المجتمع المسلم ـ كما يريدها الإسلام ـ وما وصل إليه العقل البشري من معارف، وما أحرزه من نتائج ولدتها العلوم التطبيقية.. غني عن البيان: أن ذلك كله، يجعل الحاجة أمسَّ إلى أن يوضع المعيار الرباني المشار إليه في الحسبان، كيما تتجدد الحوافز من داخل النفس، ويكون العاملون ـ حين يتاح لهم أن يعملوا فلا تحجز حرياتهم ولا يهجَّروا ـ أقدر على تجاوز العقبات، وما قد يعترض سبيلهم من ألوان الرغب أو الرهب التي تحول دونهم ودون الإنجاز المرضيِّ لله ولرسوله وللمؤمنين. وهو الإنجاز الذي يعكس عند المسلم ـ وهو يعمل ويكدح ويجاهد ـ حبَّ اللّه ورسوله والجهاد في سبيله.

أما المخالفة عن ذلك المعيار موالاةً أو معاداةً: فذلكم هو الارتكاس الذي يجر على الأمة ما يجر من ويلات ونكبات ومثلات تهدر طاقات الفرد والجماعة، وتضعها غير موضعها، أو تحرم الأمة منها أو من بعضها لسبب أو لآخر!!

ومن الأمور التي لا يختلف عليها منصفان: أن تسيير طاقات المجتمع البشرية والاقتصادية والعلمية وغيرها في غير مجراها الطبيعي: من أعظم النكبات المصابة بها الأمة اليوم!!

وتوكيد هذه الحقائق جملة بعض مما يحمله الوعيد في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ﴾الآية ونظائرها في كتاب اللّه العزيز.

وإنها لأمانة ثقيلة في أعناق القادرين على تحويل الشراع، وإعادة الأمور إلى نصابها طاعة لله ورسوله، وحرصاً على مصالح الأمة في الميادين كافة، واللّه لا يضيع أجر من أحسن عملاً، وما أسوأ نتائج الهدامين والمعوقين عن الخير في الدنيا والآخرة!!

* * *

الوجود الحضاري.. وسلامة المعايير وسورة التوبة

«٦»

الوجود الحضاري الذي تحمَّل تبعاته ظاهراً وباطناً في ميادين البناء والتحويل إلى التي هي أقوم، أولئك البررة الذين شهدوا متنزل الوحي، وخاضوا معركة الحياة بإيمان يزداد يوماً بعد يوم، وصدق عزيمة متجدِّد.. ما كان ليكون على هذه الصورة من التكامل والعمق ـ واللّه غالب على أمره ـ لولا أن ما قدَّمه هؤلاء الجند المحمديون كان في واقع الأمر، شاهد صدق على ربانية هذه الدعوة، ولولا ذلك الاحكام في بناء الفرد المسلم ـ ذكراً كان أو أنثى ـ والأخذ بيد المجتمع بمنهجيته وحفاظ على حرية الإنسان وكرامته، وكل ما يضمن الانتفاع بالطاقات والإمكانات على صعيد البناء المثمر، في ضوء الغايات الكبار، والمعايير التي يشرق بها الكتاب العزيز وسنة النبي عليه الصلاة والسلام، تلكم المعايير التي تكرِّم القيم، وترتفع فوق الرغبات الشخصية التي قد تنأى عن الحق، وتجفو أهله.

وفي صفحات قريبات: كانت لنا رحلة عجلى مع نصوص على هذه الساحة من سور «آل عمران، والمائدة، والتوبة» كان آخرها ما جاء في الآيتين الثالثة والعشرين، والرابعة والعشرين من سورة التوبة، وذلكم قول اللّه تبارك وتعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

وأنت واجد في الآيتين الكريمتين لوناً من التكامل المعجز، ما بدٌّ من أن يتنبَّه إليه عند التربية والتزكية وإعداد الإنسان المسلم ـ ذكراً كان أو أنثى ـ ثقافة وتصوراً واستقامةً على طريق الغاية التي هي المقصد الأسنى في هذه السبيل.

والتكامل الذي نعنيه، هو الذي يبدو في الترابط بين النهي عن موالاة الكافرين ولو كانوا في أعلى درجات القرابة، وبين ما يجب أن يكون عليه المؤمن من تقديم حب اللّه ورسوله والجهاد في سبيله على كل حب في الدنيا.

وكأن الكلمات الهاديات المشرقات بهذه الحقيقة، تشير إلى أن اتخاذ الآباء، والإخوان الذين استحبوا الكفر على الإيمان، أولياء ونصراء؛ دليل على أنهم أحبُّ إلى ذويهم من اللّه ورسوله وجهاد في سبيله، ولو كان اللّه ورسوله، والجهاد في سبيل اللّه، أحبَّ إليهم من ذوي قرابتهم من الآباء والإخوان، لما كان منهم هذا الموقف الذي يعوق عن نصرة الحق، وعن تحمل الأعباء المطلوب من المؤمن تحملها في ميادين العمل والسلوك.

ونعود إلى الآية الأولى. لنرى هذا النهي الصارم الذي يجعل معيار الموالاة المنوط بالإيمان: لقاءً على مقتضيات هذا الإيمان، وإن تباعد النسب، وإلا كان الوقوع طامة الظلم لا محالة والعياذ باللّه.

فالذين تختلُّ عندهم الموازين، ويحيدون عن التزام هذا المعيار: ظالمون لأنفسهم، ظالمون لمجتمعهم وأمتهم، لما يؤديه إليه صنيعهم ـ مع التناقض بين دعوى الإيمان وبين العمل ـ من شرخ في كيان الفرد والجماعة، له ما له من سوء العواقب ضعفاً، وجفوة لما فيه عزة أهل الإيمان، وارتفاعهم فوق البواعث التي يفترض أن لا ينوء بها المؤمن، بل أن يكون في غاية الوثوق بوعد اللّه لمن التزما تلك المعايير النورانية العظيمة.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

فلكم تعوق هذه الموالاة للكافرين، خضوعاً لما تمليه القرابة النسبية: عن تكامل المسيرة الخيِّرة في ميادين البناء الذي يتناول الفرد والأسرة والمجتمع، ويحول دون هذا التكامل ودون أن يأخذ طريقه المنهجي الصحيح الانتماء إلى العقيدة الصحيحة. في كل منحىً من مناحي الحياة!!

وإنما يكون ذلك ـ حسبما يهدي إليه المعلم القرآني ـ لأن حركة الحياة، وفق المنهج الرباني، لا بد أن تكون صحيحة النسب إلى ما تمليه العقيدة من قواعد البناء، ومعايير القرب والبعد، بين المؤمن وبين الآخرين كائنين من كانوا، لأن الحق فيما هو ولاء وما هو براء. أحق أن يتبع، وإنه للحق الذي يضع الأمور مواضعها بسلاح من القوة لا يُفَلُّ!

وما أكثر الوقائع في الماضي من تاريخنا وحاضره التي تصدِّق ذلك وتؤيده أوضح التصديق، والتأييد.

ولا يخفى على منصف ذي ذاكرة سليمة، وقدرة على تحليل الوقائع التاريخية، وبناء النتائج على المقدمات: أن المنهج الذي قدر على العطاء ـ بعون اللّه وتأييده ـ في الماضي، قادر اليوم وكلَّ يوم على هذا العطاء، ولكن المهمَّ كل الأهمية: أن تصدق النيات، ويقوم البرهان على التواؤم بين السلوك وبين المعتقد، كيما يكون حب اللّه ورسوله والجهاد في سبيله، مقدَّماً على كل رغبة أو تطلُّع، الأمر الذي يثمر تجنيد القوى والطاقات جميعاً على صعيد الخير المنشود للأمة وهي تعاني ما تعاني، واللّه يقول الحق، وهو يهدي السبيل.

* * *

البناء.. والترابط بين المعايير والسلوك وسورة التوبة

«٧»

كانت لنا من قريب، إشارة عجلى إلى الترابط الوثيق بين الآيتين الثالثة والعشرين والرابعة والعشرين من سورة التوبة، وهو ترابط يلمح بناصع البيان إلى أن اتخاذ ذوي القرابة النسبية القريبة من الآباء والإخوان أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان: إنما ينشأ عن حبهم أكثر من حب اللّه ورسوله والجهاد في سبيله. والمطلوب في الأصل: أن يكون حب اللّه ورسوله والجهاد في سبيل اللّه في المكان الأسمى من الحب والولاء عند المؤمن، كيما يكون قادراً على البذل وهو يتحرك على طريق البناء المتكامل والعطاء المثمر تحت راية العقيدة التي هي مناط الصلة الحقيقية بينه وبين الآخرين.

فهؤلاء الذين تربطه بهم آصرة العقيدة: هم الذين يشركونه رحلة البناء وفق المنهج الرباني المتميز، ويتعاون معهم على إنشاء الواقع الذي تقود وجوده شريعة الإسلام.

والآيتان الكريمتان المعنيَّتان: هما قول اللّه جلت قدرته: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

هكذا يبدو توجيه المؤمنين إلى الحذر البالغ في قضية الموالاة والمعاداة، وذلك بأن يكون حب اللّه ورسوله هو المقدَّم بإطلاق ظاهراً وباطناً، وأن تكون الموالاة لله ولرسوله والمؤمنين. وأن الوقوع في عكس هذا: ارتكاس يتناقض وصدق الإيمان، ويدل على أن حب اللّه ورسوله والجهاد في سبيله، لا يأخذ ذلك السمو والتقديم، وهذا من أسوأ الآفات والعياذ باللّه!!

وإذا كان من المسلَّمات الأولى أن اللّه تبارك وتعالى ـ وهو الخالق الحكيم ـ أعلم بما ينطوي عليه الإنسان الذي خلقه هو سبحانه فسواه: فإن الآية الرابعة والعشرين من سورة التوبة نفسها ـ كما نرى ـ قد تعدَّت إلى أقرباء آخرين من ناحية النسب، ومن ناحية الزوجية والانتماء إلى العشيرة، كما ضمت نماذج مما يميل إليه الإنسان بغريزته ويحبه ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾[العاديات: ٨] فذكرت الأبناء والأزواج والعشيرة، والأموال ـ عموماً ـ والتجارة والمساكن.. ذكرتها بأعيانها كلها، وتوعدت أن يكون حبها مقدماً على حب اللّه ورسوله والجهاد في سبيل اللّه، بأن ذلك سبيل الهلاك، وعنوان الخروج على الطريق التي يرضاها اللّه ورسوله والمؤمنون، الطريق التي يعني سلوكها على الوجه الذي ينبغي: صدق الإيمان والوفاء بعهد اللّه وفاءً يسمو بصاحبه إلى الاستعلاء على الرغبات جميعاً مهما بلغت من القرب والتوافق مع الميول المنافي!!

ونعود إلى التذكير بالآية الكريمة مرة أخرى ﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ۝٢٤﴾ .

وبعد: فلست أدري أين يكون موضع تلك الدعوات التي ترتبط أيَّما ارتباط ـ لا مكان لغيره فيها على الإطلاق بالأرض، أو القوم، أو الجنس، أو الفكر المعادي لما جاء عن اللّه ورسوله؟ أو غير ذلك من دعاوى الجاهلية! أين يكون موضعها إزاء ما تقرره تلكم الكلمات الهاديات التي تحمل أقوى طرائق النهي عن الجنوح إلى موالاة تقوم على القرابة مع جنوح الأقرباء إلى الكفر، لما أنهم يستحبون الكفر على الإيمان، كما تحمل أشدَّ ألوان الوعيد والتحذير من أن يكون شيء من تلكم المبتغيات في الدنيا أحبَّ إلى المؤمن من اللّه ورسوله وجهاد في سبيله...؟

لقد وعى المؤمنون الأولون هذه الحقيقة، وحملوها نوراً في القلوب، وقناعة في ساحة المعرفة والعقول، فانعكست آثار ذلك على ممارستهم اليومية لشؤون الحياة وهم يعمرون الأرض وينشئون حضارة الإسلام، ويبذلون المستطاع في أن تأخذ قافلة البناء المتميز المشرق بالعلم والعمل والمنهجية في استيفاء الأخذ بالأسباب، طريقها إلى وجود يصوغه الإسلام..

وليس من نافلة القول معاودة التذكير مرة بعد مرة: بأن الحرص على استئناف المسيرة الحضارية التي ارتاد طريقها من وعوا تلك الحقيقة وحملوها ورعوها حق رعايتها: يوجب العودة الصادقة إلى ذلكم المنهج الرباني في كتاب اللّه وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام عودة تتسع لها مناهج البناء والإعداد، تربية وتعليماً وتثقيفاً وإعلاماً في كل المراحل والمستويات، شريطة أن يقدم لكل مرحلة من مراحل السن وغيرها عند المتلقين ما يناسبها وفق التدرج الحكيم، الذي لا تعوزه مراعاة البيئة والملابسات، وتطور المفاهيم مع الحق أو مع ما سواه، واللّه الهادي إلى سواء السبيل.

* * *

ثقافة المعرفة والسلوك.. ومعايير البناء وسورة التوبة

«٨»

النظرة المتأنية الواعية إلى واقع الأمة، وما يكتنفها من مصاعب شداد تنعكس انعكاساً مؤذياً على ما يراد من بناء سليم وتنمية للقدرة الذاتية.. هذه النظرة تخرج بصاحبها إلى مزيد من الاقتناع بأن ما يحمله الإنسان ـ وهو المحور في البناء والإنماء ـ من أفكار وتصورات وما ينتهج من سلوك معرفي: له غاية الأهمية في هذا الميدان، سواء أكان ذلك على ساحة التلقي للعلم والمعرفة، أم على ساحة الممارسة والتجربة والتطبيق.

قدوتنا في ذلك ما رأينا فيما سبق من القول: من عناية القرآن الكريم بتنمية الذاتية عند المؤمن في صدق الوجهة واتخاذ المواقف التي لا تعوزها الاستقلالية، ومنهجية النظر، والتي تقوم على الموالاة لله ولرسوله وللمؤمنين، لأنه لا شيء أحب إلى هذا المؤمن من الله تعالى ورسوله المصطفى، وجهاد في سبيله تحت راية مباركة يتحركه في القتال تحتها إخوانه المؤمنون.

ولقد وقفنا واحد من المعالم القرآنية في سورة المائدة على أن الموالاة لله ولرسوله وللمؤمنين: هي طريق النصر والغلب بإذن الله؛ ذلك بأن هذه الموالاة تعني المنهجية الواعية التي تحقق الأخذ بالأسباب من أطرافها، وتحرير المنطلقات ونوعية العناصر التي تتعاون ـ بحوافز إيمانية وأخوة صادقة ـ على طريق البناء والإنماء؛ ذلكم قول الله تعالى في السورة المشار إليها: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

وهكذا يتبدَّى تكامل المنهج في البناء المتكامل للإنسان المسلم على هذه الحقيقة كيما تكون خطواته ـ وهو يسهم في عملية البناء الكبرى التي تترجم معالم رسالة الإسلام ـ متسقة مع عقيدته التي أشرق بها قلبه وعقله، وراح يتحرك وفق ما تمليه السنن الربانية في هذا الوجود!

ويتبدى هذا التكامل الذي نومىء إليه: فيما جاء من النهي القاطع عن اتخاذ أي موقف يتجافى مع الموالاة التي حدَّدها الشارع، ووضع معاييرها الشاملة بوضوح لا يعتريه لبس.

فكما أن موالاة اللّه ورسوله والمؤمنين: طريق الغلبة والنصر بإذن اللّه تحت راية الحق والهدى. فاتخاذ الموقف العكسي، كائنة ما كانت الأسباب من قرابة، أو ميل لمصلحة شخصية وحب لمبتغيات الدنيا: طريق الخذلان، وعنوان الخروج على الحق الذي به نزل الكتاب؛ ذلكم ما رأينا في سورة «التوبة» من قول اللّه جل ثناؤه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

وانظر إلى هذه اللمسة العلوية من الإعجاز في قوله سبحانه: ﴿ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾ أليس في واقع الأمة اليوم، وما ينالها من أذى الأعداء والمتربصين بها وبرسالتها: ما يدل أوضح الدلالة على أن هذا الكلام كلام اللّه العلي الحكيم؟! فقد حصل ما حصل من الجفوة في كثير من بقاع المسلمين للإسلام، واستُبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، خصوصاً بعد طرح الأفكار القومية الجانحة التي أعقبت سقوط الخلافة؛ فحقت عليهم الكلمة، وجاء أمر اللّه بالنتائج الطبيعية لهذه الجفوة، التي صحبها أيضاً مخالفة عن سنن اللّه في الأخذ المنهجي بالأسباب؛ لأن ما صنعه أولئك الجانحون الذين استبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير: جنوح صارخ عن

طاعة اللّه وطاعة رسوله، وانصراف متعمد عن المعايير الحقيقية التي يفترض بالمسلم ـ ذكراً كان أو أنثى ـ أن ينضبط بها سلوكه من كل الوجوه، وأن تكون ممارسته لشؤون الحياة على هديها ﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ وهم الخارجون على ما يقتضيه الدين الحنيف.

وإذا كان من إعجاز القرآن: أن مضموناته في الهداية والبناء المتكامل على الخير، تتخطى حدود الزمان والمكان وألوان الجنس والانتماء: فإن من الواجب ـ بعد تلك الوقائع المريرة ـ تثقيف أبناء الأمة جيلاً بعد جيل بأن خطاب القرآن لهم اليوم ـ ذكوراً وإناثاً ـ كما كان للذين من قبلهم بالأمس؛ ومقتضى التثقيف الحقيقي، أن يطوِّع السلوك للحقيقة التي آمن بها الإنسان، وإلا وقع التناقض!

وإذن فما بدَّ من الثقافة التي تجمع بين المعرفة والسلوك، كيما تكون تباشير اليقظة إيذاناً بتحول جديد إلى التي هي أقوم، ترتفع معه قواعد البناء للإنسان والحياة، واضحة المعالم، تصل الأمة بالمورد العذب من منابع أصالتها وذاتيتها من جديد، واللّه غالب على أمره وهو المحمود على كل حال.

* * *

إنما يخشى اللهَ من عباده العلماء
والبناء على العلم الحقيقي الذي يؤدي إلى الخشية

«١»

في القرآن الكريم كثير من الآيات التي قد يمر بها القارىء ولا يحسن التصور لسعة مدلولها فيما وراء الظاهر الذي تدل عليه لأول وهلة. من ذلك قول اللّه جل ثناؤه في سورة فاطر: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [فاطر: ٢٧-٢٨].

ودون تكلف أو تطويع للآيات وحملها على معانٍ لا تحتملها كما يفعل البعض عند التعامل مع الآيات الكونية، نرى أن هاتين الآيتين الكريمتين ـ وهما من الآيات الكونية في القرآن ـ تنطقان بتذكير الناس بقدرة اللّه تعالى التي تتجلى في آثارها المبثوثة في مظاهر هذا الكون العريض هنا وهناك.

فاللّه تعالى هو الذي أنزل الغيث من السماء، فأحيا به الأرض بعد موتها، وأخرج لعباده ثمرات مختلفاً ألوانها وطعمها في الوقت الذي تسقى بماء واحد وفضَّل بعضها على بعض في الأكل.

وهو ـ سبحان ـ أرسى الجبال، وجعل فيها طرائق بيضاً وحمراً مختلفاً ألوانها، كما خلق ـ جل شأنه ـ تلك الصخور شديدة السواد. أشار العلامة ابن جُزيٍ في «التسهيل»: إلى أنه (قدَّم الوصف الأبلغ وكان حقه أن يتأخر، وذلك لقصد التأكيد وكثيراً ما يأتي مثل هذا في كلام العرب والغرض بيان قدرته تعالى: فليس اختلاف الألوان مقصوراً على الفواكه والثمار بل إن في طبقات الأرض وفي الجبال الصلبة ما هو أيضاً مختلف الألوان.

وهو الذي خلق ـ بقدرته ـ الناس، والدوابّ، والأنعام مختلفاً ألوانها كذلك).

وواضح أن الناس ـ وقد وضع اللّه فيهم أهلية الإفادة مما سخر لهم بحكمته البالغة ـ ينعمون بتلك الخيرات التي هي من فضله جل وعلا، ولكن العلماء المتخصصين الذين ينظرون إلى المخلوقات كيف خلقت وإلى ما فيها من الآيات كيف جرى تكوينها ووضع كل جزئية مهما دقت موضعها على الصورة المعجزة في الخلق والتكوين والإعداد الحكيم لما خلقت له.. هؤلاء العلماء الذين تصلهم عظمة الخلق بالخالق وقد استنارت منهم القلوب والعقول، هم القادرون على إدراك ما وراء مظاهر هذا الخلق على تنوعه من دفائن وكنوز، حسب بنية التربة والصخور وتلك الطرائق في الجبال.

كما يدركون ـ بالعلم ـ أية معامل كيميائية تعمل داخل تلك المخلوقات في الشجر مهما اختلفت أنواعه، وفي الدواب والأنعام مهما اختلفت أشكالها وبناها كبراً وصغراً وهيئة، قبل أن يقطف ثمار الشجر ويتمتع بخيراته، وقبل أن يكتشف بعضاً من أسرار الخلق في الدواب التي تدب على وجه الأرض بأشكال وصور مختلفة، والأنعام وما أعظم خلقها وأكثر نفعها، وفي خلق الإنسان في أحسن تقويم، وبناء نفسه وكل ما فيه من الآيات ما اللّه به عليم.. وما أعظم وأروع آيات اللّه في الأنفس والآفاق التي جعل اللّه العلم بها دنيلاً على أن القرآن هو الحق من عند اللّه: ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ** ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت: ٥٣].

والواقع أن كل جزئية من الجزئيات التي عرضت لها الآيتان الكريمتان ـ وتلك قليل من كثير ـ تحتاج في تحديد ماهيتها وطبيعتها وما يمكن أن يكون لها من الأهمية في العلم الفلاني أو غيره إلى نوع من الاختصاص الدقيق. ومجموع ما ذكر في الآيتين مما هو تذكير بعظمة اللّه وقدرته، وحكمته البالغة وبديع صنعه. بل طريق علمية نيرة توصل إلى الإيمان.. كل أولئك لا يغطي بحثه العلمي، والكشف عن

الحقيقة في عينات منه في أرض كذا، أو بلد كذا، إلا عدد كبير من أهل الاختصاص، وما أكثر شعب الاختصاص اليوم، وهي ما تزال تزداد كثرة وتنوعاً كما يقول أهل الذكر في ذلك.

ولا يرتاب منصف أن هذا الذي نومىء إليه بهذه العجالة من القول التي لا يتسع لأكثر منها المقام ـ بعيداً عن البحث التخصصي المرتبط بعلمائه ـ موصل بلا شك ـ إذا ازدان بحث العالم بالتجرد والإنصاف ـ إلى أن وراء هذه الآثار مؤثراً ذا قدرة باهرة وحكمة عظيمة لا تحد.

وما من ريب ـ أيضاً ـ في أن العَالِم الحقيقي، إذا لم يكن هناك إرهاب فكري ومصادرة لحرية الإنسان، سيصل إلى الإيمان العميق بالله عز وجل، وربما كان أشد خشية من الإنسان العادي، لما يلمس بنفسه من طريق الاستقراء والتجربة في المخبر والمصنع، وأي ساحة من ساحات المتابعة والنظر ـ حسب الاختصاص ـ من آثار قدرة الله، وبديع صنعه، وحكيم تدبيره، وأن له في كل شيء آية تدل على أنه الخالق الفرد الصمد سبحانه؛ فالله تعالى خلق من الثمار والجبال خلقاً مختلفاً ألوانه، وخلق من الناس والدواب والأنعام خلقاً مختلفاً ألوانه كذلك، والكل خلقه سبحانه ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾﴾[المؤمنون: ١٤].

لذا كان من بلاغة الكتاب العزيز في الدلالة على المراد: أنه بعد أن عدّدت الكلمة القرآنية آيات الله، وأعلام قدرته، وآثار صنعه الحكيم، وما برأ من الفطر المختلفة الأجناس في الجماد والنبات والحيوان والإنسان تبعت ذلك تباركت أسماؤه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨] بهذا الحصر ﴿إِنَّمَا يَخْشَى﴾لأنهم عرفوه من طريق النظر والعبرة حق معرفته، قال الحافظ ابن كثير: (أي إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به، لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير أتمَّ، والعلم به أكمل، كانت الخشية له أعظم وأكثر).

هكذا يؤدي النظر في عجائب صنعه تعالى ـ وهو ما وجهت إليه الآيتان ـ إلى العلم بعظمة اللّه الكبير المتعال وجلاله، ويؤدي هذا العلم إلى خشية اللّه، فكان ما ختمت به الآية بعد هذا الحث والتحريض على البحث والنظر ومضة من ومضات الإعجاز في الكتاب المعجز. ولصاحب الظلال يرحمه اللّه كلام هنا في غاية الروعة لا يتسع المقام لذكره فلينظر هناك.

وبعد: أرأيت إلى هذا المعلم القرآني العظيم!! الإيمان باللّه وخشيته حق الخشية طريقهما العلم الناتج عن البحث، التجربة، النظر في آلاء اللّه، وآثار قدرته المبثوثة في هذا الكون المنبسط الأرجاء. والنظر المقصود هنا: نظر العلم والعبرة: معاناة علمية بطرقها الصحيحة، واعتبار له نوره وإشراقه.

وما أحرى أمتنا المحمدية ـ والحال هي الحال ضعفاً وانحساراً عن التمكين ـ أن تجعل من هذا المعلم القرآني واحداً من ركائز نهضتها المرتقبة بعد الكبوة، وحافزاً فعّالاً من حوافز الإقبال على العلم بمدلوله الواسع، تقنياً وغير تقني؛ لما أن النظر القائم على العلم التجريبي والاعتبار جعل في الآية الكريمة طريق الإيمان باللّه وخشيته الصادقة ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾.

ألا إن هذه الصلة المحكمة بين العلم بظواهر الكون وبين الإيمان بخالق الكون وخشيته التي هي طريق العمل بشريعته: تحملنا على متابعة مسيرة البناء المتعددة الميادين المتشعبة المسالك على خط لا يفترق فيه العلم عن الإيمان وخشية اللّه قيدَ أنملة؛ فلا تشغلنا المخلوقات عن الخلق بل تزيدنا صلة به سبحانه، ولا يزيدنا العلم إلا استمساكاً بالقرآن الذي فسح للعلم التجريبي فجعل منه واحداً من أهم الطرق الموصلة إلى ذلك الكنز العظيم وهو خشية اللّه.

وفي خاتمة المطاف: لا تثريب على المسلم وقد جاء هذا الحصر بقوله تعالى ـ بعد التنبيه على بعض آياته في الكون ـ: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ أن يبادر إلى تقرير أن هذا المعلم القرآني الذي أسعدنا اصطحابه كما يدعو إلى وجوب أن

يكون فينا دائماً العلماء المتخصصون المتابعون لمراحل المعرفة التي يولِّدها البحث والنظر يوماً بعد يوم، فهو ينادي أولئك الجانحين المفتونين بزخرف الغزو الفكري، فلا يرون أية مآخذ عند غيرنا أو أخطاء، ولكن ذلك مستقر عندنا.. يناديهم أن عودوا إلى الصراط السوي، وتحملوا تبعة انتمائكم إلى هذه الأمة الماجدة بالاستمساك بعرى الإسلام بوعي وفقه سليم لدين الله، وأفيدوا مما عند الآخرين في حقول العلم التجريبي - وكم لعلماء مسلمين معاصرين من إسهام فيه ـ ببصيرة ودون العدوان على هويتكم وانتمائكم؛ لكي تُسخِّروا العلم للإعداد المستطاع الذي أمر اللّه به كيما يكون في خدمة الحق والإنسان. لا كما يفعله أهل الحضارة المادية الحديثة، ولكي تكون التنمية المبتغاة كلاً متكاملاً، لا تنفصل فيه الأمور المادية والاقتصادية وما يتعلق بها عن العقيدة ومعطياتها وحقوقها.

وبذلك تسلم مسيرة أمتنا الحضارية من نقاط الضعف القاتل التي استحوذت على حضارة الآخرين الذين تحميهم القوة اليوم ويقولون ما لا يفعلون، بل يقولون أحيناً أسوأ مما يفعلون لأنهم أقوياء والمسلمون ضعفاء.

وبذلك أيضاً تكون الطريق ممهدة ـ بعون اللّه ـ أمام هذه الأمة لتبدأ مركزها القيدي في العالم من جديد. اللّهم إياك نعبد وإياك نستعين.

* * *

البناة.. وخشوع القلب والبناء على العلم الحقيقي المؤدي إلى الخشية

«٢»

سبحان منزل هذا الكتاب، مهما رجع الناظر المتدبر في آيه البصر، وأعاد، وتكرّر منه ذلك... تجدَّد يقينه بعظمة المنهج الرباني في تحقيق الغاية الكبرى وهي هداية الخلق صراط اللّه المستقيم، ووقع على ما يزيده إيماناً بأن القرآن الذي عجز العرب ـ وهم أهل الفصاحة والبيان عن أن يأتوا بسورة من مثله ـ هو كلام الحكيم الخبير، نزل به الروح الأمين على قلب محمد ﷺ. وكل ما فيه أدلة ناصقة بذلك على أكمل وجه وأبينه.

فعلى صعيد التربية والإعداد ـ مثلاً ـ تجد أن الكلمة القرآنية، لا تني تخاطب النفس الإنسانية من الأعماق ـ واللّه سبحانه يعلم من خلق ـ وتستثير كوامن الإيمان، وتحرك العقول لتعمل عملها في فهم نصوص الوحي والتثنية على ذلك بسلوك السبيل المتسقة معها، طلباً لمرضاة رب العالمين.

وهكذا تربي معالم الكتاب وتقوِّم، كيما يكون الفرد ـ وهو أساس الجماعة ـ على البنية القوية التي تؤدي وظيفة اللبنة الصالحة في تلك الجماعة، كما تربي الجماعة التي يراد لها أن تحمل عبء الرسالة فقهاً وعملاً وجهاداً، وسعياً جاداً في إبلاغها الناس والصبر على ما يصحب ذلك من تكاليف، وأن يكون ذلك على الوجه المطلوب.

فالذين يكرمهم اللّه بأن يكونوا حُداة ركب الإيمان على الطريق الصاعدة، وحملة لواء الحق ضمن ما يعترض ذلك من صعوبات وصوارف من داخل النفس ومن خارجها؛ ما بدٌ من أن يصاغوا صياغة تتسق مع ما أنيط بهم من مهمات كبار.

على هذه الساحة الزاخرة بالتبعات والتكاليف: كان مبكراً تذكيرُ المسلمين بأن تظل اليقظة الإيمانية والخشوع سيما قلوبهم، وضياء نفوسهم، وتحذيرُهم من أن يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبلهم من يهود ونصارى؛ فلما امتدَّ بهم الزمان، وطال عليهم الأمد، انحسرت معاني الخير عن حياتهم، مستبدلين الذي هو أدنى بالذي هو خير، وانصرفوا عن مبادىء الهداية والحق، وصاروا يتأولون كلام الله على غير وجهه، ويقبلون على الآراء المختلفة، والأقوال المؤتفكة، بل اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، فأطاعوهم في تحريم الحلال وتحليل الحرام، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم، وبدَّلوه واشتروا به ثمناً قليلاً، فعوقبوا بأن قست قلوبهم فلا تقبل موعظة، ولا تجل لذكر الله ولا تنتفع بوعد أو وعيد.

أجل نُبه المسلمون ـ وهم حملة الرسالة الخاتمة ـ أن يقعوا فيما وقع فيه المغضوب عليهم والضالون!!

روى ابن أبي حاتم بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: إن الله استبطأ قلوب المؤمنين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن فقال: **﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (١٦)﴾** [الحديد: ١٦].

وروى مسلم والنسائي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية إلا أربع سنين» **﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾** الآية.

وأنت ترى أن كلاً من الصحابيين الجليلين يقول ـ كما يبدو ـ حسب سنه في هذه الدعوة المباركة.

والحق أن الأمر خطير جدٌّ خطير؛ فالله تعالى يقول: **﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾**، أي تلين عند الذكر ـ كما يقول الحافظ ابن كثير ـ والموعظة وسماع القرآن، فتفهم وتنقاد له وتسمع له وتطيعه **﴿وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (١٦)﴾**[الحديد: ١٦].

إنه النهي الجازم للمؤمنين الذين أعزهم الله بالإسلام عن أن يتشبهوا بالذين حملوا الكتاب من قبلهم من اليهود والنصارى، لما تطاول عليهم الأمد، بدلوا كتاب الله الذي بأيديهم، واشتروا به ثمناً قليلاً. ولم يلبثوا أن نبذوه وراء ظهورهم غير عابئين بأنه من عند الله وعليهم أن يطيعوه وينقادوا له.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد؛ بل اتخذوا أحبارهم ورهبانهم ـ كما أشرت آنفاً ـ أرباباً من دون الله. قال الحافظ ابن كثير: فعند ذلك قست قلوبهم، فلا يقبلون موعظة، ولا تلين قلوبهم بوعد ولا وعيد.

وقد ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ إنهم فاسقون في الأعمال؛ فقلوبهم فاسدة وأعمالهم باطلة كما قال تعالى:﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ ﴾[المائدة ١٣] أي فسدت قلوبهم فقست ـ وإذا قسا القلب ضاعت المعالم، وفسدت التصورات والأعمال ـ فصار من سجيتهم تحريف الكلم عن مواضعه، وتركوا ما أمروا به من الأعمال، وارتكبوا ما نهوا عنه.

لذا جاء الخطاب الإلهي الجازم بنهي المؤمنين أن يتشبهوا بهم في شيء من الأمور الأصلية والفرعية. وهذا من الحكمة البالغة التي ازدان بها الأسلوب القرآني. في تربية الجماعة المسلمة، وإدامة تذكيرها بما يحفظ عليها بنيتها، ويصونها عن العثرات الجذرية التي تتنافى مع أصل المنطلق، وتحدث ما تحدث من الانحراف في التصور والتطبيق!!

صحيح أن الحياة أخذ وعطاء، وتأثر وتأثير، ولكن القرآن الكريم في إعداده المتجدد لأولئك البررة، يريد لهم أن يكونوا على الجادة عطاءً وفاعليةً وتأثيراً؛ فإذا أخذوا من غيرهم، أخذوا بمقدار وفي ضوء مفهومات الرسالة وضمن حدودها.

وأين موقف التقليد غير المسؤول، والتأثر، والضياع من قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة:١٤٣].

وإذا كان أهل الكتاب من قبلنا وقعوا فيما وقعوا فيه قسوة قلب، واستهانة بالكتاب المنزل، وجفوة للحق الذي نزل به؛ فلا يتأثرون بموعظة، ولا يعمل في نفوسهم تذكير: فإن اللّه تعالى ذكر من صفات المؤمنين الذين تكون هذه الصفات دليل الصدق في إيمانهم وكماله على صعيد أمتنا: ما هو غير ذلك بحمد اللّه.

ذلكم قوله تعالى في سورة الأنفال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾.

ولكم ينبغي للمؤمن أن يجاهد نفسه ويعمل على تزكيتها ليكون من أهل الخشية الذي يشير إليهم قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الزمر: ٢٣].

هذا: ويقتضينا حسن اصطحاب المعلم القرآني الذي نحن بسبيل الاستنارة بهديه، أن نشير إلى أن الكلمة القرآنية، قد آذنت المؤمنين بما هو شفاء القلوب من القسوة؛ فذلك إنما يكون بالعودة إلى اللّه والضرع إليه؛ فهو سبحانه الذي يحيي الأرض بعد موتها، والقادر على هذا قادر على أن يلين القلوب بعد قسوتها، وأن يرد إليها حياتها المعنوية بعد موات. والمهم أن يعود العبد عودة صادقة إلى رحاب القدرة الإلهية ويقلع عما كان سبباً لذلك الداء العضال، وذلكم عمل العقل الأخروي عند أولي النهى.

فبعد قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ الآية جاء قول الحق سبحانه ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الحديد:١٧].

وجميل ما طالعنا به الحافظ ابن كثير عند تفسيره للآية إذ قال رحمه اللّه: «فيه إشارة إلى أن اللّه يلين القلوب بعد قسوتها، ويهدي الحيارى بعد ضلتها، ويفرج الكروب بعد شدتها؛ فكما يحيي الأرض المجدبة الهامدة بالغيث الهتان الوابل، كذلك

يهدي القلوب القاسية ببراهين القرآن والدلائل، ويولج إليها النور بعد أن كانت مقفلة لا يصل إليها الواصل؛ فسبحان الهادي لمن يشاء بعد الضلال، والمضل لمن أراد بعد الكمال، الذي هو لما يشاء فعَّال، وهو الحكيم العدل في جميع الفعال، اللطيف الخبير الكبير المتعال».

أما بعد: فقد شاء الله بحكمته إكرام الأمة المحمدية، بأن تكون شاهدة على الناس، وأن تقف على خط الريادة للبشرية أجمعين، ويأبى لها ـ جل شأنه ـ أن تقع في شرك التقليد لمن ضلوا سواء السبيل، فتصاب بما أصيبوا به، وإنها مدعوَّة اليوم على صعيد الفرد والجماعة ـ وهو اختبار للإيمان أيُّ اختبار ـ أن تربط أسبابها بحبل الله المتين بذاتية وأصالة؛ فلا الفرد يقسو قلبه فيعرض عن تقوى الله والصلة بالكتاب والسنة، ولا الأمة تعرض عن منابع القوة وتجفو الحق وما إليه بعد طول الأمد؛ فتأخذ عن هؤلاء وأولئك دون تمحيص أو تدقيق ـ وما أكثر الزخارف ومضلات الفتن.

وإذا كان المعلم القرآني الذي أسعدنا اصطحابه: قد أشرقت هدايته في مجتمع يقف على ذروته بعد رسول الله ﷺ كبارُ الصحابة الذين لو كانت نبوة بعد رسول الله لكانت فيهم.. فإن علينا أن يكون لنا من تلك الآية الوجيزة بكلماتها المتسعة بمدلولاتها حافز صدق على العودة إلى الكتاب والسنة معتبرين بما حدث للمنحرفين قبلنا والسعيد من حالفه التوفيق.

* * *

الخشية والعلم المؤدي إليها وأثر ذلك في الفرد والمجتمع

«٣»

لعل من أعظم ما يضمن للمجتمع أن يؤدي أفراده ـ كلٌ في ساحة عمله ـ ما عليهم من حقوق، وأن يقوموا بما هو في أعناقهم من واجبات. أن يكون الفرد على خشية من اللّه دونها كل خشية، ومراقبة لله دونها كل مراقبة، وبذلك يكون الجهد والوقت والمال والمواهب كلها روافد ترفد مصالح الأمة وتكون في خدمتها.

ومهما حاول الناس أن يحرسوا الأنظمة بالزاجر والرادع من العقوبة، تظل الحراسة الداخلية في نفس الإنسان أثمن حراسة وأغلى رقابة.

وحين تتسع ميادين العمل، وتتنوع الأساليب، وتجد الأمة نفسها أمام أكثر من طريق للتطوير والتنمية والبناء، تبدو الحاجة ملحة أكثر لتنمية هذا الوازع، كيما يكون لكل فرد رقيب من داخل نفسه، يحجزه عن العبث ويحول دونه ودون الخيانة، ويحمله على القيام بالواجبات وأدائها على خير وجه، لا أن يكون همه اللّهاث وراء الحقوق دون أن يكون ذا فاعلية وتأثير في بناء المجتمع الأفضل وسلامة الأمة.

إنه يستقيم في عمله لما أن اللّه يراه وإن غفلت عنه عين الرقيب، كما قالت تلك الفتاة المؤمنة حين دعتها أمها إلى مذق اللبن: (إذا كان عمر غائباً فرب عمر حاضر).

والذين قام على كواهلهم بناء الجماعة المسلمة في صدر تاريخنا، كانت رؤيتهم غاية في الوضوح على هذه الساحة، بل على ساحة التصور والحسِّ الإيماني كأن يبدو كلٌّ من الخطأ والصواب عاملاً مؤثراً في التذكر وحسن مراقبة اللّه عز وجل،

فما كان من صواب استقاموا عليه، وما كان من خطأ جفوه وأقلعوا عنه، وتظل خشية اللّه بالغيب تملك على الواحد منهم زمام نفسه، تحمله على التذكر، وترتفع به إلى التوبة إن أساء.

والحق أن هذا الذي كان سمة من قام على كواهلهم البناء، والذي هو ضرورة ماسَّة في حياة الأمة، يبدو استجابة طبيعية لتوجيهات القرآن في هذا المضمار. ففي سورة لقمان: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾ وفي سورة تبارك يبشر اللّه الذين يخشون ربهم بالغيب بالمغفرة والأجر الكبير ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾﴾ واللّه تبارك وتعالى لا تخفى عليه خافية ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٣﴾﴾[الملك: ١٢–و١٣].

وممَّا يدعو إلى مزيد من اليقظة والاعتبار على هذه الساحة، ويعظم مكانة الروَّاد الأوائل أصحاب رسول اللّه في الصدور والقلوب: ما روى مسلم في صحيحه عن أبي شماسة المُهريِّ قال: (حضرنا عمرو بن العاص رضي اللّه عنه وهو في سياقه الموت، فبكى طويلاً، وحوَّل وجهه إلى الجدار. فجعل ابنه يقول: يا أبتاه! أما بشَّرك رسول اللّه ﷺ بكذا؟ أما بشرك رسول اللّه ﷺ بكذا؟ قال: فأقبل بوجهه فقال: إن أفضل ما نُعِدُّ شهادة أن لا إله إلا اللّهِ وأن محمداً رسول اللّه. إني قد كنت على أطباق ثلاث: لقد رأيتني وما أحد أشد بغضاً لرسول اللّه ﷺ مني ولا أحبَّ إليَّ أن أكون قد استمكنت منه فقتلته. فلو مُتُّ على تلك الحال لكنت من أهل النار. فلما جعل اللّه الإسلام في قلبي أتيت النبي ﷺ فقلت: ابسط يمينك فلأبايعك. فبسط يمينه. قال: فقبضت يدي. قال: «مالك يا عمرو؟» قلت: أردت أن أشترط، قال: «تشترط بماذا؟» قلت: أن يغفر لي، قال: «أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله؟ وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله؟» وما كان أحد أحب إليَّ من رسول اللّه ﷺ ولا أجلَّ في عيني منه وما كنت أطيق أن أملأ عيني منه إجلالاً

له. ولو سئلت أن أصفه ما أطقت؛ لأني لم أكن أملأ عينيَّ منه، ولو مت على تلك الحال لرجوت أن أكون من أهل الجنة. ثم ولينا أشياء ما أدري ما حالي فيها، فإذا أنا مت فلا تصحبني نائحة ولا نار، فإذا دفنتموني فشنوا علي التراب شناً، ثم أقيموا حول قبري قدر ما تنحر جزور، ويقسم لحمها حتى أستأنس بكم، وأنظر ماذا أراجع به رسل ربي).

* * *

هداية الكلمة القرآنية ..
وبناء الفرد والجماعة

«١»

الكلمة الهادية البانية في معالم القرآن الكريم، لم تكن كلمة واحد من البشر قابلة لاحتمالات الخطأ والصواب، ولا كلمة الفيلسوف يسبح في ساحات من التجريد والخيال تستعصي على التطبيق والنفاذ إلى الواقع..

ولكنها الكلمة المعصومة الواقعية، التي تقدم الحقيقة كما هي ببرهانها ومؤيداتها، وتقيم الدليل تلو الدليل على أنها للحياة وللإنسان، بكل ما يعمر دنياه بالخير، ويسعده في الآخرة بمرضاة اللّه وجنة عرضها السماوات والأرض.

ولقد وعت ذاكرة التاريخ، أن الفتح الإسلامي في ظل مفهومات القرآن وبيانه من سنة الرسول عليه الصلاة والسلام، كان باعث حياة في كل أرض رفع جند اللّه على رباها راية «لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه».

فأنَّى اتجهت لقيت - على صور من التكامل والشمول البالغين - حركة البناء والنماء؛ ما كان من ذلك على صعيد العقيدة والشريعة، أو كان على صعيد الاقتصاد والاجتماع، ناهيك عن ميادين البذل والعطاء، وفي مقدمتها الجهاد بالنفس والمال.

ولولا هذا الاشتمال لكل الميادين الفكرية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها لما شهد التاريخ ذلك البنيان الحضاري الذي امتد رواؤه، وأثمر عطاؤه في أكثر من قارة على هذا الكوكب.

والسر في ذلك: أن أولئك الذين صنعوا هذا التاريخ، وأسلمت إليهم الحضارة زمامها، هم الذين كانوا رهباناً في الليل أسوداً في النهار، ولم ينحسروا عن أية مهمة من مهمات البناء والإنماء، لما أن ذلك طاعة لله: ما دام وراءه إخلاص النية والرغبة في الخير.﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾[التوبة: ١٠٥].

ففي الوقت الذي كان دوي أصواتهم بالقرآن حافزاً لخوض معارك الحق، لم تكن صلاتهم في الليل والناس نيام وتبتلهم بين يدي اللّه عز وجل، بقلوب خاشعة وأعين دامعة، بحائل دونهم ودون أن يضربوا في الأرض، كسباً للرزق الحلال، واستثماراً للمال دون تجاوز للحدود. وتهيئة للمناخ المناسب الذي يضمن اقتصاداً تقوى به الجماعة وتستعين به على العمل والجهاد.

والكلمة الهادية المعصومة التي بنت أجيال الريادة في الماضي: قادرة على بناء جيل ترى الأمة في بروزه إلى الميدان منعطفاً في حياتها عميقاً جد عميق، ولمثل ذلك فليعمل العاملون.

* * *

هداية الكلمة القرآنية..
إلى سلامة بناء الفرد والمجتمع وسورة العنكبوت
«٢»

من المعالم القرآنية ذات الأبعاد الجذرية في حياة الفرد والجماعة، وذلك على ساحتي التصور والعطاء، والقدرة على دفع المد الحضاري في ضوء مفهومات الإسلام: ما تهدي إليه كثير من الآيات بشأن ما ينبغي أن يكون عليه طابع المجتمع الإسلامي من الحركة الدائبة والعمل المثمر على كل صعيد تقتضيه عملية البناء. وأن التواكل والاستخذاء وإلقاء الحبل على الغارب: خصال مرفوضة تأباها طبيعة المنهج الرباني.

ولعل من ركائز هذا المعلم الذي نشير إليه: قوله تعالى في آخر آية من سورة العنكبوت ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾.

وكون سورة العنكبوت سورة مكية ذو دلالة على أهمية الحركة في الخلية الإسلامية وتوجهها نحو البناء الذي يحقق مضمونات ما جاء من القرآن الكريم في صياغة الفرد والمجتمع وينمي عوامل الانطلاقة الخيرة التي تقطع أغلال الجاهلية وترتفع بالإنسان إلى أن يكون عنصر عطاء وفاعلية وتأثير، لا رقماً تائهاً في كهوف الضياع يتآكل يوماً بعد يوم.

وأنت واجد في الآية الكريمة أن اللّه رتب هداية سبله على الجهاد، والجهاد هنا يشمل جهاد النفس وجهاد العدو، كما يشمل البذل من النفس والمال وأي طاقة من الطاقات التي تؤدي غرضها في كل ما هو بناء أو سبيل إلى البناء، وتنمية الفاعليات التي بدونها يذوب المجتمع وتفقد الأمة وجودها الذاتي، في الفكر والاقتصاد والسياسة والاجتماع، وتصبح في ذيل القافلة عالة على الآخرين.

وهكذا فالذين يجاهدون في الله فيعملون بما يعلمون، ويسخِّرون طاقتهم في كل ميدان تتدبهم طبيعة البنية الإسلامية إليه: يهديهم الله تبارك وتعالى، فيبصِّرهم سبله ـ كما يقول العلماء ـ في الدنيا والآخرة. وتبصير السبل هذا: عنوان شامل يستوعب كل شؤون الحياة الدنيا وطريق السعادة يوم الدين.

إن سبل الله التي كلها خير وكلها نفع للفرد والمجتمع: أنيطت بالجهاد الذي تشمل ألوانه ـ فيما تشمل ـ التحرك المثمر البناء الذي يتسم بالشمول والعمق في آن واحد، وما أحوج أمتنا اليوم في شتى مجتمعاتها إلى ذلك، فسبل الخير مشرعة أبوابها للعاملين وإن كان هذا الأمر ليس على إطلاقه بالنسبة للحريات!!

وفي رائعة من روائع المعالم القرآنية نجد العلماء يتجهون إلى أن المراد بقوله تعالى: «والذين جاهدوا فينا». محمد ﷺ وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين. أرأيت إلى هذه السلسلة المباركة التي ينتمي إليها العاملون المجاهدون؟!!

* * *

الهداية.. وحوافز البناء للفرد والمجتمع.. في معالم الكتاب

«٣»

في حديثنا من قريب كانت لنا وقفة مع ركيزة من ركائز المعلم القرآني في الدعوة لى الدأب على التحرك المجدي في المجتمع المسلم وهي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾[العنكبوت: ٦٩].

وكان في الآية الإعلان العظيم عن تجاوز الحدود الزمنية حيث اتجه المحققون من العلماء إلى أن المقصود بـ ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا﴾الرسول ﷺ وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين.

وإنه لإعلان يجدر بكل أولئك الذين يعتزون بصدق الانتماء إلى أمة الإسلام أن يصغوا إليه بقلوبهم وعقولهم؛ فقد يكون من العبث العابث أن تبحث عن حافز للعمل البناء الذي يسهم في ارتقاء الأمة سلّم العزة والمنعة أفضل من هذا الحافز الذي يجعل من ينطبق عليهم أنهم من الذين يجاهدون في الله، حلقة في تلك السلسلة المباركة التي تضم الصحابة وإمامهم رسول الله عليه الصلاة والسلام.

إن الأمة ـ وهي تقف اليوم على عتبة يقظة جديدة ـ تتطلع إلى الأيدي الأمينة التي تحمل راية الحركة النافعة والجهاد الصادق، وتطرق ـ في ضوء الإسلام وبلغة العصر ـ أبواب العلم والاقتصاد والاجتماع، وكل ميدان له وجوده على صعيد المقومات المادية أو المعنوية للمجتمع.

ذلك لأن سبل التحدي اليوم مسلَّحة بسلاح العصر في العلم والاقتصاد وغيرها فإذا تحركت الخلية الإسلامية على سواء مع الاستقامة ولغة العلم كان من وراء ذلك بعون اللّه خير كثير، وتبوأت الأمة مكانها، في الاستقلال الذاتي وكانت هي صاحبة الكلمة فيما تبتغيه.

وماذا يريد العاملون على هذه الشاكلة أكثر من انتظامهم في سلك البررة من أصحاب رسول اللّه ﷺ ومن تبعهم بإحسان.

بل قد جاء في الحديث الصحيح «للعامل فيهم ـ أي أولئك الذين يأتون من بعدُ ـ: أجر خمسين، قال الصحابة منا أو منهم يا رسول اللّه قال: بل منكم» وفي رواية: «لأنكم تجدون على الخير أعواناً ولا يجدون» رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه والحاكم وصححه.

وعلى أية حال: لقد ختمت الآية بقوله جل وعلا: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾إنه معهم في عملهم وجهادهم بالعون والتأييد والنصرة ما داموا يصدقون النية، ولا يبخلون بجهد.

ومهما أحسنوا البناء ووفروا له شرائط الاستقرار والاستمرار، وارتادوا عملية الإنماء سبلها النافعة: فإن اللّه معهم وأكرم بها من معية وأعظم بها من حافز دونه حوافز الدنيا وهو ـ سبحانه ـ المحمود على كل حال.

* * *

الهداية في البناء.. وحصاد العمل

في عود على بدء يصلنا بما سبق من القول: حيث المعلم القرآني ودعوته إلى الحركة الدائبة المثمرة نقع على مرحلة أخرى، تستنفد الآيات فيها طاقة الإنسان في العمل، فتجعل لكل جهد من الخير مبذول في أمور الدين أو الدنيا أجره عند الله تعالى، وتتوعد على الشر مهما قلَّ شأنه عذاب الله في الآخرة.

ذلكم قوله تعالى بعد الحديث عن يوم القيامة في سورة الزلزلة وما يكون فيها: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾.

ألا ليت لأولئك الذين يقعد بهم التشاؤم، وخيبة الأمل في الناس وللذين يعبثون بمقدرات الأمة ولا يحسبون لعلم الله حساب.. ألا ليت لهؤلاء وأولئك قلوباً تعي مدلول هذه الكلمات القليلة بعددها، الغزيرة بعطائها وأبعادها.. إذن لكان لهم شأن آخر، وسبحان مقلب القلوب..

الأمة كلها مجندة في نظر الإسلام لعملية البناء الكبرى كما ترسم معالمها وغاياتها رسالة السماء وكل تنمية لطاقة الفرد أو الجماعة في أي زاوية من زوايا العمل والحصص رافد يرفد عملية بناء الفرد والمجتمع ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ﴿٣٠﴾﴾[الكهف:٣٠].

وأي انحراف من المسلم عن طاعة الله، أو توان في الإسهام الفعَّال الذي تتطلبه عملية البناء المنشود تلك التي لا يحدها زمان ولا مكان ولا قوم: مخالفة عن أمر الله تعالى.. وهو سبحانه لا يعزُب عن علمه شيء ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾.

والواقع أن الأمة التي تريد أن ترفع أيديها بالبناء، وتسعد على المدى بتوالي النماء في مرافق حياتها وقدرتها البشرية والمادية، لا بد أن تربي أبناءها على العمل الذي هو لون من ألوان الجهاد، بعيداً عن التواكل وطلب العافية، ونسيان الحصاد الأخروي.

أجل: لا بد أن تربي أبناءها على ذلك، الأمر الذي هو بالنسبة إلينا ضرورة ملحة، وأن تنمي فيهم روح الرغبة في التحرك النافع الذي إن أهمل تقديرَه العباد، فالله تعالى لا يضيع عمل عامل مهما كان شأن ذلك العمل.. أضف إلى ذلك أن العمل عندما توجهه وتصحبه النية الخالصة كان بريد الإنسان إلى سعادة الدنيا والآخرة بإذن الله.

روى البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يتبع الميت ثلاثة: أهله وماله وعمله، فيرجع اثنان ويبقى واحد، يرجع أهله وماله ويبقى عمله».

مرة أخرى: إن أمتنا التي حباها الله الموقع الجغرافي، والطاقة الاقتصادية، والثروة البشرية إلى جانب ما تحمل من رسالة الخير والهدى... ينقصها اليوم ـ في كثير من المجالات ـ الإنسان المسلم المصوغ تلك الصياغة الرائدة التي نلمح إليها، إيماناً ورغبة في العمل وحباً للجهاد، وقدرة على تفهم عصره الذي يعيش فيه وإدراكاً لأبعاد قوله تعالى:﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾.

* * *

قدر الهداية حق قدرها
في بناء الفرد والمجتمع

«١»

حديثنا القريب عن ضرورة الإدراك العميق في التربية والبناء لأبعاد قوله تعالى في واحدة من السور المكية ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

هذا الحديث يهدينا ــ حين نعيش واقعنا ـ إلى أن حاجة الأمة لا تنقضي: من ضرورة بناء الإنسان المسلم على العقيدة السليمة، وعلى سلامة السلوك قولاً وعملاً، بعد إذكاء روح الرغبة في العمل ـ وفق سنن اللّه ـ على كل ساحة تضمن سعادة الدنيا والآخرة.

وإنما ذكرت القول مع العمل، لأن القول من عمل الجوارح سواء أكان منطوقاً أم مكتوباً، أم في أي حالة أخرى تمت إلى ذلك بصلة، وعلى هذا فهو من العمل. ودور التعليم والإعلام في بناء الإنسان وتكوين الشخصية في الأسرة والمجتمع والأمة: لا ينكره إلا جاهل أو متغافل.

وهكذا فبمقدار ما نريد من أن يتجه الفرد والجماعة إلى العمل الخير في تربيتنا واقتصادنا وتكويننا الاجتماعي والفكري.. تبدو الضرورة ملحة في التمكين للقاعدة التي يجب أن يقوم عليها هذا البناء.. وهي ارتباط العقيدة بالعمل، وأنَّ العمل مسؤولية تفرضها هذه العقيدة، إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

ولو استنطقنا الواقع وما يجدُّ فيه من أحداث، لوجدنا لزاماً أن نعمق دور العقيدة على كل صعيد؛ فقوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾.

الأصل فيه أن الإنسان المسلم معتقد بوجود اللّه تعالى، مؤمن بأن هنالك يوماً آخراً يقف الناس فيه لرب العالمين، وتعرض أعمالهم على الخالق القادر الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء «يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد اللّه. ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه».

وما نقوله عن تعميق دور العقيدة في هذا المضمار وغيره تدل عليه سورة «إذا زلزلت» بكاملها والتي هي من السور المبكرة في العهد المكي حيث تأخذ مراحل الدعوة دورها في بناء الإنسان السوي بتكامل السلوك في إدراكه للأمور وتوجهه نحو بناء مجتمع سليم لا تشوبه انحرافات الجاهلية والضياع.

يا لله لعظمة هذا القرآن!! يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم... أرأيت يا أخي ليُروا أعمالهم. اللّه تعالى يريهم أعمالهم ما عظم منها وما صغر﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾واللّه ولي التوفيق.

* * *

موقع الهداية والتربية والبناء

«٢»

أمد الإعجاز في الكلمة القرآنية: مرتقى صعب لا يدَّعي محدوديته واحد من الشر الأسوياء، ولقد رأينا من قريب أن قوله تعالى : ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)﴾ يعطي فيما يعطيه أن حاجة الأمة لا تنقضي من بناء المسلم على العقيدة السليمة النقية وسلامة السلوك قولاً وعملاً.

وفي نظرة تكاملية نجد أن الحاجة لا تنقضي أيضاً من تنمية الوعي الشامل عند هذا الإنسان المسلم ـ ذكراً أو أنثى ـ لمعنى وجوده ومسؤوليته في هذه الحياة. وأنه بموثقه الذي أعطاه لربه بالإسلام، أصبح صاحب رسالة لا مكان فيها للقعود عن العمل، أو الانحراف في هذا العمل مهما كان شأنه.

وهذه الرسالة تعطي أن الأمور لا تسير على غير هدى بلا حسيب ولا رقيب، بل إن الأعمال كلها محصية عند اللّه تعالى، ولو بلغت من الصغر أن تكون مثقال ذرة.

﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا (٥) يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ (٦) فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)﴾.

وإنما كان ذلك، لأن كل شيء عنده جل وعلا في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى. وكيما نكون صادقين مع أنفسنا في دعوى الإيمان باللّه وما جاء في قرآنه الكريم، لا بد أن نحمل هذه الحقيقة في عقولنا وقلوبنا، كيما ينعكس ذلك على السلوك عند القول والعمل، سيما وأن الوقائع كلها بجانب النصوص تفرض ذلك.

إن تنمية الإحساس بهذه الحقيقة عند الفرد والجماعة من العبادة والتعامل، وممارسة أي شأن من شؤون الحياة، كفيل بأن يسهم في دفع السفينة إلى ساحة النجاة بإذن اللّه.

فسلامة الوجهة في البناء المنشود: تقتضي بجانب الأوامر والنواهي، والزواجر والحوافز الأرضية: أن نرتفع بالفرد إلى مستوى التفاعل مع التوجيه المميَّز لقوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾.

* * *

الهداية في التربية والبناء... والعمل

«٣»

في ظل ما كنا بسبيله من قريب: تقفنا الحقيقة على صورة غاية في التعبير عن هول ما يصيب المجرمين المنحرفين عن جادة الهدى يوم القيامة حين يجدون أن كل ما اقترفوه محصي في كتاب وأن اللّه جلت قدرته لا يظلم أحداً من خلقه، وإنما يؤخذ من يؤخذ بجريرة ما اكتسب من الإثم.

ذلكم قوله تعالى في سورة الكهف: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾.

وإذا كان لزاماً اليوم أن نسابق الزمن لنبلغ ـ في ضوء الإسلام ـ من العلم والقوة ما يمكننا اجتياز مرحلة التخلف وأداء رسالتنا في العالمين.

فإن على الخبية الإسلامية أن تتحرك لتبني قدرتها الفاعلة التي تؤثر في مجرى الأحداث، وتضع نتائجها في الموقع الذي تريد.

وفي كلام ينتسب إلى ما أسلفنا من قبل: حين نكون على تصور لتعدد ميادين العمل وشعبه وألوانه، ما كان على صعيد الفكر والاقتصاد، أو الساحة التقنية، أو التحرك في مواجهة المتغيرات والوقائع، وتحديات الأعداء.

حين نكون على تصور صحيح لهذا كله: ندرك أي لون من ألوان الإعجاز يحمله المعلم القرآني في سورة ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾حين يعمل على تنمية الشعور بمسؤولية العمل مهما كان شأنه وحجمه، فما كان خيراً: فجزاؤه رضى اللّه وجنةٌ عرضها السماوات

والأرض، وما كان غير ذلك: فجزاؤه سوء العاقبة وبئس المصير ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾. يا أيها الرواد: إن أمتنا ـ وهي تجتاز هذه الحقبة من تاريخها ضمن واقع نسيجه كثير من المتغيرات وانعكاسات التخلف عن ركب الإسلام العظيم ـ: يعوزنا لمسايرة ركب الحياة وتنمية كل طاقات الحركة عند الفرد والجماعة، مع استكمال مرحلة البناء الذاتي: حسن التفاعل مع حقائق الإسلام كما هي في معالم الكتاب وسنة المصطفى عليه الصلاة والسلام.

أجل إنها مدعوة ـ بجانب إفادتها من معطيات العلم ـ أن تعيش معالم القرآن وهدي السنة منهجاً وواقع حياة ومن يطع الرسول فقد أطاع الله!

* * *

التربية على الهداية والاتباع.. في البناء

«١»

ما يرى من تباشير المد الإسلامي، واهتمام غير المسلمين به وبخاصة على الصعيد الإعلامي هنا وهناك، ومحاولة الوقوف في وجه هذا المد فيما يظهر وفيما يتوقع حتى بالعنف البالغ وتجاوز جميع القيم والحدود. كل ذلك يقتضينا مزيداً من المتابعة لما أشرنا إليه فيما سبق من القول: من عطاء المعلم القرآني الذي يدفع إلى الحرص على الذاتية والاستقلال في المجتمع، على صعيد المنهج والنظام الذي يحكم عملية البناء. دون إغماض العين عن الإفادة مما عند الآخرين ببصيرة وعيون مفتحة، الأمر الذي يحول دون الانزلاق في المخالفة لا سمح اللّه.

ولقد يستوقف الباحث مع هذا الوضوح في قوله تعالى: ﴿ **ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ** ﴿١٨﴾ ﴾أن سورة الجاثية التي تنتسب إليها هذه الآية: سورة مكية، الأمر الذي يدل على أن وجود الأمة الذاتي المتميز بمنطلقاته ونظام الحياة فيه: كان لا بد أن يكون متصوراً منذ بدء الدعوة، وعند الخطوات الأولى على طريق البناء وصياغة الفرد والمجتمع في ضوء رسالة الإسلام.

والناظر في معالم الكتاب الكريم يجد تأكيد هذه القضية الكبرى، وتنمية وجودها، والإحساس العميق بأبعادها من كل مرافق الحياة: أمراً آخذاً طريقه من العهد المكي إلى انعهد المدني ـ كما سنرى ـ صورة عن التكامل ووجوب وضوح الرؤية في الأساس الذي يقوم عليه البناء، لتحقيق ذلك في عالمي التصور والتطبيق.

ففي سورة الأنعام ـ وهي سورة مكية أيضاً ـ نقرأ في الآية الرابعة بعد المئة وما بعدها قوله جلت حكمته: ﴿ **قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ** ﴿١٠٤﴾ ﴾... الآيات.

في حومة الصراع، والمشركون تحكمهم جاهليتهم، والمسلمون وهم يرفعون لواء الحق فئة قليلة مستضعفة لا تهاون، ولا إدهان ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾﴾ [القلم: ٩] ولكن وجوب اتباع الوحي الكفيل بصياغة الفرد والمجتمع والأمة على منهج الحق بذاتية وتميز، ووجوب الإعراض من المشركين.

وليكن معلوماً أن هذا الإعراض ما كان في الماضي ولن يكون الحاضر انحساراً عن الحياة أو إعراضاً عن تحمل مسؤولية التغيير إلى ما هو الأفضل للفرد والجماعة، وإرادة الخير للجميع؛ حاشا أن يكون ذلك، ولكن تركيز الاهتمام على ما هو محور الحركة وأساس البناء، دون أن يكون لإعراض الأعداء، وتخذيلهم، وحربهم النفسية والمادية الساخنة منها والباردة، سلطان على المسيرة الذاتية المتميزة، في تكييفها وفق ما دعا إليه القرآن ونبيه الرسول عليه الصلاة والسلام.

إن القرآن قد سلم لمحمد ﷺ قيادة ركب الإنسان، ولن يصلح آخر هذه الأمة لتتحول إلى سدَّة هذه القيادة من جديد، إلا بما صلح به أولها والله المستعان.

* * *

الهداية والاتباع.. في البناء

«٢»

في صورة أخرى من صور التأكيد، تأكيد الحقيقة التي ألمحنا إليها في الماضي القريب، من خلال واحد من معالم الكتاب الكريم، نقرأ في خواتم سورة مكية أخرى هي سورة يونس قول الله جل ذكره: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾.

جماعة الشرك سادرون في غيهم ـ عكوفاً على عبادة الأوثان، وتعطيلاً لعمل العقل ـ وإيماناً بالخرافة، ناهيك عن الاستمساك بموروثات جاهلية أخرى على الصعيد الاجتماعي لا تزيد بنية المجتمع إلا تخلخلاً.

المشركون على هذه الحال، ورسول الله يدعوهم إلى ما به سعادتهم في الدنيا والآخرة، وإنقاذهم من الجاهلية التي يتمرغون في أوحالها، فيقابلون دعوته بالإعراض والأذى. ولكن الآيات تتنزل بالمنهج الذي لا بد أن تصاغ عليه الأمة في بنية الفرد والمجتمع، كيما تكون أمة رائدة في دنيا البشرية، لها نظامها المتميز، ومنهجها السليم في الحياة، وعطاؤها الفريد في صناعة التاريخ.

وهكذا يجد القارىء المتدبر أن هذه الآيات من خواتم سورة يونس وأمثالها مما جاء في العهدين المكي والمدني تعلن إعلانها الواضح عما يجب أن تكون عليه الأمة ذاتية واستقلالاً وأصالة.

أما أن تكون ذيل القافلة.. فتلك حقبة لا بد أن تذهب مع الجاهلية ذهاباً غير مأسوف عليه، يؤمر النبي ﷺ أن يقول لهؤلاء الناس السادرين الضائعين في كهوف جهليتهم العمياء قد جاءكم الحق من ربكم وهو هذا الإسلام فهو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك، والأمر مطروح عليكم يخاطب عقولكم وقلوبكم، ويدعوكم للتبصر

والتدبر؛ فمن استجاب لدعوة الخير التي هي المنقذ من هلكة الفوضى والتبعية للآخرين، فإنما يعود نفع تلك الاستجابة على نفسه. ومن ضلَّ وعاند فإنما يرجع وبال ذلك عليه. وما أنا موكل بكم حتى تكونوا مؤمنين، فخلق الهداية بيد اللّه وما عليَّ إلا البلاغ.

وبعد هذا التقديم المستنير العميق: تبرز الحقيقة الكبرى مرة أخرى خطاباً للنبي ﷺ الذي هو في الوقت نفسه ـ خطاب للجماعة المسلمة في متقلبها عبر الأزمنة وفي كل البقاع. ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾.

إن ما يوحى إليه هو الحق الذي نطقت به الآية السابقة، وإخراج الحق الموحى به إلى حيِّز الوجود العملي: كفاؤه صبر على المتاعب، وتحمل الأذى، وصدق في المواطن، ولكن حكم اللّه بنصرة الفئة المؤمنة قادم بلا ريب ﴿وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾.

فمع إشراقة كل شمس ومع كل واحد من المتغيرات في دنيا المسلمين تبدو الحاجة ملحة أكثر وأكثر لالتزام هذا الاتباع الذي نلمح إليه.

وكل مسلم على وجه هذه البسيطة، وبخاصة أهل الكفايات والمهارات في كل تخصص وفي كل لون من ألوان المعرفة والإنتاج، ومن بيدهم مقدرات الأمة في كل مجتمع. إن كل مسلم ـ حسب الذي أقامه اللّه عليه ـ مسؤول عن الإسهام في إخراج (اتباع ما يوحى عقيدة وشريعة ونظام سلوك) إلى حيز الوجود العملي الذي يأخذ صفة التأثير والفاعلية ويرتفع بالعاملين إلى أن يكونوا على سوية المهمة الكبرى مهمة البناء الحضاري المتكامل الذي يبدأ من عقيدة التوحيد ولا يغفل عن أي جانب يسعد الإنسان في الدنيا والآخرة وللّه الأمر من قبل ومن بعد.

* * *

الهداية والبناء..
والوحدة الموضوعية في سورة يونس
«٣»

هل لي أن أعود بكم إلى سورة يونس مرة أخرى؟

لقد كانت لنا وقفة عند الآيتين الأخيرتين من السورة وهما قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾.

هذه الوقفة ستلهمنا من خلالها وضع الأمة أمام مسؤولياتها، وثقل الأمانة في اتباع الحق الذي هو وحي اللّه إلى نبيه محمد عليه الصلاة والسلام، وأن كل امرىء حاصد يوماً ما زرعه وجانٍ ما كسبت يداه.. وهدانا المعلم القرآني إلى أن سُبُل البناء الذي ينقذ الأمة من الوهدة ، ويمكنّها من اقتحام المفاوز، في هذا العصر المفعَم بالتغيرات المثقل بالمتناقضات، وبالأدلة القاطعة على ضرورة الاستقلالية في المنهج والممارسة على دروب العطاء.

لقد هدانا المعلم القرآني إلى أن سبل البناء تبدأ من هنا.. تبدأ من هذا الاتباع عقيدة وعلماً ـ بالمدلول الواسع الشامل للعمل ـ وعملاً يتواءم مع العلم والعقيدة وإنه لاتباعٌ يعطيه صورته العملية المثلى، إعداد منهجي موضوعي تراعى فيه الحاجات والإمكانات من طريق التربية والتعليم والإعلام، وتنمية المهارات والكفايات القادرة ـ بإذن اللّه ـ على صياغة الواقع بإحكام، الأمر الذي يمكّن الفرد والجماعة من العمل بالإسلام بعيداً عن ترهات المفترين، وتأويلات الضالين والمنتحلين.

والعودة اليوم إلى هذه السورة سورة يونس، عودة ترينا التمكين لهذا الذي قلناه من قبل، ضمن إطار تقرير المبدأ العام في الوحي ثم الانتقال بعد رحلة غامرة بالهداية عبر السورة إلى ضرورة اتباع الحق الذي نزل به الوحي. فإذا قرأنا الآيات التي بدئت بها السورة وقعنا على الترابط الموضوعي بين فواتح السورة وخواتمها، فقد بدئت السورة بقوله تعالى: ﴿الٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾﴾.

والناظر في هاتين الآيتين وفي آخر آية من السورة وهي قوله تعالى:﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ يقع ـ كما أشرنا ـ على ما أسميناه الترابط الموضوعيَّ بين فواتح السورة وخواتمها. فالحكيم العليم أنزل الوحي على المصطفين من عباده. وخاتمهم محمد عليه الصلاة والسلام؛ وصلاح الأمة إنما يكون باتباع ما أوحي إليه على كل صعيد وفي كل ميدان. وذلك ما مكَّن لها في الماضي حين أثبتت وجودها في كافة حقول البناء والنماء. واللّه الموفق.

* * *

الهداية والتربية على مخالطة القرآن.. والبناء

«٤»

هداية القرآن الكريم في معالمه النيرة التي لاتدع أن تتناول كليات البناء الذي تهدف رسالة الإسلام إلى تعميق قواعده وتنمية عوامل استمراره وإشاعة الإفادة عنه على صعيد الإنسان والبنية الكاملة للمجتمع والأمة، وعلى المدى الذي يشمل الدنيا والآخرة...

هذه الهداية مطلوب من الرواد بناةِ الأجيال والمجتمعات اليوم وبخاصة في دنيا المسلمين، أن يقيموا الجسور المتينة بينها وبين الناشئة ذكورهم وإناثهم، وأن يجعلوا منها عماد النهضة وعنوان اليقظة.

ولست بحاجة إلى أن أقيم الأدلة على ضرورة ذلك، فلو تجاوزنا ما تدل عليه النصوص واخترنا أن نستنطق الواقع، وما آلت إليه التجارب حلوها ومرها وما خلفت من آثار: لكفى بذلك مقنعاً لمن تجرد عن الهوى وكان همه الوصول إلى الحقيقة وخدمة مجتمعه وأمته.

والقرآن الكريم قريب قريب للنفوس ميسَّر ميسَّر للتذكر ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾[القمر: ١٧] ولو أحسنا مخالطته بإخلاص وروية لرأينا كيف يغذي العقول والقلوب ويخاطب الفطرة، ناهيك عن تنمية المدارك والارتفاع بالإنسان إلى المستوى اللائق بإنسانيته كيما يكون حقاً ذلك المخلوقَ الذي يريد الخير للجميع، يحيي للدنيا والآخرة، ولا يدع أن يثبت دائماً أنه وقّاف عند الذي يقتضيه تكريم اللّه له﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴿٧٠﴾﴾ [الإسراء: ٧٠] وفي ظل هذه الحقيقة نذكر ما عرضناه

من قريب من الترابط الموضوعي بين فواتح سورة يونس وخواتمها: من تقرير لمبد الوحي الذي به إسعاد البشرية، ومن وجوب الأخذ بما يوحى به إلى رسول اللّه إيماناً وعلماً وعملاً وذلك حقيقة الاتباع.

والحق أن ما افتتحت به السورة المباركة: عميق الدلالة على ما يجب أن يكون مدار اهتمام الإنسان فيما يُصلح شؤونه وشؤون بيئته ومجتمعه بل وأمته، وأن الذين تهون عليهم أنفسهم ومصالح مجتمعهم وأمتهم هم أولئك الذين تهون عليهم أنفسهم ومصالح مجتمعهم وأمتهم هم أولئك الذين يدعون قضية البناء الكبرى لأنانيات فارغة تدل على الجهد وضيق الأفق، وكان الأولى بهم وهم يدركون ــ ولو من بعض الجوانب ـ مسيس الحاجة إلى إصلاح جذري لا تضيع معه الإمكانات ولا تهدر الطاقات، ولا تكسل العقول، أن يبادروا إلى ساحة الخير فيستجيبوا لكلمة الحق، ويلتفوا حول النور السماوي الذي يدعوهم إلى تغيير واقعهم المثقل بالمتاعب والتخلف. ويضمن لهم ـ أن لو استقاموا سعادة الدارين.

* * *

الهداية.. الواقع الجاهلي.. وعملية البناء

«٥»

في حديث موصول بما دار عليه الحديث الذي كنا بسبيله فيما سلف: نعود إلى قراءة الآيات التي بدئت بها سورة يونس، لنكون أقرب إلى تبين الدلالة التي ألمحنا إليها، الأمر الذي يعطي مزيداً من الوضوح ـ على طريق البناء ـ في الصلة الوثيقة بين بدء السورة وختامها.

يقول الله تعالى: ﴿الَر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (١) أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ (٢)﴾ [يونس: ١-٢].

هكذا افتتحت السورة بالتذكير العام بآيات القرآن وهو الكتاب الحكيم، ووصفه هنا بالحكيم: أمر واضح الدلالة على المراد، حيث يحمل إلى الناس ما فيه عين الحكمة بإصلاح شؤونهم ويرسم لهم النهج الذي يسعدهم إن التزموا به ـ في الدنيا ويوم الحساب.

وبعد هذا التذكير: تنكر الآية الثانية ـ من طريق الاستفهام ـ على أولئك المشركين عجبهم من أن ينزل الله الوحي على رجل منهم بإنذار الناس عاقبة ما هم فيه من الغواية: عبادة للأوثان وخضوعاً للخرافة، وسلوكاً بالمجتمع سبيل الانحلال والتمزق. ويبشر الذين يؤمنون ويعملون الصالحات أن لهم من اليقين والعمل الصالح الذي يشمل النفس والأسرة والمجتمع: قدم صدق عند ربهم. وقدم الصدق هذا عنوان التوفيق وما يكون من رضى الله ومثوبته. قال حسان رضي الله عنه:

لنا القدمُ العليا إليكَ وخَلفُنَا ... لأوَّلِنَا في طاعةِ اللهِ تابعُ

﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ ﴾ [يونس:٢].

لقد عجبوا من هذا الوحي زاعمين أن الله أعظم من أن ينزل الوحي على رجل منهم وهو محمد ﷺ، فكفروا بما جاء به وكذبوه وقالوا: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ﴾.

لقد كان كل ما في المجتمع الجاهلي مدعاة للعقلاء أن يكونوا على اهتمام بقضية التغيير.. تغيير الواقع السيىء اليوم بالبديل الصالح الذي يزيل ظلمة الجاهلية الجهلاء، ويضع ما عند القوم من مكارم الأخلاق موضعها. ويكشف عن الإمكانات المهدرة، كيما توظف على ساحة البناء في إيقاظ العقول وتأليف القلوب، وجمع الشتات، ورص الصفوف في مواجهة التحديات المنافية للأخلاق وإنسانية الإنسان.

وعنوان ذلك كله أن يستجيبوا لما دعاهم إليه رسول الله ﷺ.

* * *

الهداية القرآنية مرة أخرى
مع البناء في سورة يونس
«٦»

حين أنكر القرآن على أولئك الجاهليين عجبهم أن يتنزل الوحي على رجل منهم، واتهامهم من يدعوهم إلى النجاة والسعادة بأنه ساحر مبين.. حين أنكر عليهم ذلك، كان يريد أن يرتفع بهم إلى مستوى الاهتمام الحقيقي بما يجب الاهتمام به، وأن يفتح عقولهم على ما به يكون بناء الإنسان بناء يضع طاقاته وما أعطاه اللّه من إمكانات في موضعها المثمر المنتج، وما به يكون بناء المجتمع المتماسك المتعاون، الذي لا تعوزه خصائص الوجود الذاتي في العقيدة التي يحملها الأفراد، والشرعة التي تنظم التعاون فيما بينهم، وتضع القواعد التي تجعل منهم أمة يحسب حسابها، لا عند جاراتها فحسب، ولكن على الصعيد العالمي. ولكنهم نظروا بمنظار تحكمه الأنانية وضيق الأفق، وما كذلك تكون لبنات الإصلاح، ومقومات التغيير.

والذين ارتفعوا إلى هذا المستوى كانت منهم الاستجابة لدعوة الحق، ورأى العالم من آثار ذلك، خلايا تعمل في كل ميدان، وتتحرك على كل صعيد، وتعطي على دروب الحضارة الإنسانية عطاءً حيَّر العقول في تعليله وتسارع خطاه.

إنهم لم يعجبوا كيف يتنزل الوحي على رجل منهم، ولم تحكمهم فكرة أنه ساحر مبين.. لقد تحرروا من هذه الأغلال، فاستطاعوا أن يحملوا الأمانة العملية التي عجزت عنها قرون، عملية البناء الكبرى التي هزت الجزيرة العربية، وحركتها لينساح أبناؤها في شتى أقطار الأرض بناة صالحين، ودعاة إلى اللّه مخلصين.

ويدور الزمان دورته لترى الأمة نفسها في شتى أقطارها ومجتمعاتها أمام امتحانات صعبة قاسية يوماً بعد يوم.. وأنها حين تعزم عزمها على تخطي الامتحانات الصعبة ما بدّ من أن تسلم قيادها من جديد لهذا الإسلام، لا بالعواطف والكلمات فحسب، ولكن بالانطلاقة التي تحتم الأخذ العملي الواعي والالتزام الصادق الذي لا يحيد ولا يريم.

إن سورة يونس وضعت أيدينا على مكمن الداء.. حين ساء منطلق المشركين فعموا وصموا وعجبوا من تنزل الوحي على رجل منهم، ووصفوه بأنه ساحر مبين، ودلت على أن الوحي نور الهداية للبشر ومنهج سعادتهم في الدنيا ويوم الدين. وفي ترابط موضوعي على محور الهداية في معالم الكتاب ختمت السورة خطاباً لصاحب الرسالة بقوله تعالى: ﴿ **فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾** ﴾ [هود: ١٠٩].

إن في ذلك تبصيراً للجانحين عن الطريق كي يتذكروا ويعودوا إلى حظيرة العمل والبناء في ظل معالم كتابهم الحكيم، كما أن فيه تثبيتاً لأفئدة البناة الرواد من أبناء هذه الأمة ولله الأمر من قبل ومن بعد. والله ولي الصابرين على لأواء الطريق التي تنتهي بجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين.

* * *

الهداية مطلب أساسي في الإسلام
التربية والإعداد

الحرص على هداية الإنسان: مطلب كبير الأهمية في دعوة الإسلام؛ من أجل هذا رأينا الرسول ﷺ يعاني ما يعاني من كفار قريش، في ذاته هو وفي أصحابه الذين يؤمنون بدعوته، من إيذاء واضطهاد ومحاولة الفتنة عن الدين.. وفيما وراء ذلك تراه وكأنه يتقلب على الجمر أسفاً على أولئك الذين لا يؤمنون، لما يعلم أن عدم إيمانهم واستجابتهم لدعوة الحق سيؤدي بهم إلى شقاء الدنيا، وعذاب الآخرة وبئس المصير. وهكذا.. لم تكن مواقفهم السلبية العابثة بصارفة رسول الله ـ وهو سيد الرحماء ـ عن تلك المشاعر الكريمة في هداية الإنسان من حيث هو إنسان، لأن الغرض الذي ينشده من أرسله الله رحمة للعالمين: إنما هو تلك الهداية.

حتى إن القرآن الكريم عرض لهذه القضية، وكشف عما يعانيه النبي ﷺ في هذه السبيل، فقال تعالى في فواتح سورة الكهف، بعد الكلام عن طائفة من الكفار: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾﴾ أي: فلعلك مهلك نفسك بعد تولّيهم عنك أسفاً أن لم يؤمنوا بهذا القرآن الذي نوحيه إليك. صلى الله وسلم على رسول الله، الذين يلقى من عتوهم وأذاهم وعنادهم ما يلقى، يكاد يهلك نفسه أسفاً عليهم إن لم يؤمنوا، وفي سورة الشعراء: ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ وإنك واجد في الآيتين دعوة للنبي ﷺ أن يشفق على نفسه أن يقتلها غماً وأسفاً ألا يكون أولئك الكفرة على الصراط السوي. بل يقول له في سورة فاطر: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾﴾.

كل هذا يؤكد ما أسلفنا، من أن هداية الإنسان في الإسلام مطلب قائم بذاته وغاية لا ينبغي لواحد من دعاة الإسلام تجاهلها.

غير أن هنالك ضميمة إلى هذه النقطة لا بد أن تأخذ حجمها الطبيعي في قضية الدعوة، وهي الأمل العريض بفضل اللّه تعالى في أن تتحقق الاستجابة للدعوة، في تخطٍ لحدود الزمن والأشخاص؛ ذلك أن الرسول ﷺ وهو في أقصى حالات الشدة، كان لا ينقطع رجاؤه من أن يؤمن الأولاد إن لم يؤمن الآباء، وأن يؤمن الأحفاد من بعدهم.. بل لعل اللّه يخرج من أصلاب هؤلاء الكفار ـ هكذا على إطلاقها ـ من يؤمن باللّه واليوم الآخر..

ولنستمع إلى السيدة عائشة رضي اللّه عنها لإيضاح هذه المقولة؛ فقد روى البخاري ومسلم أنها قالت مرة للنبي ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشدَّ من يوم أُحُد؟ قال: لقد لقيت من قومك! وكان أشدَّ ما لقيته منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسي على ابن عبد يا ليل بن كُلَالٍ، فلم يُجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهمومٌ على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي، وإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرتُ فإذا فيها جبريل عليه السلام، فناداني فقال: إن اللّه تعالى قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث إليك مَلَكَ الجبال، لتأمرُه بما شئتَ فيهم، فناداني ملكُ الجبال، فسلَّم عليَّ ثم قال: يا محمد، إن اللّه سمع قولَ قومِك لك، وأنا مَلَك الجبال، وقد بعثني ربي إليك لتأمرَني بأمرك. فما شئت، إن شئت أطبقتُ عليهم الأخشبين ـ أي الجبلين المحيطينَ بمكة ـ فقال النبي ﷺ «بل أرجو أن يخرج اللّه من أصلابهم من يعبد اللّه وحده لا يشرك به شيئاً».

أرأيت يا أخي إلى قيمة الإنسان في هذه الدعوة، وإلى قيمة الهداية في الإسلام، ثم إلى هذه النظرة المحمدية التي تتخطى القرون برحمة بالغة وضياء بلا حدود!!

ثم إن الرسول عليه الصلاة والسلام ربّى أصحابه على هذه الحقيقة ـ حقيقة أن الأصل في التحرك الإسلامي: الهداية لبني الإنسان. الأمور على أشدِّها يوم خيبر، وحصن شديد من حصون العدو مستعصٍ على المسلمين، فكان مما قاله رسول اللّه:

أين علي بن أبي طالب؟ فقالوا: هو يا رسول اللّه يشتكي عينيه، قال: فأرسلوا إليه. فأتي به، فبصق رسول اللّه ﷺ في عينيه، ودعا له فبَرأ، حتى كأن لم يكن به وجع. فأعطاه الراية. فقال عليٌّ: يا رسول اللّه! أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ فقال: «انفذ على رسلك، حتى تكون بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام. وأخبرهم بما يجب عليهم من حق اللّه فيه. «**فواللّه لأن يهدي اللّه بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حُمْرُ النَّعَم**». رواه مسلم. وأصحاب السير. نعم: المطلب الأول: هداية الخلق إلى الحق الذي جاء به الإسلام.

والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا اللّه!

* * *

المحتويات

* * *